

الجزء السابع عشر

الطبعة الأولى

يطلب من ملتزم طبعه

عبد الرحمن محمد

ملتزم طبع المصحف الشريف بجوار الجامع الأزهر

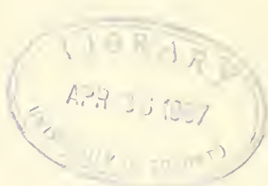
طبع بالمطبعة البهية المصرية

١٣٥٧ هجرية — ١٩٣٨ ميلادية

سـورة يونس

مكية، إلا الآيات: ٤٠ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ فمدنية

وآياتها: ١٠٩ نزلت بعد الاسراء



بسم الله الرحمن الرحيم

الر تلك آيات الكتاب الحكيم «١»

سـورة يونس

عليه السلام وهى مائة وتسع آيات مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن هذه السورة مكية إلا قوله (ومنهم من يؤمن به ومنهم من لايؤمن به وربك أعلم بالمفسدين) فانها مدنية نزلت فى اليهود.

قوله جل جلاله ﴿الر﴾ وفيه مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ نافع وابن كثير وعاصم (الر) بفتح الراء على التفخيم، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى ويحيي عن أبى بكر: بكسر الراء على الامالة. وروى عن نافع وابن عامر وحماد عن عاصم، بين الفتح والكسر، واعلم أن كلها لغات صحيحة. قال الواحدى: الأصل ترك الامالة فى هذه الكلمات نحو ماولا، لأن ألفاتها ليست منقلبة عن الياء، وأما من أمال فلان هذه الألفاظ أسماء للحروف المخصوصة. فقصد بذكر الامالة التنبيه على أنها أسماء لاحروف.

﴿المسألة الثانية﴾ اتفقوا على أن قوله (الر) وحده ليس آية، واتفقوا على أن قوله (طه) وحده آية. والفرق أن قوله (الر) لايشاكل مقاطع الآى التى بعده بخلاف قوله (طه) فانه يشاكل مقاطع الآى التى بعده.

﴿المسألة الثالثة﴾ الكلام المستقصى فى تفسير هذا النوع من الكلمات قد تقدم فى أول سورة البقرة إلا أنا نذكر ههنا أيضا بعض ماقيل . قال ابن عباس (الر) معناه أنا الله أرى . وقيل أنا الرب لارب غيرى . وقيل (الر) و (حم) و (ن) اسم الرحمن .

قوله تعالى ﴿تلك آيات الـكتاب الحـكيم﴾ فيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قوله (تلك) يحتمل أن يكون إشارة إلى مافى هذه السورة من الآيات ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى ماتقدم هذه السورة من آيات القرآن ، وأيضا فالكتاب الحـكيم يحتمل أن يكون المرادمنه هو القرآن . ويحتمل أن يكون المرادمنه غير القرآن ، وهو الـكتاب المخزون المكنون عند الله تعالى الذى منه نسخ كل كتاب ، كما قال تعالى (إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون) وقال تعالى (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) وقال (وإنه فى أم الـكتاب لدينا لعلى حكيم) وقال (يمحوا الله مايشاء ويثبت وعنده أم الـكتاب)

وإذا عرفت ماذكرنا من الاحتمالات تحصل ههنا حينئذ وجوه أربعة من الاحتمالات :

﴿الاحتمال الأول﴾ أن يقال : المراد من لفظة (تلك) الاشارة إلى الآيات الموجودة فى هذه السورة ، فكان التقدير تلك الآيات هى آيات الـكتاب الحـكيم الذى هو القرآن ، وذلك لأنه تعالى وعد رسوله عليه الصلاة والسلام أن ينزل عليه كتاباً لايمحوه الماء ، ولا يغيره كرور الدهر ، فالتقدير أن تلك الآيات الحاصلة فى سورة (الر) هى آيات ذلك الكتاب المحكم الذى لايمحوه الماء .

﴿الاحتمال الثانى﴾ أن يقال : المراد أن تلك الآيات الموجودة فى هـذه السورة هى آيات الـكتاب المخزون المكنون عند الله .

واعلم أن على هذين القولين تكون الاشارة بقولنا (تلك) إلى آيات هذه السورة وفيه إشكال ، وهو أن (تلك) يشار بها إلى الغائب ، وآيات هذه السورة حاضرة ، فكيف يحسن أن يشار اليه بلفظ (تلك)

واعلم أن هذا السؤال قد سبق مع جوابه فى تفسير قوله تعالى (الم ذلك الـكتاب)

﴿الاحتمال الثالث والرابع﴾ أن يقال : لفظ (تلك) إشارة إلى ماتقدم هذه السورة من آيات القرآن ، والمراد بها : هى آيات القرآن الحـكيم . والمراد أنها هى آيات ذلك الـكتاب المكنون المخزون عند الله تعالى . وفى الآية قولان آخران : أحدهما : أن يكون المراد من (الـكتاب الحـكيم) التوراة والانجيل ، والتقدير : أن الآيات المذكورة فى هذه السورة هى الآيات المذكورة فى التوراة والانجيل ، والمعنى : أن القصص المذكورة فى هـذه السورة موافقة للقصص المذكورة فى التوراة

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ «٢»

والانجيل ، مع أن محمداً عليه الصلاة والسلام ما كان عالما بالتوراة والانجيل ، فحصول هذه الموافقة لا يمكن إلا إذا خص الله تعالى محمداً بانزال الوحى عليه . والثانى : وهو قول أبى مسلم : أن قوله (الر) إشارة إلى حروف التهجى ، فقوله (الر تلك آيات الكتاب) يعنى هذه الحروف هى الأشياء التى جعلت وعلامات لهذا الكتاب الذى آيات به وقع التحدى . فلولا امتياز هذا الكتاب عن كلام الناس بالوصف المعجز . وإلا لكان اختصاصه بهذا النظم ، دون سائر الناس القادرين على التلفظ بهذه الحروف محالا .

﴿المسألة الثانية﴾ فى وصف الكتاب بكونه حكيما وجوه : الأول : أن الحكيم هو ذو الحكمة بمعنى اشتمال الكتاب على الحكمة . الثانى : أن يكون المراد وصف الكلام بصفة من تكلم به . قال الأعشى :

وغريبة تأتى الملوك حكيمة قد قلتها ليقال من ذا قالها

الثالث : قال الأكثرون (الحكيم) بمعنى الحاكم ، فعيل بمعنى فاعل ، دليله قوله تعالى (وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس) فالقرآن كالحاكم فى الاعتقادات لتميز حقها عن باطلها ، وفى الأفعال لتميز صوابها عن خطئها ، وكالحاكم على أن محمداً صادق فى دعوى النبوة ، لأن المعجزة الكبرى لرسولنا عليه الصلاة والسلام ، ليست إلا القرآن . الرابع : أن (الحكيم) بمعنى المحكم . والأحكام معناه المنع من الفساد ، فيكون المراد منه أنه لا يمحوه الماء ، ولا تحرقه النار ، ولا تغيره الدهور . أو المراد منه براءته عن الكذب والتناقض . الخامس : قال الحسن : وصف الكتاب بالحكيم ، لأنه تعالى حكم فيه بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وحكم فيه بالجنة لمن أطاعه وبالنار لمن عصاه . فعلى هذا (الحكيم) يكون معناه المحكوم فيه . السادس : أن (الحكيم) فى أصل اللغة : عبارة عن الذى يفعل الحكمة والصواب ، فكان وصف القرآن به مجازا ، ووجه المجاز هو أنه يدل على الحكمة والصواب ، فمن حيث أنه يدل على هذه المعانى صار كأنه هو الحكيم فى نفسه .

قوله تعالى ﴿أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لسحر مبين﴾

فى الآية مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ أن كفار قريش تعجبوا من تخصيص الله تعالى محمدا بالرسالة والوحى، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك التعجب. أما بيان كون الكفار تعجبوا من هذا التخصيص فمن وجوه: الأول: قوله تعالى (أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد) واذا بلغوا فى الجهالة إلى أن تعجبوا من كون الاله تعالى واحدا، لم يبعد أيضاً أن يتعجبوا من تخصيص الله تعالى محمدا بالوحى والرسالة! والثانى: أن أهل مكة كانوا يقولون: إن الله تعالى ماوجد رسولا الى خلقه إلا يتيم أبى طالب! والثالث: أنهم قالوا (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وبالجملة فهذا التعجب يحتمل وجهين: أحدهما: أن يتعجبوا من أن يجعل الله بشراً رسولا، كما حكى عن الكفار أنهم قالوا (أبعث الله بشراً رسولا) والثانى: أن لايتعجبوا من ذلك بل يتعجبوا من تخصيص محمد عليه الصلاة والسلام بالوحى والنبوة مع كونه فقيراً يتيما. فهذا بيان أن الكفار تعجبوا من ذلك. وأما بيان أن الله تعالى أنكر عليهم هذا التعجب فهو قوله فى هذه الآية (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم) فان قوله (أكان للناس عجباً) لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه الانكار، لأن يكون ذلك عجباً. وإنما وجب إنكار هذا التعجب لوجوه: الأول: أنه تعالى مالك الخلق وملك لهم والمالك والملك هو الذى له الأمر والنهى والاذن والمنع. ولا بد من إيصال تلك التكاليف إلى أولئك المكلفين بواسطة بعض العباد. وإذا كان الأمر كذلك كان إرسال الرسول أمراً غير ممتنع. بل كان مجوزاً فى العقول. الثانى: أنه تعالى خلق الخلق للاشتغال بالعبودية كما قال (وماخلقت الجن والانس إلا ليعبدون) وقال (إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه) وقال (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) ثم إنه تعالى أكمل عقولهم ومكنهم من الخير والشر. ثم علم تعالى أن عباده لايشتغلون بما كلفوا به، إلا إذا أرسل اليهم رسولا ومنبهاً: فعند هذا يجب وجوب الفضل والكرم والرحمة أن يرسل اليهم ذلك الرسول، وإذا كان ذلك واجباً فكيف يتعجب منه. الثالث: أن إرسال الرسل أمر ماأخلى الله تعالى شيئاً من أزمنة وجود المكلفين منه، كما قال (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يوحى اليهم) فكيف يتعجب منه مع أنه قد سبقه النظير. ويؤكده قوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه) وسائر قصص الأنبياء عليهم السلام. الرابع: أنه تعالى إنما أرسل اليهم رجلا عرفوا نسبه وعرفوا كونه أمينا بعيدا عن أنواع التهم والأكاذيب ملازما للصدق والعفاف. ثم إنه كان أميا لم يخالط أهل الأديان، وماقرأ كتابا أصلا البتة. ثم إنه مع ذلك يتلو عليهم أقاصيصهم ويخبرهم عن وقائعهم. وذلك يدل على كونه

صادقا مصدقا من عند الله ، ويزيل التعجب ، وهو من قوله (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم) وقال (وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) الخامس : أن مثل هذا التعجب كان موجوداً عند بعثة كل رسول ، كما فى قوله (وإلى عاد أخاهم هودا . وإلى ثمود أخاهم صالحا) إلى قوله (أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم) السادس : أن هذا التعجب إما أن يكون من إرسال الله تعالى رسولا من البشر ، أوسلموا أنه لاتعجب فى ذلك ، وإنما تعجبوا من تخصيص الله تعالى محمداً عليه الصلاة والسلام بالوحى والرسالة .

أما الأول : فبعيد لأن العقل شاهد بأن مع حصول التكليف لابد من منبه ورسول يعرفهم تمام مايحتاجون اليه فى أديانهم كالعبادات وغيرها .

وإذا ثبت هذا فنقول : الأولى أن يبعث اليهم من كان من جنسهم ليكون سكونهم اليه أكمل والفهم به أقوى . كما قال تعالى (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) وقال (قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا)

وأما الثانى : فبعيد لأن محمدا عليه الصلاة والسلام كان موصوفا بصفات الخير والتقوى والأمانة ، وماكانوا يعيبونه إلا بكونه يتيما فقيرا ، وهذا فى غاية البعد ، لأنه تعالى غنى عن العالمين فلا ينبغى أن يكون الفقر سببا لنقصان الحال عنده ، ولا أن يكون الغنى سببا لكمال الحال عنده . كما قال تعالى (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى) فثبت أن تعجب الكفار من تخصيص الله تعالى محمدا بالوحى والرسالة كلام فاسد .

﴿المسألة الثانية﴾ الهمزة فى قوله (أكان) لأنكار التعجب ولأجل التعجيب من هذا التعجب و(أن أوحينا) اسم كان وعجبا خبره ، وقرأ ابن عباس (عجب) فجعله اسما وهو نكرة و(أن أوحينا) خبره وهو معرفة كقوله : يكون مزاجها عسل وماء . والأجود أن تكون «كان» تامة ، وأن أوحينا ، بدلا من عجب .

﴿المسألة الثالثة﴾ أنه تعالى قال (أكان للناس عجبا) ولم يقل أكان عند الناس عجبا ، والفرق أن قوله (أكان للناس عجبا) معناه أنهم جعلوه لأنفسهم أعجوبة يتعجبون منها ونصبوه وعينوه لتوجيه الطيرة والاستهزاء والتعجب اليه ! وليس فى قوله (أكان عند الناس عجبا) هذا المعنى .

﴿المسألة الرابعة﴾ (أن) مع الفعل فى قولنا (أن أوحينا) فى تقدير المصدر وهو اسم كان وخبره ، هو قوله (عجبا) وإنما تقدم الخبر على المبتدأ ههنا لأنهم يقدمون الأهم ، والمقصود بالانكار فى هذه الآية إنما هو تعجبهم ، وأما (أن) فى قوله (أن أنذر الناس) فمفسرة لأن الايحاء فيه معنى القول ،

ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة . وأصله أنه أنذر الناس على معنى أن الشان قولنا أنذر الناس .

﴿المسألة الخامسة﴾ أنه تعالى لما بين أنه أوحى إلى رسوله ، بين بعده تفصيل ماأوحى إليه وهو الانذار والتبشير . أما الانذار فللكفار والفساق ليرتدعوا بسبب ذلك الانذار عن فعل مالا ينبغى ، وأما التبشير فلأهل الطاعة لتقوى رغبتهم فيها . وإنما قدم الانذار على التبشير لأن التخلية مقدمة على التحلية ، وإزالة مالا ينبغى مقدم فى الرتبة على فعل ماينبغى .

﴿المسألة السادسة﴾ قوله (قدم صدق) فيه أقوال لأهل اللغة وأقوال المفسرين . أما أقوال أهل اللغة فقد نقل الواحدى فى البسيط منها وجوها . قال الليث وأبو الهيثم : القدم السابقة ، والمعنى : أنهم قد سبق لهم عند الله خير . قال ذو الرمة .

وأنت امرؤ من أهل بيت ذؤابة لهم قدم معروفة ومفاخر

وقال أحمد بن يحيي : القدم كل ماقدمت من خير ، وقال ابن الأنبارى : القدم كناية عن العمل الذى يتقدم فيه ، ولا يقع فيه تأخير ولا إبطاء .

واعلم أن السبب فى إطلاق لفظ القدم على هذه المعانى ، أن السعى والسبق لايحصل إلا بالقدم . فسمى المسبب باسم السبب ، كما سميت النعمة يدا ، لأنها تعطى باليد .

فان قيل : فما الفائدة فى إضافة القدم إلى الصدق فى قوله سبحانه (قدم صدق)

قلنا : الفائدة التنبيه على زيادة الفضل وأنه من السوابق العظيمة . وقال بعضهم : المراد مقام صدق . وأما المفسرون فلهم أقوال فبعضهم حمل (قدم صدق) على الأعمال الصالحة . وبعضهم حمله على الثواب ، ومنهم من حمله على شفاعة محمد عليه الصلاة والسلام ، واختار ابن الأنبارى هذا الثانى وأنشد :

صل لذى العرش واتخذ قدما بنجيك يوم العثار والزلل

﴿المسألة السابعة﴾ أن الكافرين لما جاءهم رسول منهم فانذرهم وبشرهم وأتاهم من عند الله تعالى بما هو اللائق بحكمته وفضله قالوا متعجبين (إن هذا لساحر مبين) أى إن هذا الذى يدعى أنه رسول هو ساحر . والابتداء بقوله (قال الكافرون) على تقدير فلما أنذرهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ، قال القفال : وإضمار هذا ، غير قليل فى القرآن .

﴿المسألة الثامنة﴾ قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائى (إن هذا لساحر) والمراد منه محمد صلى الله عليه وسلم ، والباقون (لسحر) والمراد به القرآن .

واعلم أن وصف الكفار القرآن بكونه سحراً يدل على عظم محل القرآن عندهم ، وكونه معجزاً .

إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَامِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ «٣»

وأنه تعذر عليهم فيه المعارضة ، فاحتاجوا إلى هذا الكلام .

واعلم أن إقدامهم على وصف القرآن بكونه سحراً ، يحتمل أن يكونوا ذكروه فى معرض الذم ، ويحتمل أنهم ذكروه فى معرض المدح ، فلهذا السبب اختلف المفسرون فيه . فقال بعضهم : أرادوا به أنه كلام مزخرف حسن الظاهر ، ولكنه باطل فى الحقيقة ، ولا حاصل له ، وقال آخرون : أردوا به أنه لكمال فصاحته وتعذر مثله ، جار مجرى السحر .

واعلم أن هذا الكلام لما كان فى غاية الفساد لم يذكر جوابه ، وإنما قلنا إنه فى غاية الفساد ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان منهم ، ونشأ بينهم وماغاب عنهم ، وماخالط أحداسواهم ، وماكان مكة بلدة العلماء والأذكياء ، حتى يقال : إنه تعلم السحر أو تعلم العلوم الكثيرة منهم فقدر على الاتيان بمثل هذا القرآن . وإذا كان الأمر كذلك ،كان حمل القرآن على السحر كلاما فى غاية الفساد ، فلهذا السبب ترك جوابه .

قوله تعالى ﴿إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار أنهم تعجبوا من الوحى والبعثة والرسالة . ثم إنه تعالى أزال ذلك التعجب بأنه لا يبعد البتة فى أن يبعث خالق الخلق اليهم رسولا يبشرهم على الأعمال الصالحة بالثواب ، وعلى الأعمال الباطلة الفاسدة بالعقاب ، كان هذا الجواب إنما يتم ويكمل باثبات أمرين : أحدهما : إثبات أن لهذا العالم إلها قاهرا قادرا نافذا الحكم بالأمر والنهى والتكليف . والثانى : إثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة ، حتى يحصل الثواب والعقاب اللذان أخبر الانبياء عن حصولها ، فلا جرم أنه سبحانه ذكر فى هذا الموضع مايدل على تحقيق هذين المطلوبين .

﴿أما الأول﴾ وهو إثبات الالهية ، فبقوله تعالى (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض)
﴿وأما الثانى﴾ وهو إثبات المعاد والحشر والنشر . فبقوله (إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقاً) فثبت أن هذا الترتيب فى غاية الحسن ، ونهاية الكمال . وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قد ذكرنا فى هذا الكتاب، وفى الكتب العقلية أن الدليل الدال على وجود الصانع تعالى، إما الامكان وإما الحدوث وكلاهما إما فى الذوات وإما فى الصفات، فيكون مجموع الطرق الدالة على وجود الصانع أربعة، وهى إمكان الذوات. وإمكان الصفات، وحدوث الذوات، وحدوث الصفات. وهذه الأربعة معتبرة تارة فى العالم العلوى وهو عالم السموات والكواكب، وتارة فى العالم السفلى، والأغلب من الدلائل المذكورة فى الكتب الالهية التمسك بامكان الصفات وحدوثها تارة فى أحوال العالم العلوى. وتارة فى أحوال العالم السفلى، والمذكور فى هذا الموضع هو التمسك بامكان الأجرام العلوية فى مقاديرها وصفاتها، وتقريره من وجوه:
الأول: أن أجرام الأفلاك لاشك أنها مركبة من الأجزاء التى لاتتجزى، ومتى كان الأمر كذلك كانت لامحالة محتاجة إلى الخالق والمقدر.

﴿أما بيان المقام الأول﴾ فهو أن أجرام الأفلاك لاشك أنها قابلة للقسمة الوهمية. وقد دللنا فى الكتب العقلية على أن كل ما كان قابلا للقسمة الوهمية، فانه يكون مركبا من الأجزاء والأبعاض. ودللنا على أن الذى تقوله الفلاسفة من أن الجسم قابل للقسمة، ولكنه يكون فى نفسه شيئاً واحدا كلام فاسد باطل. فثبت بما ذكرنا أن أجرام الأفلاك مركبة من الأجزاء التى لاتتجزى، وإذا ثبت هذا وجب افتقارها إلى خالق ومقدر، وذلك لأنها لما تركبت فقد وقع بعض تلك الأجزاء فى داخل ذلك الجرم. وبعضها حصلت على سطحها، وتلك الأجزاء متساوية فى الطبع والماهية والحقيقة، والفلاسفة أقروا لنا بصحة هذه المقدمة حيث قالوا إنها بسائط، ويمتنع كونها مركبة من أجزاء مختلفة الطبائع.

وإذا ثبت هذا فنقول: حصول بعضها فى الداخل. وحصول بعضها فى الخارج، أمر ممكن الحصول جائز الثبوت، يجوز أن ينقلب الظاهر باطنا، والباطن ظاهرا. وإذا كان الأمر كذلك وجب افتقار هذه الأجزاء حال تركيبها إلى مدبر وقاهر، يخصص بعضها بالداخل وبعضها بالخارج. فدل هذا على أن الأفلاك مفتقرة فى تركيبها وأشكالها وصفاتها إلى مدبر قدير عليم حكيم.

﴿الوجه الثانى﴾ فى الاستدلال بصفات الأفلاك على وجود الاله القادر أن نقول: حركات هذه الأفلاك لها بداية، ومتى كان الأمر كذلك افتقرت هذه الافلاك فى حركاتها إلى محرك ومدبر قاهر.

﴿أما المقام الأول﴾ فالدليل على صحته أن الحركة عبارة عن التغير من حال الى حال، وهذه الماهية تقتضى المسبوقية بالحالة المنتقل عنها، والأزل ينافى المسبوقية بالغير، فكان الجمع بين الحركة

وبين الأزل محالا ، فثبت أن لحركات الأفلاك أولا ، وإذا ثبت هذا وجب أن يقال : هذه الأجرام الفلكية كانت معدومة فى الأزل وإن كانت موجودة ، لكنها كانت واقفة وساكنة . وما كانت متحركة . وعلى التقديرين : فلحركاتها أول وبداية .

﴿وأما المقام الثانى﴾ وهو أنه لما كان الأمر كذلك وجب افتقارها إلى مدبر قاهر ، فالدليل عليه أن ابتداء هذه الأجرام بالحركة فى ذلك الوقت المعين دون ماقبله ودون مابعده ، لابد وأن يكون لتخصيص مخصص ، وترجيح مرجح . وذلك المرجح يمتنع أن يكون موجبا بالذات ، وإلا لحصلت تلك الحركة قبل ذلك الوقت لأجل أن موجب تلك الحركة كان حاصلا قبل ذلك الوقت . ولما بطل هذا ، ثبت أن ذلك المرجح قادر مختار وهو المطلوب .

﴿الوجه الثالث﴾ فى الاستدلال بصفات الأفلاك على وجود الاله المختار ، وهو أن أجزاء الفلك حاصلة فيه لافى الفلك الآخر ، وأجزاء الفلك الآخر حاصلة فيه لافى الفلك الأول . فاختصاص كل واحد منها بتلك الأجزاء أمر ممكن ، ولا بد له من مرجح ، ويعود التقرير الأول فيه . فهذا تقرير هذا الدليل الذى ذكره الله تعالى فى هذه الآية ، وفى الآية سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ أن كلمة (الذى) كلمة وضعت للاشارة إلى شىء مفرد عند محاولة تعريفه بقضية معلومة ، كما إذا قيل لك من زيد ؟ فتقول : الذى أبوه منطلق ، فهذا التعريف إنما يحسن لو كان كون أبيه منطلقا ، أمرا معلوما عند السامع ، فهنا لما قال (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) فهذا إنما يحسن لو كان كونه سبحانه وتعالى خالقا للسموات والأرض فى ستة أيام ، أمرا معلوما عند السامع ، والعرب ماكانوا عالمين بذلك ، فكيف يحسن هذا التعريف ؟

وجوابه أن يقال : هذا الكلام مشهور عند اليهود والنصارى ، لأنه مذكور فى أول مايزعمون أنه هو التوراة . ولما كان ذلك مشهورا عندهم والعرب كانوا يخالطونهم ، فالظاهر أنهم أيضا سمعوه منهم ، فلهذا السبب حسن هذا التعريف .

﴿السؤال الثانى﴾ ماالفائدة فى بيان الأيام التى خلقها الله فيها ؟

والجواب : أنه تعالى قادر على خلق جميع العالم فى أقل من لمح البصر . والدليل عليه أن العالم مركب من الأجزاء التى لاتتجزى ، والجزء الذى لايتجزى لايمكن إيجاده إلا دفعة . لأنا لو فرضنا أن إيجاده إنما يحصل فى زمان ، فذلك الزمان منقسم لامحالة من آنات متعاقبة ، فهل حصل شىء من ذلك الايجاد فى الآن الأول أو لم يحصل ، فان لم يحصل منه شىء فى الآن الأول فهو خارج عن مدة الايجاد ، وإن حصل فى ذلك الآن إيجاد شىء وحصل فى الآن الثانى إيجاد شىء آخر ، فهما

إن كانا جزأين من ذلك الجزء الذى لا يتجزى ، فحينئذ يكون الجزء الذى لا يتجزى متجزئا . وهو محال .
وإن كان شيئاً آخر ، فحينئذ يكون إيجاد الجزء الذى لا يتجزى لا يمكن إلا فى آن واحد دفعة واحدة .
وكذا القول فى إيجاد جميع الأجزاء . فثبت أنه تعالى قادر على إيجاد جميع العالم دفعة واحدة ، ولا
شك أيضاً أنه تعالى قادر على إيجاده وتكوينه على التدريج .

وإذا ثبت هذا فنقول ههنا مذهبان : الأول : قول أصحابنا وهو أنه يحسن منه كلما أراد . ولا
يعلل شىء من أفعاله بشىء من الحكمة والمصالح ، وعلى هذا القول يسقط قول من يقول : لم خلق
العالم فى ستة أيام وما خلقه فى لحظة واحدة ؟ لأنا نقول كل شىء صنعه ولا علة لصنعه فلا يعلل شىء
من أحكامه ولا شىء من أفعاله بعلة ، فسقط هذا السؤال . الثانى : قول المعتزلة وهو أنهم يقولون
يجب أن تكون أفعاله تعالى مشتملة على المصلحة والحكمة . فعند هذا قال القاضى : لا يبعد أن يكون
خلق الله تعالى السموات والأرض فى هذه المدة المخصوصة ، أدخل فى الاعتبار فى حق بعض المكلفين .
ثم قال القاضى :

فان قيل : فمن المعتبر وما وجه الاعتبار ؟ ثم أجاب وقال : أما المعتبر فهو أنه لابد من مكلف
أو غير مكلف من الحيوان خلقه الله تعالى قبل خلقه للسموات والأرضين ، أو معهما ، وإلا لكان
خلقهما عبثا .

فان قيل : فهلا جاز أن يخلقهما لأجل حيوان يخلقه من بعد ؟!

قلنا : إنه تعالى لا يخاف الفوت ، فلا يجوز أن يقدم خلق مالا ينتفع به أحد ، لأجل حيوان
سيحدث بعد ذلك ، وإنما يصح منا ذلك فى مقدمات الأمور لأنا نخشى الفوت ، ونخاف العجز
والقصور . قال : وإذا ثبت هذا فقد صح ماروى فى الخبر أن خلق الملائكة كان سابقاً على خلق
السموات والأرض .

فان قيل : أولئك الملائكة لابد لهم من مكان ، فقبل خلق السموات والأرض لا مكان ، فكيف
يمكن وجودهم بلا مكان ؟

قلنا : الذى يقدر على تسكين العرش والسموات والأرض فى أمكنتها كيف يعجز عن تسكين
أولئك الملائكة فى أحيازها بقدرته وحكمته ؟ وأما وجه الاعتبار فى ذلك فهو أنه لما حصل هناك
معتبر ، لم يمتنع أن يكون اعتباره بما يشاهده حالا بعد حال أقوى . والدليل عليه : أن
مايحدث على هذا الوجه ، فانه يدل على أنه صادر من فاعل حكيم . وأما المخلوق دفعة واحدة فانه
لا يدل على ذلك .

﴿والسؤال الثالث﴾ فهل هـذه الأيام كأيام الدنيا أو كما روى عن ابن عباس أنه قال : إنها ستة أيام من أيام الآخرة كل يوم منها ألف سنة مما تعدون ؟

والجواب : قال القاضى : الظاهر فى ذلك أنه تعريف لعباده مدة خلقه لها ، ولا يجوز أن يكون ذلك تعريفاً ، إلا والمدة هذه الأيام المعلومة .

ولقائل أن يقول : لما وقع التعريف بالأيام المذكورة فى التوراة والانجيل ، وكان المذكور هناك أيام الآخرة لا أيام الدنيا ، لم يكن ذلك قادحاً فى صحة التعريف .

﴿السؤال الرابع﴾ هذه الأيام إنما تتقدر بحسب طلوع الشمس وغروبها ، وهذا المعنى مفقود قبل خلقها . فكيف يعقل هذا التعريف ؟

والجواب : التعريف يحصل بما أنه لو وقع حدوث السموات والأرض فى مدة ، لو حصل هناك أفلاك دائرة وشمس وقمر ، لكانت تلك المدة مساوية لستة أيام :

ولقائل أن يقول : فهذا يقتضى حصول مدة قبل خلق العالم ، يحصل فيها حدوث العالم ، وذلك يوجب قدم المدة .

وجوابه : أن تلك المدة غير موجودة بل هى مفروضة موهومة ، والدليل عليه أن تلك المدة المعينة حادثة ، وحدوثها لا يحتاج إلى مدة أخرى ، وإلا لزم إثبات أزمنة لا نهاية لها وذلك محال ، فكل مايقولونه فى حدوث المدة فنحن نقوله فى حدوث العالم .

﴿السؤال الخامس﴾ أن اليوم قد يراد به اليوم مع ليلته ، وقد يراد به النهار وحده . فالمراد بهذه الآية أيهما .

والجواب : الغالب فى اللغة أنه يراد باليوم . اليوم بليلته .

﴿المسألة الثانية﴾ أما قوله (ثم استوى على العرش) ففيه مباحث : الأول : أن هذا يوهم كونه تعالى مستقراً على العرش والكلام المستقصى فيه مذكور فى أول سورة طه ، ولكننا نكتفى ههنا بعبارة وجيزة . فنقول : هـذه الآية لا يمكن حملها على ظاهرها ، ويدل عليه وجوه : الأول : أن الاستواء على العرش معناه كونه معتمداً عليه مستقراً عليه ، بحيث لولا العرش لسقط ونزل ، كما أنا إذا قلنا إن فلاناً مستو على سريره . فانه يفهم منه هذا هذا المعنى . إلا أن إثبات هـذا المعنى يقتضى كونه محتاجا إلى العرش ، وإنه لولا العرش لسقط ونزل ، وذلك محال ، لأن المسلمين أطبقوا على أن الله تعالى هو الممسك للعرش والحافظ له ، ولا يقول أحد أن العرش هو الممسك لله تعالى والحافظ له . والثانى : أن قوله (ثم استوى على العرش) يدل على أنه قبل ذلك ماكان مستوياً عليه ،

وذلك يدل على أنه تعالى يتغير من حال إلى حال ، وكل من كان متغيراً كان محدثاً ، وذلك بالاتفاق باطل . الثالث : أنه لما حدث الاستواء فى هذا الوقت ، فهذا يقتضى أنه تعالى كان قبل هذا الوقت مضطرباً متحركا ، وكل ذلك من صفات المحدثات . الرابع : أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى إنما استوى على العرش بعد أن خلق السموات والأرض لأن كلمة (ثم) تقتضى التراخى وذلك يدل على أنه تعالى كان قبل خلق العرش غنياً عن العرش ، فاذا خلق العرش امتنع أن تنقلب حقيقته وذاته من الاستغناء إلى الحاجة . فوجب أن يبقى بعد خلق العرش غنياً عن العرش ، ومن كان كذلك امتنع أن يكون مستقراً على العرش . فثبت بهذه الوجوه أن هذه الآية لا يمكن حملها على ظاهرها بالاتفاق ، وإذا كان كذلك امتنع الاستدلال بها فى إثبات المكان والجهة لله تعالى .

﴿المسألة الثالثة﴾ اتفق المسلمون على أن فوق السموات جسما عظيما هو العرش .

إذا ثبت هـذا فنقول : العرش المذكور فى هذه الآية هل المراد منه ذلك العرش أو غيره ؟ فيه قولان .

﴿القول الأول﴾ وهو الذى اختاره أبو مسلم الأصفهانى ، أنه ليس المراد منه ذلك ، بل المراد من قوله (ثم استوى على العرش) أنه لما خلق السموات والأرض سطحها ورفع سمكها . فان كل بناء فانه يسمى عرشاً ، وبانيه يسمى عارشاً ، قال تعالى (ومن الشجر ومما يعرشون) أى يبنون ، وقال فى صفة القرية (فهى خاوية على عروشها) والمراد أن تلك القرية خلت منهم مع سلامة بنائها وقيام سقوفها ، وقال (وكان عرشه على الماء) أى بناؤه ، وإنما ذكر الله تعالى ذلك لأنه أعجب فى القدرة . فالبانى يبنى البناء متباعدا عن الماء على الأرض الصلبة لئلا ينهدم ، والله تعالى بنى السموات والأرض على الماء ليعرف العقلاء قدرته وكمال جلالته . والاستواء على العرش هو الاستعلاء عليه بالقهر ، والدليل عليه قوله تعالى (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه) قال أبو مسلم : فثبت أن اللفظ يحتمل هذا الذى ذكرناه . فنقول : وجب حمل اللفظ عليه ، ولا يجوز حمله على العرش الذى فى السماء ، والدليل عليه هو أن الاستدلال على وجود الصانع تعالى ، يجب أن يحصل بشىء معلوم مشاهد ، والعرش الذى فى السماء ليس كذلك ، وأما أجرام السموات والأرضين فهى مشاهدة محسوسة ، فكان الاستدلال بأحوالها على وجود الصانع الحكيم جائزا صوابا حسنا . ثم قال : ومما يؤكد ذلك أن قوله تعالى (خلق السموات والأرض فى ستة أيام) إشارة إلى تخليق ذواتها ، وقوله (ثم استوى على العرش) يكون إشارة الى تسطيحها وتشكيلها بالأشكال الموافقة لمصالحها ، وعلى هذا الوجه تصير هذه الآية موافقة لقوله

سبحانه وتعالى (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها) فذكر أولا أنه بناها، ثم ذكر ثانيا أنه رفع سمكها فسواها. وكذلك ههنا. ذكر بقوله (خلق السموات والأرض) أنه خالق ذواتها ثم ذكر بقوله (ثم استوى على العرش) أنه قصد إلى تعريشها وتسطيحها وتشكيلها بالأشكال الموافقة لها.

﴿والقول الثانى﴾ وهو القول المشهور لجمهور المفسرين: أن المراد من العرش المذكور فى هذه الآية: الجسم العظيم الذى فى السماء. وهؤلاء قالوا إن قوله تعالى (ثم استوى على العرش) لا يمكن أن يكون معناه أنه تعالى خلق العرش بعد خلق السموات والأرضين بدليل أنه تعالى قال فى آية أخرى (وكان عرشه على الماء) وذلك يدل على أن تكوين العرش سابق على تخليق السموات والأرضين. بل يجب تفسير هذه الآية بوجوه أخر. وهو أن يكون المراد: ثم يدبر الأمر وهو مستو على العرش.

﴿والقول الثالث﴾ أن المراد من العرش الملك، يقال فلان ولى عرشه أى ملكه فقوله (ثم استوى على العرش) المراد أنه تعالى لما خلق السموات والأرض واستدارت الأفلاك والكواكب، وجعل بسبب دورانها الفصول الأربعة والأحوال المختلفة من المعادن والنبات والحيوانات، ففى هذا الوقت قد حصل وجود هذه المخلوقات والكائنات. والحاصل أن العرش عبارة عن الملك، وملك الله تعالى عبارة عن وجود مخلوقاته، ووجود مخلوقاته إنما حصل بعد تخليق السموات والأرض، لا جرم صح إدخال حرف (ثم) الذى يفيد التراخى على الاستواء على العرش والله أعلم بمراده.

﴿المسألة الرابعة﴾ أما قوله (يدبر الأمر) معناه أنه يقضى ويقدر على حسب مقتضى الحكمة ويفعل ما يفعله المصيب فى أفعاله، الناظر فى أدبار الأمور وعواقبها، كى لا يدخل فى الوجود ما لا ينبغى. والمراد من (الأمر) الشأن يعنى يدبر أحوال الخلق وأحوال ملكوت السموات والأرض.

فان قيل: ما موقع هذه الجملة؟

قلنا: قد دل بكونه خالقا للسموات والأرض فى ستة أيام وبكونه مستويا على العرش، على نهاية العظمة ونهاية الجلالة. ثم أتبعها بهذه الجملة ليدل على أنه لا يحدث فى العالم العلوى ولا فى العالم السفلى أمر من الأمور ولا حادث من الحوادث، إلا بتقديره وتدبيره وقضائه وحكمه، فيصير ذلك دليلا على نهاية القدرة والحكمة والعلم والاحاطة والتدبير، وأنه سبحانه مبدع جميع الممكنات، واليه تنتهى الحاجات.

وأما قوله تعالى ﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ ففيه قولان :

﴿القول الأول﴾ وهو المشهور أن المراد منه أن تدبيره للأشياء وصنعه لها . لايكون بشفاعة شفيع وتدبيرمدبر . ولايستجرىء أحد أن يشفع اليه فى شىء إلا بعد إذنه ، لأنه تعالى أعلم بموضع الحكمة والصواب ، فلا يجوز لهم أن يسألوه مالايعلمون أنه صواب وصلاح .

فان قيل : كيف يليق ذكر الشفيع بصفة مبدئية الخلق . وإنما يليق ذكره بأحوال القيامة ؟
والجواب من وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ ما ذكره الزجاج : وهو أن الكفار الذين كانوا مخاطبين بهذه الآية كانوا يقولون : إن الأصنام شفعاؤنا عند الله ، فالمراد منه الرد عليهم فى هذا القول وهو كقوله تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن)

﴿والوجه الثانى﴾ وهو يمكن أن يقال إنه تعالى لما بين كونه إلها للعالم مستقلا بالتصرف فيه من غير شريك ولامنازع ، بين أمر المبدأ بقوله (يدبر الأمر) وبين حال المعاد بقوله (ما من شفيع إلا من بعد إذنه)

﴿والوجه الثالث﴾ يمكن أيضا أن يقال إنه تعالى وضع تدبير الأمور فى أول خلق العالم على أحسن الوجوه وأقربها من رعاية المصالح ، مع أنه ماكان هناك شفيع يشفع فى طلب تحصيل المصالح . فدل هذا على أن إله العالم ناظر لعباده محسن اليهم مريد للخير والرأفة بهم . ولاحاجة فى كونه سبحانه كذلك إلى حضور شفيع يشفع فيه .

﴿والقول الثانى﴾ فى تفسير هذا الشفيع ما ذكره أبو مسلم الاصفهانى . فقال : الشفيع ههنا هو الثانى ، وهو مأخوذ من الشفع الذى يخالف الوتر ، كما يقال الزوج والفرد . فمعنى الآية خلق السموات والأرض وحده ولاحى معه ولاشريك يعينه ، ثم خلق الملائكة والجن والبشر ، وهو المراد من قوله (إلا من بعد إذنه) أى لم يحدث أحد ولم يدخل فى الوجود ، إلا من بعد أن قال له : كن . حتى كان وحصل .

واعلم أنه تعالى لما بين هذه الدلائل وشرح هذه الأحوال ، ختمها بعد ذلك بقوله (ذلكم الله ربكم فاعبدوه) مبينا بذلك أن العبادة لاتصلح إلا له ، ومنبها على أنه سبحانه هو المستحق لجميع العبادات لأجل أنه هو المنعم بجميع النعم التى ذكرها ووصفها .

ثم قال بعده (أفلا تذكرون) دالا بذلك على وجوب التفكر فى تلك الدلائل القاهرة الباهرة ، وذلك يدل على أن التفكر فى مخلوقات الله تعالى والاستدلال بها على جلالته وعزته وعظمته ، أعلى

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ «٤»

المراتب وأكمل الدرجات .

قوله تعالى ﴿اليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما ذكر الدلائل الدالة على إثبات المبدأ ، أردفه بما يدل على صحة القول بالمعاد . وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ فى بيان أن إنكار الحشر والنشر ليس من العلوم البديهية ، ويدل عليه وجوه : الأول : أن العقلاء اختلفوا فى وقوعه وعدم وقوعه . وقال بامكانه عالم من الناس ، وهم جمهور أرباب الملل والأديان . وما كان معلوم الامتناع بالبديهة امتنع وقوع الاختلاف فيه . الثانى : أنا إذا رجعنا إلى عقولنا السليمة ، وعرضنا عليها أن الواحد ضعف الاثنين ، وعرضنا عليها أيضاً هذه القضية ، لم نجد هذه القضية فى قوة الامتناع مثل القضية الأولى . الثالث : أنا إما أن نقول بثبوت النفس الناطقة أولا نقول به . فان قلنا به فقد زال الاشكال بالكلية ، فانه كما لا يمتنع تعلق هذه النفس بالبدن فى المرة الأولى ، لم يمتنع تعلقها بالبدن مرة أخرى . وإن أنكرنا القول بالنفس فالاحتمال أيضاً قائم ، لأنه لا يبعد أن يقال إنه سبحانه يركب تلك الأجزاء المفرقة تركيبا ثانيا ، ويخلق الانسان الأول مرة أخرى . والرابع : أنه سبحانه ذكر أمثلة كثيرة دالة على إمكان الحشر والنشر ونحن نجمعها ههنا .

﴿فالمثال الأول﴾ أنا نرى الأرض خاشعة وقت الخريف ، ونرى اليبس مستوليا عليها بسبب شدة الحر فى الصيف . ثم إنه تعالى ينزل المطر عليها وقت الشتاء والربيع ، فتصير بعد ذلك متحلية بالأزهار العجيبة والأنوار الغريبة كما قال تعالى (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور) وثانيها : قوله تعالى (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) الى قوله (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى) وثالثها : قوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به

زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب) والمراد كونه منبها على أمر المعاد. ورابعها: قوله (ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره كلا لما يقض ما أمره فلينظر الانسان الى طعامه) وقال عليه السلام «إذا رأيتم الربيع فأكثروا ذكر النشور» ولم تحصل المشابهة بين الربيع وبين النشور إلا من الوجه الذى ذكرناه.

﴿المثال الثانى﴾ مايجده كل واحد منا من نفسه من الزيادة والنمو بسبب السمن، ومن النقصان والذبول بسبب الهزال، ثم إنه قد يعود الى حالته الأولى بالسمن.

واذا ثبت هذا فنقول: ماجاز تكون بعضه لم يمتنع أيضاً تكون كله، ولما ثبت ذلك ظهر أن الاعادة غير ممتنعة، واليه الاشارة بقوله تعالى (وننشئكم فيما لا تعلمون) يعنى أنه سبحانه لما كان قادرا على إنشاء ذواتكم أولا ثم على إنشاء أجزائكم حال حياتكم ثانياً شيئاً فشيئاً من غير أن تكونوا عالمين بوقت حدوثه وبوقت نقصانه. فوجب القطع أيضاً بأنه لا يمتنع عليه سبحانه إعادتكم بعد البلى فى القبور لحشر يوم القيامة.

﴿المثال الثالث﴾ أنه تعالى لما كان قادرا على أن يخلقنا ابتداء من غير مثال سبق، فلأن يكون قادرا على إيجادنا مرة أخرى مع سبق الايجاد الأول كان أولى، وهذا الكلام قرره تعالى فى آيات كثيرة، منها فى هذه الآية وهو قوله (أنه يبدأ الخلق ثم يعيده) وثانيها: قوله تعالى فى سورة يس (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) وثالثها: قوله تعالى (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) ورابعها: قوله تعالى (أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد) وخامسها: قوله تعالى (أيحسب الانسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى) إلى قوله (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) وسادسها: قوله تعالى (ياأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب) إلى قوله (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شىء قدير وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) فاستشهد تعالى فى هذه الآية على صحة الحشر بأمور: الأول: أنه استدل بالخلق الأول على إمكان الخلق الثانى وهو قوله (إن كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب) كأنه تعالى يقول: لما حصل الخلق الأول بانتقال هذه الأجسام من أحوال إلى أحوال أخرى فلم لايجوز أن يحصل الخلق الثانى بعد تغيرات كثيرة، واختلافات متعاقبة؟ والثانى: أنه تعالى شبهها باحياء الأرض الميتة. والثالث. أنه تعالى هو الحق وإنما يكون كذلك لو كان كامل القدرة تام العلم والحكمة. فهذه هى الوجوه المستنبطة من هذه الآية على إمكان صحة الحشر والنشر.

﴿والآية السابعة﴾ فى هذا الباب قوله تعالى (قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة)

﴿المثال الرابع﴾ أنه تعالى لما قدر على تخليق ماهو أعظم من أبدان الناس فكيف يقال : إنه لايقدر على إعادتها ؟ فان من كان الفعل الأصعب عليه سهلا ، فلأن يكون الفعل السهل الحقير عليه سهلا كان . أولى وهذا المعنى مذكور فى آيات كثيرة : منها : قوله تعالى (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) وثانيها : قوله تعالى (أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى) وثالثها : قوله (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها)

﴿المثال الخامس﴾ الاستدلال بحصول اليقظة بعد النوم على جواز الحشر والنشر ، فان النوم أخو الموت ، واليقظة شبيهة بالحياة بعد الموت . قال تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار) ثم ذكر عقيبه أمر الموت والبعث ، فقال (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لايفرطون ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) وقال فى آية أخرى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها) إلى قوله (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) والمراد منه الاستدلال بحصول هذه الأحوال على صحة البعث والحشر والنشر .

﴿المثال السادس﴾ أن الاحياء بعد الموت لايستنكر إلا من حيث أنه يحصل الضد بعد حصول الضد ، إلا أن ذلك غير مستنكر فى قدرة الله تعالى ، لأنه لما جاز حصول الموت عقيب الحياة فكيف يستبعد حصول الحياة مرة أخرى بعد الموت ؟ فان حكم الضدين واحد . قال تعالى مقرراً لهذا المعنى (نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين) وأيضاً نجد النار مع حرها ويبسها تتولد من الشجر الأخضر مع برده ورطوبته فقال (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون) فكذا ههنا . فهذا جملة الكلام فى بيان أن القول بالمعاد ، وحصول الحشر والنشر غير مستبعد فى العقول .

﴿المسألة الثانية﴾ فى إقامة الدلالة على أن المعاد حق واجب .

اعلم أن الأمة فريقان منهم من يقول : يجب عقلا أن يكون إله العالم رحيما عادلا منزها عن الايلام والاضرار ، إلا لمنافع أجل وأعظم منها ، ومنهم من ينكر هذه القاعدة ويقول : لايجب على الله تعالى شىء أصلا ، بل يفعل مايشاء ويحكم مايريد . أما الفريق الأول : فقد احتجوا على وجود المعاد من وجوه .

﴿الحجة الأولى﴾ أنه تعالى خلق الخلق وأعطاهم عقولا بها يميزون بين الحسن والقبيح ، وأعطاهم قدرا بها يقدرون على الخير والشر . وإذا ثبت هذا فمن الواجب فى حكمة الله تعالى وعدله

أن يمنع الخلق عن شتم الله وذكره بالسوء، وأن يمنعهم عن الجهل والكذب وإيذاء أنبيائه وأوليائه، والصالحين من خلقه. ومن الواجب فى حكمته أن يرغبهم فى الطاعات والخيرات والحسنات، فانه لو لم يمنع عن تلك القبائح، ولم يرغب فى هذه الخيرات، قدح ذلك فى كونه محسنا عادلا ناظرا لعباده. ومن المعلوم أن الترغيب فى الطاعات لايمكن إلا بربط الثواب بفعلها، والزجر عن القبائح لايمكن إلا بربط العقاب بفعلها، وذلك الثواب المرغب فيه. والعقاب المهدد به غير حاصل فى دار الدنيا. فلابد من دار أخرى يحصل فيها هذا الثواب، وهذا العقاب، وهو المطلوب، وإلا لزم كونه كاذباً، وأنه باطل. وهذا هو المراد من الآية التى نحن فيها وهى قوله تعالى (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط)

فان قيل: لم لايجوز أن يقال: إنه يكفى فى الترغيب فى فعل الخيرات، وفى الردع عن المنكرات ماأودع الله فى العقول من تحسين الخيرات وتقبيح المنكرات ولاحاجة مع ذلك إلى الوعد والوعيد؟ سلمنا أنه لابد من الوعد والوعيد، فلم لايجوز أن يقال: الغرض منه مجرد الترغيب والترهيب ليحصل به نظام العالم كما قال تعالى (ذلك الذى يخوف الله به عباده ياعباد فاتقون) فاما أن يفعل تعالى ذلك فما الدليل عليه؟ قوله لو لم يفعل ماأخبر عنه من الوعد والوعيد لصار كلامه كذبا فنقول: ألستم تخصصون أكثر عمومات القرآن لقيام الدلالة على وجوب ذلك التخصيص فان كان هذا كذبا وجب فيما تحكمون به من تلك التخصيصات أن يكون كذبا؟ سلمنا أنه لابد وأن يفعل الله تعالى ذلك لكن لم لايجوز أن يقال: إن ذلك الثواب والعقاب عبارة عما يصل الى الانسان من أنواع الراحات واللذات ومن أنواع الآلام والاسقام، وأقسام الهموم والغموم؟

والجواب عن السؤال الأول: أن العقل وإن كان يدعوه إلى فعل الخير وترك الشر إلا أن الهوى والنفس يدعوانه إلى الانهماك فى الشهوات الجسمانية واللذات الجسدانية، وإذا حصل هذا التعارض فلابد من مرجح قوى ومعاضد كامل، وما ذاك إلا ترتيب الوعد والوعيد والثواب والعقاب على الفعل والترك.

والجواب عن السؤال الثانى: أنه إذا جوز الانسان حصول الكذب على الله تعالى فحينئذ لايحصل من الوعد رغبة، ولا من الوعيد رهبة، لأن السامع يجوز كونه كذبا.

والجواب عن السؤال الثالث: أن العبد مادامت حياته فى الدنيا فهو كالأجير المشتغل بالعمل. والأجير حال اشتغاله بالعمل لايجوز دفع الأجرة بكمالها اليه، لأنه إذا أخذها فانه لايجتهد فى العمل. وأما إذا كان محل أخذ الأجرة هو الدار الآخرة كان الاجتهاد فى العمل أشد وأكمل، وأيضا نرى

العالم جسمانية ، واللذات الجسمانية لاحقيقة لها إلا إزالة الألم ، وإزالة الألم أمر عدمى ، وهذا العدم كان حاصلا حال كون كل واحد من الخلائق معدوما ، وحينئذ لايبقى للتخليق فائدة . والثانى : أن لذات هذا العالم ممزوجة بالآلام والمحن ، بل الدنيا طافحة بالشرور والآفات والمحن والبليات ، واللذة فيها كالقطرة فى البحر . فعلمنا أن الدار التى يصل فيها الخلق إلى تلك الراحات المقصودة دار أخرى سوى دار الدنيا .

فان قالوا : أليس أنه تعالى يؤلم أهل النار بأشد العذاب لا لأجل مصلحة وحكمة ؟ فلم لايجوز أن يقال : إنه تعالى يخلق الخلق فى هذا العالم لا لمصلحة ولا لحكمة .

قلنا : الفرق أن ذلك الضرر ضرر مستحق على أعمالهم الخبيثة . وأما الضرر الحاصل فى الدنيا فغير مستحق ، فوجب أن يعقبه خيرات عظيمة ومنافع جابرة لتلك المضار السالفة ، والا لزم أن يكون الفاعل شريرا مؤذيا ، وذلك ينافى كونه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين .

﴿الحجة السادسة﴾ لولم يحصل للانسان معاد لكان الانسان أخس من جميع الحيوانات فى المنزلة والشرف . واللازم باطل ، فالملزوم مثله . بيان الملازمة أن مضار الانسان فى الدنيا أكثر من مضار جميع الحيوانات . فان سائر الحيوانات قبل وقوعها فى الآلام والأسقام تكون فارغة البال طيبة النفس ، لأنه ليس لها فكر وتأمل . أما الانسان فانه بسبب مايحصل له من العقل يتفكر أبدا فى الأحوال الماضية والأحوال المستقبلة ، فيحصل له بسبب أكثر الأحوال الماضية أنواع من الحزن والأسف ، ويحصل له بسبب أكثر الأحوال الآتية أنواع من الخوف ، لأنه لايدرى أنه كيف تحدث الأحوال . فثبت أن حصول العقل للانسان سبب لحصول المضار العظيمة فى الدنيا والآلام النفسانية الشديدة القوية . وأما اللذات الجسمانية فهى مشتركة بين الناس وبين سائر الحيوانات ، لأن السرقين فى مذاق الجعل طيب ، كما أن اللوزينج فى مذاق الانسان طيب .

إذا ثبت هذا فنقول : لو لم يحصل للانسان معاد به تكمل حالته وتظهر سعادته ، لوجب أن يكون كمال العقل ، سببا لمزيد الهموم والغموم والأحزان من غير جابر يجبر ، ومعلوم أن كل ماكان كذلك فانه يكون سببا لمزيد الخسة والدناءة والشقاء والتعب الخالية عن المنفعة . فثبت أنه لولا حصول السعادة الأخروية لكان الانسان أخس الحيوانات حتى الخنافس والديدان ، ولما كان ذلك باطلا قطعا ، علمنا أنه لابد من الدار الآخرة ، وأن الانسان خلق للآخرة لا للدنيا ، وأنه بعقله يكتسب موجبات السعادات الأخروية . فلهذا السبب كان العقل شريفا .

﴿الحجة السابعة﴾ أنه تعالى قادر على إيصال النعم إلى عبيده على وجهين : أحدهما : أن تكون

النعم مشوبة بالآفات والأحزان . والثانى : أن تكون خالصة عنها ، فلما أنعم الله تعالى فى الدنيا بالمرتبة الأولى وجب أن ينعم علينا بالمرتبة الثانية فى دار أخرى ، إظهاراً لكمال القدرة والرحمة والحكمة . فهناك ينعم على المطيعين ويعفو عن المذنبين ، ويزيل الغموم والهموم والشهوات والشبهات . والذى يقوى ذلك ، ويقرر هذا الكلام أن الانسان حين كان جنينا فى بطن أمه ، كان فى أضيق المواضع وأشدها عفونة وفسادا ، ثم إذا خرج من بطن أمه كانت الحالة الثانية أطيب وأشرف من الحالة الأولى ، ثم إنه عند ذلك يوضع فى المهد ويشد شداً وثيقا ، ثم بعد حين يخرج من المهد ويعدو يمينا وشمالا ، وينتقل من تناول اللبن إلى تناول الأطعمة الطيبة ، وهذه الحالة الثالثة لاشك أنها أطيب من الحالة الثانية ، ثم إنه بعد حين يصير أميرا نافذ الحكم على الخلق ، أو عالما مشرفا على حقائق الأشياء ، ولا شك أن هذه الحالة الرابعة أطيب وأشرف من الحالة الثالثة . وإذا ثبت هذا وجب بحكم هذا الاستقراء أن يقال : الحالة الحاصلة بعد الموت تكون أشرف وأعلى وأبهج من اللذات الجسدانية والخيرات الجسمانية .

﴿الحجة الثامنة﴾ طريقة الاحتياط ، فانا إذا آمنا بالمعاد وتأهبناله ، فان كان هذا المذهب حقا ، فقد نجونا وهلك المنكر ، وإن كان باطلا ، لم يضرنا هذا الاعتقاد . غاية مافى الباب أن يقال إنه تفوتنا هذه اللذات الجسمانية إلا أنا نقول يجب على العاقل أن لايبالى بفوتها لأمرين أحدهما : أنها فى غاية الخساسة لأنها مشترك فيها بين الخنافس والديدان والكلاب . والثانى : أنها منقطعة سريعة الزوال . فثبت أن الاحتياط ليس إلا فى الايمان بالمعاد . ولهذا قال الشاعر :

قال المنجم والطبيب كلاهما ... لاتحشر الأموات قلت اليكما
إن صح لكما فلست بخاسر ... أوصح قولى فالخسار عليكما

﴿الحجة التاسعة﴾ اعلم أن الحيوان مادام يكون حيوانا ، فانه إن قطع منه شىء مثل ظفر أو ظلف أو شعر ، فانه يعود ذلك الشىء ، وإن جرح اندمل . ويكون الدم جاريا فى عروقه وأعضائه جريان الماء فى عروق الشجر وأغصانه ، ثم إذا مات انقلبت هذه الأحوال ، فان قطع منه شىء من شعره أو ظفره لم ينبت ، وإن جرح لم يندمل ولم يلتحم ، ورأيت الدم يتجمد فى عروقه . ثم بالآخرة يؤول حاله إلى الفساد والانحلال . ثم إنا لما نظرنا إلى الأرض وجدناها شبيهة بهذه الصفة ، فانا نراها فى زمان الربيع تفور عيونها وتربو تلالها وينجذب الماء إلى أغصان الأشجار وعروقها ، والماء فى الأرض بمنزلة الدم الجارى فى بدن الحيوان ، ثم تخرج أزهارها وأنوارها وثمارها كما

قال تعالى (فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) وإن جذ من نباتها شيء أخلف ونبت مكانه آخر مثله، وإن قطع غصن من أغصان الأشجار أخلف، وإن جرح التأم. وهذه الأحوال شبيهة بالأحوال التى ذكرناها للحيوان. ثم إذا جاء الشتاء واشتد البرد غارت عيونها وجفت رطوبتها وفسدت بقولها، ولو قطعنا غصنا من شجرة ماأخلف. فكانت هذه الأحوال شبيهة بالموت بعد الحياة. ثم إنا نرى الأرض فى الربيع الثانى تعود إلى تلك الحياة، فاذاعقلنا هذه المعانى فى إحدى الصورتين، فلم لانعقل مثله فى الصورة الثانية، بل نقول لاشك أن الانسان أشرف من سائر الحيوانات، والحيوان أشرف من النبات، وهو أشرف من الجمادات. فاذا حصلت هذه الأحوال فى الأرض، فلم لايجوز حصولها فى الانسان.

فان قالوا: إن أجساد الحيوان تتفرق وتتمزق بالموت. وأما الأرض فليست كذلك.

فالجواب: أن الانسان عبارة عن النفس الناطقة، وهو جوهر باق، أوإن لم نقل بهذا المذهب فهو عبارة عن أجزاء أصلية باقية من أول وقت تكون الجنين إلى آخر العمر، وهى جارية فى البدن، وتلك الاجزاء باقية، فزال هذا السؤال.

﴿الحجة العاشرة﴾ لاشك أن بدن الحيوان إنما تولد من النطفة، وهذه النطفة إنما اجتمعت من جميع البدن. بدليل أن عند انفصال النطفة يحصل الضعف والفتور فى جميع البدن، ثم إن مادة تلك النطفة إنما تولدت من الأغذية المأكولة، وتلك الأغذية إنما تولدت من الأجزاء العنصرية وتلك الأجزاء كانت متفرقة فى مشارق الأرض ومغاربها، واتفق لها أن اجتمعت، فتولد منها حيوان أو نبات فأكله إنسان، فتولد منه دم فتوزع ذلك الدم على أعضائه، فتولد منها أجزاء لطيفة. ثم عند استيلاء الشهوة سال من تلك الرطوبات مقدار معين، وهو النطفة. فانصب إلى فم الرحم، فتولد منه هذا الانسان، فثبت أن الأجزاء التى منها تولد بدن الانسان كانت متفرقة فى البحار والجبال وأوج الهواء. ثم إنها اجتمعت بالطريق المذكور، فتولد منها هذا البدن، فاذا مات تفرقت تلك الأجزاء على مثال التفرق الأول.

وإذا ثبت هذا فنقول: وجب القطع أيضا بأنه لايمتنع أن يجتمع مرة أخرى على مثال الاجتماع الأول، وأيضا. فذلك المنى لما وقع فى رحم الأم، فقد كان قطرة صغيرة ثم تولد منه بدن الانسان وتعلقت الروح به حال ماكان ذلك البـــدن فى غاية الصغر. ثم إن ذلك البدن لاشك أنه فى غاية الرطوبة. ولا شك أنه يتحلل منه أجزاء كثيرة بسبب عمل الحرارة الغريزية فيها، وأيضا فتلك الأجزاء البدنية الباقية أبدا فى طول العمر تكون فى التحلل، ولولا ذلك لما حصل الجوع، ولما

حصلت الحاجة إلى الغذاء . مع أنا نقطع بأن هذا الانسان الشيخ ، هو عين ذلك الانسان الذى كان فى بطن أمه . ثم انفصل ، وكان طفلا ثم شابا ، فثبت أن الاجزاء البدنية دائمة التحلل ، وأن الانسان هو هو بعينه . فوجب القطع بأن الانسان ، إما أن يكون جوهراً مفارقاً مجرداً ، وإما أن يكون جسما نورانياً لطيفاً باقياً مع تحلل هذا البدن . فاذا كان الأمر كذلك فعلى التقديرين لايمتنع عوده إلى الجثة مرة أخرى ، ويكون هذا الانسان العائد عين الانسان الأول . فثبت أن القول بالمعاد صدق .

(الحجة الحادية عشر) ماذكره الله تعالى فى قوله (أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذاهو خصيم مبين) واعلم أن قوله سبحانه (خلقناه من نطفة) إشارة إلى ماذكرناه فى الحجة العاشرة من أن تلك الأجزاء كانت متفرقة فى مشارق الأرض ومغاربها ، فجمعها الله تعالى وخلق من تركيبها هذا الحيوان ، والذى يقويه قوله سبحانه (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) فان تفسيره هذه الآية إنما يصح بالوجه الذى ذكرناه . وهو أن السلالة من الطين يتكون منها نبات ، ثم إن ذلك النبات يأكله الانسان فيتولد منه الدم ، ثم الدم ينقلب نطفة ، فبهذا الطريق ينتظم ظاهر هذه الآية . ثم إنه سبحانه بعد أن ذكر هذا المعنى حكى كلام المنكر ، وهو قوله تعالى (قال من يحيي العظام وهى رميم) ثم إنه تعالى بين إمكان هذا المذهب .

واعلم أن إثبات إمكان الشىء لايعقل إلا بطريقين : أحدهما : أن يقال : إن مثله ممكن ، فوجب أن يكون هذا أيضاً ممكنا . والثانى : أن يقال : إن ماهو أعظم منه وأعلى حالا منه . فهو أيضا ممكن . ثم إنه تعالى ذكر الطريق الأول أولا فقال (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) ثم فيه دقيقة وهى أن قوله (قل يحييها) إشارة الى كمال القدرة ، وقوله (وهو بكل خلق عليم) إشارة إلى كمال العلم . ومنكروا الحشر والنشر لاينكرونه إلا لجهلهم بهذين الأصلين ، لأنهم تارة يقولون : إنه تعالى موجب بالذات ، والموجب بالذات لا يصح منه القصد إلى التكوين ، وتارة يقولون إنه يمتنع كونه عالما بالجزئيات ، فيمتنع منه تمييز أجزاء بدن زيد عن أجزاء بدن عمرو ، ولما كانت شبه الفلاسفة مستخرجة من هذين الأصلين ، لاجرم كلما ذكر الله تعالى مسألة المعاد أردفه بتقرير هذين الأصلين ثم إنه تعالى ذكر بعده الطريق الثانى ، وهو الاستدلال بالأعلى على الأدنى ، وتقريره من وجهين : الأول : أن الحياة لاتحصل إلا بالحرارة والرطوبة ، والتراب بارد يابس ، فحصلت المضادة بينهما . إلا أنا نقول : الحرارة النارية أقوى فى صفة الحرارة من الحرارة الغريزية . فلما لم يمتنع تولد الحرارة النارية عن الشجر الأخضر مع كمال ما بينهما من المضادة ، فكيف يمتنع حدوث الحرارة الغريزية

فى جرم التراب؟ الثانى: قوله تعالى (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) بمعنى أنه لما سلمتم أنه تعالى هو الخالق لأجرام الأفلاك والكواكب، فكيف يمكنكم الامتناع من كونه قادرا على الحشر والنشر؟ ثم إنه تعالى حسم مادة الشبهات بقوله (إنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) والمراد أن تخليقه وتكوينه لا يتوقف على حصول الآلات والأدوات ونطفة الأب ورحم الأم، والدليل عليه أنه خلق الأب الأول، لا عن أب سابق عليه، فدل ذلك على كونه سبحانه غنيا فى الخلق والايجاد والتكوين عن الوسائط والآلات. ثم قال سبحانه (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء واليه ترجعون) أى سبحانه من أن لا يعيدهم ويهمل أمر المظلومين. ولا ينتصف للعاجزين من الظالمين، وهو المعنى المذكور فى هذه الآية التى نحن فى تفسيرها، وهى قوله سبحانه (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط)

﴿الحجة الثانية عشر﴾ دلت الدلائل على أن العالم محدث ولا بد له من محدث قادر، ويجب أن يكون عالما، لأن الفعل المحكم المتقن لا يصدر إلا من العالم، ويجب أن يكون غنيا عنها وإلا لكان قد خلقها فى الأزل وهو محال، فثبت أن لهذا العالم إلها قادرا عالما غنيا، ثم لما تأملنا فقلنا: هل يجوز فى حق هذا الحكيم الغنى عن الكل أن يهمل عبيده ويتركهم سدى، ويجوز لهم أن يكذبوا عليه ويبيح لهم أن يشتموه ويجحدوا ربوبيته، ويأكلوا نعمته، ويعبدوا الجبت والطاغوت، ويجعلوا له أنداداً وينكروا أمره ونهيه ووعده ووعيده؟ فههنا حكمت بديهة العقل بأن هذه المعانى لا تليق إلا بالسفيه الجاهل البعيد من الحكمة. القريب من العبث، فحكمنا لأجل هذه المقدمة أن له أمرا ونهيا، ثم تأملنا فقلنا: هل يجوز أن يكون له أمر ونهى مع أنه لا يكون له وعد ووعيد؟ فحكم صريح العقل بأن ذلك غير جائز لأنه ان لم يقرن الأمر بالوعد بالثواب، ولم يقرن النهى بالوعيد بالعقاب لم يتأكد الأمر والنهى، ولم يحصل المقصود. فثبت أنه لابد من وعد ووعيد، ثم تأملنا فقلنا: هل يجوز أن يكون له وعد ووعيد ثم إنه لا يفى بوعده لأهل الثواب، ولا بوعيده لأهل العقاب: فقلنا: إن ذلك لا يجوز، لأنه لو جاز ذلك لما حصل الوثوق بوعده ولا بوعيده، وهذا يوجب أن لا يبقى فائدة فى الوعد والوعيد. فعلمنا أنه لابد من تحقيق الثواب والعقاب، ومعلوم أن ذلك لا يتم إلا بالحشر والبعث، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فهذه مقدمات يتعلق بعضها بالبعض كالسلسلة متى صح بعضها صح كلها. ومتى فسد بعضها فسد كلها، فدل مشاهدة أبصارنا لهذه التغيرات على حدوث العالم، ودل حدوث العالم على وجود الصانع الحكيم الغنى، ودل ذلك على وجود الأمر والنهى، ودل ذلك على وجود الثواب والعقاب، ودل ذلك على وجوب الحشر. فان لم

يثبت الحشر أدى ذلك إلى بطلان جميع المقدمات المذكورة ولزم إنكار العلوم البديهية وإنكار العلوم النظرية القطعية . فثبت أنه لابد لهذه الأجساد البالية والعظام النخرة والأجزاء المتفرقة المتمزقة من البعث بعد الموت ، ليصل المحسن إلى ثوابه والمسىء إلى عقابه ، فان لم تحصل هذه الحالة لم يحصل الوعد والوعيد ، وإن لم يحصلا لم يحصل الأمر والنهى ، وإن لم يحصلا لم تحصل الالهية ، وإن لم تحصل الالهية لم تحصل هذه التغيرات فى العالم . وهذه الحجة هى المراد من الآية التى نحن فى تفسيرها وهى قوله (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) هذا كله تقرير إثبات المعاد بناء على أن لهذا العالم إلها رحيما ناظرا محسنا إلى العباد .

﴿أما الفريق الثانى﴾ وهم الذين لايعللون أفعال الله تعالى برعاية المصالح ، فطريقهم الى إثبات المعاد أن قالوا : المعاد أمر جائز الوجود ، والأنبياء عليهم السلام أخبروا عنه ، فوجب القطع بصحته ، أما اثبات الامكان فهو مبنى على مقدمات ثلاثة .

﴿المقدمة الأولى﴾ البحث عن حال القابل فنقول : الانسان إما أن يكون عبارة عن النفس أو عن البدن ، فان كان عبارة عن النفس وهو القول الحق ، فنقول : لما كان تعلق النفس بالبدن فى المرة الأولى ، جائزا كان تعلقها بالبدن فى المرة الثانية يجب أن يكون جائزا . وهذا الكلام لايختلف ، سواء قلنا النفس عبارة عن جوهر مجرد ، أو قلنا : إنه جسم لطيف مشاكل لهذا البدن باق فى جميع أحوال البدن مصون عن التحلل والتبدل ، وأما إن كان الانسان عبارة عن البدن ، وهذا القول أبعد الأقاويل فنقول : إن تألف تلك الأجزاء على الوجه المخصوص فى المرة الأولى كان ممكنا ، فوجب أيضا أن يكون فى المرة الثانية ممكنا ، فثبت أن عود الحياة إلى هذا البدن مرة أخرى أمره ممكن فى نفسه .

﴿وأما المقدمة الثانية﴾ فهى فى بيان أن إله العالم قادر مختار . لاعلة موجبة ، وأن هذا القادر قادر على كل الممكنات .

﴿وأما المقدمة الثالثة﴾ فهى فى بيان أن إله العالم عالم بجميع الجزئيات ، فلاجرم أجزاء بدن زيد وإن اختلطت بأجزاء التراب ، والبحار إلاأنه تعالى لما كان عالما بالجزئيات أمكنه تمييز بعضها عن بعض . ومتى ثبتت هذه المقدمات الثلاثة ، لزم القطع بأن الحشر والنشر أمر ممكن فى نفسه .

وإذا ثبت هذا الامكان فنقول : دل الدليل على صدق الأنبياء وهم قطعوا بوقوع هذا الممكن ، فوجب القطع بوقوعه ، وإلا لزمنا تكذيبهم ، وذلك باطل بالدلائل الدالة على صدقهم . فهذا خلاصة ماوصل إليه عقلنا فى تقرير أمر المعاد .

﴿المسألة الثالثة﴾ فى الجواب عن شبهات المنكرين للحشر والنشر .

﴿الشبهة الأولى﴾ قالوا : لو بدلت هـذه الدار بدار أخرى لكانت تلك الدار إما أن تـكون مثل هذه الدار أو شراً منها أو خيراً منها . فان كان الأول كان التبديل عبثا ، وإن كان شراً منها كان هـذا التبديل سفها ، وإن كان خيراً منها فنى أول الأمر هل كان قادراً على خلق ذلك الأجود أو ما كان قادراً عليه ؟ فان قدر عليه ثم تركه وفعل الأردأ كان ذلك سفها ، وإن قلنا : إنه ما كان قادراً ثم صار قادراً عليه فقد انتقل من العجز إلى القدرة ، أو من الجهل إلى الحكمة ، وأن ذلك على خالق العالم محال .

والجواب : لم لا يجوز أن يقال تقديم هذه الدار على تلك الدار هو المصلحة ، لأن الكمالات النفسانية الموجبة للسعادة الأخروية لا يمكن تحصيلها إلا فى هـذه الدار ، ثم عند حصول هـذه الكمالات كان البقاء فى هذه الدار سببا للفساد والحرمان عن الخيرات .

﴿الشبهة الثانية﴾ قالوا : حركات الأفلاك مستديرة ، والمستدير لا ضد له ، وما لا ضد له لا يقبل الفساد .

والجواب : أنا أبطلنا هذه الشبهة فى الكتب الفلسفية ، فلا حاجة إلى الاعادة . والأصل فى إبطال أمثال هذه الشبهات أن نقيم الدليل على أن أجرام الأفلاك مخلوقة ، ومتى ثبت ذلك ثبت كونها قابلة للعدم والتفرق والتمزق . ولهذا السر . فانه تعالى فى هذه السورة بدأ بالدلائل الدالة على حدوث الأفلاك ، ثم أردفها بما يدل على صحة القول بالمعاد .

﴿الشبهة الثالثة﴾ الانسان عبارة عن هذا البدن ، وهو ليس عبارة عن هـذه الأجزاء كيف كانت ، لأن هذه الأجزاء كانت موجودة قبل حدوث هذا الانسان ، مع أنا نعلم بالضرورة أن هذا الانسان ما كان موجودا ، وأيضاً أنه إذا أحرق هـذا الجسد ، فانه تبقى تلك الأجزاء البسيطة ، ومعلوم أن مجموع تلك الأجزاء البسيطة من الأرض والماء والهواء والنار ، ماكان عبارة عن هذا الانسان العاقل الناطق ، فثبت أن تلك الأجزاء إنما تـكون هذا الانسان بشرط وقوعها على تأليف مخصوص ، ومزاج مخصوص ، وصورة مخصوصة ، فاذا مات الانسان وتفرقت أجزاؤه فقد عدمت تلك الصور والاعراض ، وعود المعدوم محال . وعلى هذا التقدير فانه يمتنع عود بعض الأجزاء المعتبرة فى حصول هذا الانسان فوجب أن يمتنع عوده بعينه مرة أخرى .

والجواب : لا نسلم أن هذا الانسان المعين عبارة عن هـذا الجسد المشاهد ، بل هو عبارة عن النفس . سواء فسرنا النفس بأنه جوهر مفارق مجرد ، أو قلنا إنه جسم لطيف مخصوص مشاكل لهذا الجسد مصون عن التغير ، والله أعلم به .

﴿الشبهة الرابعة﴾ إذا قتل إنسان واغتذى به إنسان آخر . فيلزم أن يقال تلك الأجزاء فى بدن كل واحد من الشخصين وذلك محال .

والجواب : هذه الشبهة أيضاً مبنية على أن الانسان المعين عبارة عن مجموع هذا البدن . وقد بينا أنه باطل . بل الحق أنه عبارة عن النفس سواء .

قلنا : النفس جوهر مجرد وأجسام لطيفة باقية مشاكلة للجسد . وهى التى سمتها المتكلمون بالأجزاء الأصلية . وهذا آخر البحث العقلى عن مسألة المعاد .

﴿المسألة الرابعة﴾ قوله تعالى (إليه مرجعكم جميعا) فيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ أن كلمة «إلى» لانتهاء الغاية ، وظاهره يقتضى أن يكون الله سبحانه مختصاً بحيز وجهة ، حتى يصح أن يقال : اليه مرجع الخلق .

والجواب عنه من وجوه : الأول : أنا إذا قلنا . النفس جوهر مجرد . فالسؤال زائل . الثانى : أن يكون المراد منه : أن مرجعهم إلى حيث لا حاكم سواه . الثالث : أن يكون المراد : أن مرجعهم إلى حيث حصل الوعد فيه بالمجازاة .

﴿البحث الثانى﴾ ظاهر الآيات الكثيرة يدل على أن الانسان عبارة عن النفس ، لا عن البدن ، ويدل أيضاً على أن النفس كانت موجودة قبل البدن . أما أن الانسان شىء غير هذا البدن فلقوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء) فالعلم الضرورى حاصل بأن بدن المقتول ميت ، والنص دال على أنه حى . فوجب أن تكون حقيقته شيئاً مغايرا لهذا البدن الميت ، وأيضا قال الله تعالى فى صفة نزع روح الكفار (أخرجوا أنفسكم) وأما إن النفس كانت موجودة قبل البدن ، فلان قوله تعالى فى هذه الآية (إليه مرجعكم) يدل على ماقلنا ، لأن الرجوع الى الموضع إنما يحصل لو كان ذلك الشىء قد كان هناك قبل ذلك ، ونظيره قوله تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية) وقوله (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق)

﴿البحث الثالث﴾ المرجع بمعنى الرجوع و(جميعاً) نصب على الحال أى ذلك الرجوع يحصل حال الاجتماع . وهذا يدل على أنه ليس المراد من هذا المرجع الموت ، وإنما المراد منه القيامة .

﴿البحث الرابع﴾ قوله تعالى (إليه مرجعكم) يفيد الحصر ، وأنه لا رجوع إلا إلى الله تعالى ، ولا حكم إلا حكمه ولا نافذ إلا أمره ، وأما قوله (وعد الله حقاً) ففيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قوله (وعد الله) منصوب على معنى : وعدكم الله وعداً ، لأن قوله (إليه مرجعكم) معناه : الوعد بالرجوع ، فعلى هذا التقدير يكون قوله (وعد الله) مصدرا مؤكدا لقوله

(إليه مرجعكم) وقوله (حقاً) مصدرا مؤكدا لقوله (وعد الله) فهـذه التأكيدات قد اجتمعت فى هذا الحكم .

﴿المسألة الثانية﴾ قرئ (وعد الله) على لفظ الفعل . واعلم أنه تعالى لما أخبر عن وقوع الحشر والنشر . ذكر بعده مايدل على كونه فى نفسه ممكن الوجود . ثم ذكر بعده مايدل على وقوعه . أما مايدل على إمكانه فى نفسه فهو قوله سبحانه (إنه يبدأ الخلق ثم يعيده) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ تقرير هذا الدليل أنه تعالى بين بالدليل كونه خالقاً للأفلاك والأرضين، ويدخل فيـه أيضاً كونه خالقاً لكل ما فى هـذا العالم من الجمادات والمعادن والنبات والحيوان والانسان . وقد ثبت فى العقل أن كل من كان قادراً على شيء ، وكانت قدرته باقية ممتنعة الزوال ، وكان عالما بجميع المعلومات فانه يمكنه إعادته بعينه . فدل هذا الدليل على أنه تعالى قادر على إعادة الانسان بعـد موته .

﴿المسألة الثانية﴾ اتفق المسلمون على أنه تعالى قادر على إعدام أجسام العالم . واختلفوا فى أنه تعالى هل يعدمها أم لا ؟ فقال قوم إنه تعـالى يعدمها ، واحتجوا بهذه الآية وذلك لأنه تعـالى حكم على جميع المخلوقات بأنه يعيدها ، فوجب أن يعيد الأجسام أيضاً ، وإعادتها لاتمـكن إلا بعد إعدامها ، وإلا لزم إيجاد الموجود وهو محال . ونظيره قوله تعـالى (يوم نطوى السماء كطى السجل للـكتب كما بدأنا أول خلق نعيده) فحكم بأن الاعادة تـكون مثل الابتداء ، ثم ثبت بالدليل أنه تعالى إنما يخلقها فى الابتداء من العدم ، فوجب أن يقال إنه تعالى يعيدها أيضاً من العدم .

﴿المسألة الثالثة﴾ فى هذه الآية إضمار ، كأنه قيل : إنه يبدأ الخلق ليأمرهم بالعبادة ، ثم يميتهم ثم يعيدهم ، كما قال فى سورة البقرة (كيف تـكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) إلا أنه تعالى حذف ذكر الأمر بالعبادة ههنا ، لأجل أنه تعـالى قال قبل هذه الآية (ذلكم الله ربكم فاعبدوه) وحذف ذكر الاماتة لأن ذكر الاعادة يدل عليها .

﴿المسألة الرابعة﴾ قرأ بعضهم (إنه يبدأ الخلق ثم يعيده) بالـكسر وبعضهم بالفتح . قال الزجاج : من كسر الهمزة من «أن» فعلى الاستئناف ، وفى الفتح وجهان : الأول : أن يكون التقدير : اليـه مرجعكم جميعا لأنه يبدأ الخلق ثم يعيده . والثانى : أن يكون التقدير : وعد الله وعدا بدأ الخلق ثم إعادته . وقرئ (يبدئ) من أبدأ وقرئ (حق إنه يبدأ الخلق) كقولك : حق إن زيدا منطلق .

أما قوله تعالى ﴿ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط﴾ فاعلم أن المقصود منه إقامة الدلالة على أنه لابد من حصول الحشر والنشر . حتى يحصل الفرق بين المحسن والمسيء ، وحتى يصل

الثواب الى المطيع والعقاب الى العاصى . وقدسبق الاستقصاء فى تقرير هذا الدليل ، وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال الكعبى : اللام فى قوله تعالى (ليجزى الذين آمنوا) يدل على أنه تعالى خلق العباد للثواب والرحمة . وأيضا فانه أدخل لام التعليل على الثواب . وأما العقاب فما أدخل فيه لام التعليل ، بل قال (والذين كفروا لهم شراب من حميم) وذلك يدل على أنه خلق الخلق للرحمة لا للعذاب ، وذلك يدل على أنه ماأراد منهم الكفر ، وما خلق فيهم الكفر البتة .

والجواب : أن لام التعليل فى أفعال الله تعالى محال ، لأنه تعالى لو فعل فعلا لعلة لكانت تلك العلة ، إن كانت قديمة لزم قدم الفعل ، وإن كانت حادثة لزم التسلسل وهو محال .

﴿المسألة الثانية﴾ قال الكعبى أيضا : هذه الآية تدل على أنه لايجوز من الله تعالى أن يبدأ خلقهم فى الجنة ، لأنه لوحسن إيصال تلك النعم إليهم منغير واسطة خلقهم فى هذا العالم ومن غير واسطة تكليفهم ، لما كان خلقهم وتكليفهم معللا بايصال تلك النعم إليهم . وظاهر الآية يدل على ذلك .

والجواب : هذا بناء على صحة تعليل أحكام الله تعالى وهو باطل ، سلمنا صحته . إلا أن كلامه إنما يصح لوعللنا بدء الخلق وإعادته بهذا المعنى وذلك ممنوع . فلم لايجوز أن يقال : إنه يبدأ الخلق لمحض التفضل ، ثم إنه تعالى يعيدهم لغرض إيصال نعم الجنة إليهم ؟ وعلى هذا التقدير : سقط كلامه . أما قوله تعالى (بالقسط) ففيه وجهان :

﴿الوجه الأول﴾ (بالقسط) بالعدل ، وهو يتعلق بقوله (ليجزى) والمعنى : ليجزيهم بقسطه ، وفيه سؤالان :

﴿السؤال الأول﴾ أن القسط إذا كان مفسرا بالعدل . فالعدل هو الذى يكون لازائدا ولا ناقصا ، وذلك يقتضى أنه تعالى لايزيدهم على مايستحقونه بأعمالهم ، ولا يعطيهم شيئاً على سبيل التفضل ابتداء .

والجواب : عندنا أن الثواب أيضا محض التفضل . وأيضا فبتقدير أن يساعد على حصول الاستحقاق ، إلا أن لفظ (القسط) يدل على توفية الأجر . فأما المنع من الزيادة فلفظ (القسط) لايدل عليه .

﴿السؤال الثانى﴾ لم خص المؤمنين بالقسط مع أنه تعالى يجازى الكافرين أيضاً بالقسط ؟

والجواب : أن تخصيص المؤمنين بذلك يدل على مزيد العناية فى حقهم ، وعلى كونهم مخصوصين بمزيد هذا الاحتياط .

هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَاخَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ «٥»

﴿الوجه الثانى﴾ فى تفسير الآية أن يكون المعنى : ليجزى الذين آمنوا بقسطهم ، وبما أقسطوا وعدلوا ولم يظلموا أنفسهم حيث آمنوا وعملوا الصالحات ، لأن الشرك ظلم . قال الله تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) والعصاة أيضاً قد ظلموا أنفسهم . قال الله تعالى (فمنهم ظالم لنفسه) وهذا الوجه أقوى ، لأنه فى مقابلة قوله (بما كانوا يكفرون)

وأما قوله تعالى ﴿والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾ ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال الواحدى : الحميم : الذى سخن بالنار حتى انتهى حره . يقال : حممت الماء أى سخنته ، فهو حميم . ومنه الحمام .

﴿المسألة الثانية﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه لا واسطة بين أن يكون المكلف مؤمنا وبين أن يكون كافراً ، لأنه تعالى اقتصر فى هذه الآية على ذكر هذين القسمين .

وأجاب القاضى عنه : بأن ذكر هذين القسمين لا يدل على نفى القسم الثالث . والدليل عليه قوله تعالى (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع) ولم يدل ذلك على نفى القسم الرابع ، بل نقول : إن فى مثل ذلك ربما يذكر المقصود أو الأكثر ، ويترك ذكر ماعداه ، إذا كان قد بين فى موضع آخر . وقد بين الله تعالى القسم الثالث فى سائر الآيات .

والجواب أن نقول : إنما يترك القسم الثالث الذى يجرى مجرى النادر ، ومعلوم أن الفساق أكثر من أهل الطاعات ، وكيف يجوز ترك ذكرهم فى هذا الباب ؟ وأما قوله تعالى (والله خلق كل دابة من ماء) فانما ترك ذكر القسم الرابع والخامس ، لأن أقسام ذوات الأرجل كثيرة ، فكان ذكرها بأسرها يوجب الأطناب بخلاف هذه المسألة ، فانه ليس ههنا إلا القسم الثالث ، وهو الفاسق الذى يزعم الخصم أنه لا مؤمن ولا كافر ، فظهر الفرق .

قوله تعالى ﴿هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين

والحساب ماخلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾

فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل الدالة على الالهية . ثم فرع عليها صحة القول بالحشر والنشر ، عاد مرة أخرى إلى ذكر الدلائل الدالة على الالهية .

واعلم أن الدلائل المتقدمة فى إثبات التوحيد والالهية هى التمسك بخلق السموات والأرض ، وهذا النوع إشارة الى التمسك بأحوال الشمس والقمر ، وهذا النوع الأخير إشارة الى مايؤكد الدليل الدال على صحة الحشر والنشر ، وذلك لأنه تعالى أثبت القول بصحة الحشر والنشر ، بناء على أنه لابد من إيصال الثواب الى أهل الطاعة ، وإيصال العقاب الى أهل الكفر ، وأنه يجب فى الحكمة تمييز المحسن عن المسىء ، ثم إنه تعالى ذكر فى هذه الآية أنه جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل ليتوصل المكلف بذلك الى معرفة السنين والحساب ، فيمكنه ترتيب مهمات معاشه من الزراعة والحراثة ، وإعداد مهمات الشتاء والصيف . فكأنه تعالى يقول : تمييز المحسن عن المسىء والمطيع عن العاصى ، أوجب فى الحكمة من تعليم أحوال السنين والشهور . فلما اقتضت الحكمة والرحمة خلق الشمس والقمر لهذا المهم الذى لانفع له إلا فى الدنيا . فبأن تقتضى الحكمة والرحمة تمييز المحسن عن المسىء بعد الموت ، مع أنه يقتضى النفع الأبدى والسعادة السرمدية ، كان ذلك أولى . فلما كان الاستدلال بأحوال الشمس والقمر من الوجه المذكور فى هذه الآية مما يدل على التوحيد من وجه . وعلى صحة القول بالمعاد من الوجه الذى ذكرناه . لاجرم ذكر الله هذا الدليل بعد ذكر الدليل على صحة المعاد .

﴿المسألة الثانية﴾ الاستدلال بأحوال الشمس والقمر على وجود الصانع المقدر هو أن يقال : الأجسام فى ذواتها متماثلة ، وفى ماهياتها متساوية . ومتى كان الأمر كذلك كان اختصاص جسم الشمس بضوئه الباهر وشعاعه القاهر ، واختصاص جسم القمر بنوره المخصوص لأجل الفاعل الحكيم المختار . أما بيان أن الاجسام متماثلة فى ذواتها وماهياتها . فالدليل عليه أن الأجسام لاشك أنها متساوية فى الحجمية والتحيز والجرمية . فلو خالف بعضها بعضا لكانت تلك المخالفة فى أمر وراء الحجمية والجرمية ضرورة أن مابه المخالفة غير مابه المشاركة . وإذا كان كذلك فنقول ان مابه حصلت المخالفة من الأجسام إما أن يكون صفة لها أو موصوفا بها أو لاصفة لها ولا موصوفا بها ، والكل باطل .

﴿أما القسم الأول﴾ فلان مابه حصلت المخالفة لو كانت صفات قائمة بتلك الذوات ، فتكو

الذوات فى أنفسها ، مع قطع النظر عن تلك الصفات ، متساوية فى تمام الماهية ، وإذا كان الأمر كذلك ، فكل مايصح على جسم ، وجب أن يصح على كل جسم ، وذلك هو المطلوب .

﴿وأما القسم الثانى﴾ وهو أن يقال : إن الذى به خالف بعض الأجسام بعضا ، أمور موصوفة بالجسمية والتحيز والمقدار . فنقول : هذا أيضا باطل . لأن ذلك الموصوف ، إما أن يكون حجما ومتحيزا أو لايكون ، والأول باطل ، وإلا لزم افتقاره إلى محل آخر ، ويستمر ذلك إلى غير النهاية . وأيضا فعلى هذا التقدير يكون المحل مثلا للحال ، ولم يكن كون أحدهما محلا والآخر حالا ، أولى من العكس ، فيلزم كون كل واحد منهما محلا للآخر وحالا فيه ، وذلك محال ، وأما ان كان ذلك المحل غير متحيز ، وله حجم . فنقول : مثل هـذا الشيء لايكون له اختصاص بحيز ولا تعلق بجهة والجسم مختص بالحيز . وحاصل فى الجهة ، والشيء الذى يكون واجب الحصول فى الحيز والجهة ، يمتنع أن يكون حالا فى الشيء الذى يمتنع حصوله فى الحيز والجهة .

﴿وأما القسم الثالث﴾ وهو أن يقال : مابه خالف جسم جسما . لاحال فى الجسم ولا محل له ، فهذا أيضا باطل ، لأن على هذا التقدير يكون ذلك الشيء شيئا مباينا عن الجسم لاتعلق له به ، فحينئذ تكون ذوات الأجسام من حيث ذواتها متساوية فى تمام الماهية ، وذلك هو المطلوب ، فثبت أن الأجسام بأسرها متساوية فى تمام الماهية .

وإذا ثبت هـذا فنقول : الأشياء المتساوية فى تمام الماهية تكون متساوية فى جميع لوازم الماهية ، فكل ماصح على بعضها وجب أن يصح على الباقى ، فلما صح على جرم الشمس اختصاصه بالضوء القاهر الباهر ، وجب أن يصح مثل ذلك الضوء القاهر على جرم القمر أيضا ، وبالعكس . وإذا كان كذلك ، وجب أن يكون اختصاص جرم الشمس بضوئه القاهر ، واختصاص القمر بنوره الضعيف بتخصيص مخصص وإيجاد موجد . وتقدير مقدر ، وذلك هو المطلوب ، فثبت أن اختصاص الشمس بذلك الضوء بجعل جاعل ، وأن اختصاص القمر بذلك النوع من النور بجعل جاعل ، فثبت بالدليل القاطع صحة قوله سبحانه وتعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً) وهو المطلوب .

﴿المسألة الثالثة﴾ قال أبو على الفارسى : الضياء لايخلو من أحد أمرين إما أن يكون جمع ضوء كسوط وسياط وحوض وحياض ، أو مصدر ضاء يضوء ضياء كقولك قام قياما ، وصام صياما ، وعلى أى الوجهين حملته ، فالمضاف محذوف ، والمعنى جعل الشمس ذات ضياء ، والقمر ذا نور ، ويجوز أن يكون من غير ذلك لأنه لما عظم الضوء والنور فيهما جعلا نفس الضياء والنور كما يقال للرجل الكريم أنه كرم وجود .

﴿المسألة الرابعة﴾ قال الواحدى : روى عن ابن كثير من طريق قنبل (ضئاء) بهمزتين وأكثر الناس على تغليطه فيه ، لأن ياء ضياء منقلبة من واو مثل ياء قيام وصيام ، فلا وجه للهمزة فيها . ثم قال : وعلى البعد يجوز أن يقال قدم اللام التى هى الهمزة إلى موضع العين ، وأخر العين التى هى واو ، إلى موضع اللام . فلما وقعت طرفا بعد ألف زائدة انقلبت همزة . كما انقلبت فى سقاء وبابه . والله أعلم .

﴿المسألة الخامسة﴾ اعلم أن النور كيفية قابلة للأشد والأضعف . فان نور الصباح أضعف من النور الحاصل فى أول النهار قبل طلوع الشمس ، وهو أضعف من النور الحاصل فى أفنية الجدران عند طلوع الشمس ، وهو أضعف من النور الساطع من الشمس على الجدران ، وهو أضعف من الضوء القائم بجرم الشمس ، فكمال هذه الكيفية المسماة بالضوء على مايحس به فى جرم الشمس ، وهو فى الامكان وجود مرتبة فى الضوء أقوى من الكيفية القائمة بالشمس ، فهو من مواقف العقول . واختلف الناس فى أن الشعاع الفائض من الشمس هل هو جسم أو عرض ؟ والحق أنه عرض ، وهو كيفية مخصوصة . وإذا ثبت أنه عرض فهل حدوثه فى هذا العالم بتأثير قرص الشمس أو لأجل أن الله تعالى أجرى عادته بخلق هذه الكيفية فى الأجرام المقابلة لقرص الشمس على سبيل العادة . فهى مباحث عميقة ، وإنما يليق الاستقصاء فيها بعلوم المعقولات .

وإذا عرفت هذا فنقول : النور اسم لأصل هذه الكيفية ، وأما الضوء ، فهو اسم لهذه الكيفية إذا كانت كاملة تامة قوية . والدليل عليه أنه تعالى سمى الكيفية القائمة بالشمس (ضياء) والكيفية القائمة بالقمر (نورا) ولا شك أن الكيفية القائمة بالشمس أقوى وأكمل من الكيفية القائمة بالقمر ، وقال فى موضع آخر (وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً) وقال فى آية أخرى (وجعل الشمس سراجا) وفى آية أخرى (وجعلنا سراجا وهاجا)

﴿المسألة السادسة﴾ قوله (وقدره منازل) نظيره . قوله تعالى فى سورة يس (والقمر قدرناه منازل) وفيه وجهان : أحدهما : أن يكون المعنى وقدر مسيره منازل . والثانى : أن يكون المعنى وقدره ذا منازل .

﴿المسألة السابعة﴾ الضمير فى قوله (وقدره) فيه وجهان : الأول : أنه لهما ، وإنما وحد الضمير للايجاز . وإلا فهو فى معنى التثنية اكتفاء بالمعلوم ، لأن عدد السنين والحساب إنما يعرف بسير الشمس والقمر ، ونظيره قوله تعالى (والله ورسوله أحق أن يرضوه) والثانى : أن يكون هذا الضمير راجعاً إلى القمر وحده . لأن بسير القمر تعرف الشهور ، وذلك لأن الشهور المعتبرة فى

الشريعة مبنية على رؤية الأهلة ، والسنة المعتبرة فى الشريعة هى السنة القمرية ، كما قال تعالى (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله)

﴿المسألة الثامنة﴾ اعلم أن انتفاع الخلق بضوء الشمس وبنور القمر عظيم ، فالشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل . وبحركة الشمس تنفصل السنة إلى الفصول الأربعة ، وبالفصول الأربعة تنتظم مصالح هـذا العالم . وبحركة القمر تحصل الشهور ، وباختلاف حاله فى زيادة الضوء ونقصانه تختلف أحوال رطوبات هـذا العالم . وبسبب الحركة اليومية يحصل النهار والليل ، فالنهار يكون زمانا للتكسب والطلب ، والليل يكون زمانا للراحـة ، وقد استقصينا فى منافع الشمس والقمر فى تفسير الآيات اللائقة بها فيما سلف ، وكل ذلك يدل على كثرة رحمة الله على الخلق وعظم عنايته بهم ، فانا قد دللنا على أن الأجسام متساوية . ومتى كان كذلك كان اختصاص كل جسم بشكله المعين ووضعه المعين . وحيزه المعين ، وصفته المعينة ، ليس إلا بتدبير مدبر حكيم رحيم قادر قاهر . وذلك يدل على أن جميع المنافع الحاصلة فى هـذا العالم بسبب حركات الأفلاك ومسير الشمس والقمر والكواكب ، ما حصل إلا بتدبير المدبر المقدر الرحيم الحكيم سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا . ثم إنه تعالى لما قرر هذه الدلائل ختمها بقوله (ماخلق الله ذلك إلا بالحق) ومعناه أنه تعالى خلقه على وفق الحكمة ومطابقة المصلحة ، ونظيره قوله تعالى فى آل عمران (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك) وقال فى سورة أخرى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال القاضى : هذه الآية تدل على بطلان الجبر ، لأنه تعالى لو كان مريداً لكل ظلم ، وخالقا لكل قبيح ، ومريدا لاضلال من ضل ، لما صح أن يصف نفسه بأنه ما خلق ذلك إلا بالحق .

﴿المسألة الثانية﴾ قال حكماء الاسلام : هذا يدل على أنه سبحانه أودع فى أجرام الأفلاك والكواكب خواص معينة وقوى مخصوصة ، باعتبارها تنتظم مصالح هذا العالم السفلى . إذ لو لم يكن لها آثار وفوائد فى هـــذا العالم . لكان خلقها عبثا وباطلا وغير مفيد ، وهـذه النصوص تنافى ذلك . والله أعلم .

ثم بين تعالى أنه يفصل الآيات : ومعنى التفصيل هو ذكر هذه الدلائل الباهرة ، واحدا عقيب الآخر ، فصلا فصلا مع الشرح والبيان . وفى قوله (نفصل) قراءتان : قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم (يفصل) بالياء ، وقرأ الباقون بالنون .

إِنَّ فِى اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ «٦»

ثم قال ﴿لقوم يعلمون﴾ وفيه قولان: الأول: أن المراد منه العقل الذى يعم الكل. والثانى: أن المراد منه من تفكر وعلم فوائد مخلوقاته وآثار إحسانه، وحجة القول الأول: عموم اللفظ، وحجة القول الثانى: أنه لا يمتنع أن يخص الله سبحانه وتعالى العلماء بهذا الذكر، لأنهم هم الذين انتفعوا بهذه الدلائل، فجاء كما فى قوله (إنما أنت منذر من يخشاها) مع أنه عليه السلام كان منذرا للكل.

قوله تعالى ﴿إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾

اعلم أنه تعالى استدل على التوحيد والالهيات أولا: بتخليق السموات والأرض، وثانيا: بأحوال الشمس والقمر، وثالثا: فى هذه الآية بالمنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار. وقد تقدم تفسيره فى سورة البقرة فى تفسير قوله (إن فى خلق السموات والأرض) ورابعا: بكل ما خلق الله فى السموات والأرض، وهى أقسام الحوادث الحادثة فى هذا العالم. وهى محصورة فى أربعة أقسام: أحدها: الأحوال الحادثة فى العناصر الأربعة، ويدخل فيها أحوال الرعد والبرق والسحاب والأمطار والثلوج. ويدخل فيها أيضا أحوال البحار، وأحوال المد والجزر. وأحوال الصواعق والزلازل والخسف. وثانيها: أحوال المعادن وهى عجيبة كثيرة. وثالثها: اختلاف أحوال النبات. ورابعها: اختلاف أحوال الحيوانات. وجملة هذه الأقسام الأربعة داخلة فى قوله تعالى (وما خلق الله فى السموات والأرض) والاستقصاء فى شرح هذه الأحوال مما لا يمكن فى ألف مجلد، بل كل ماذكره العقلاء فى أحوال أقسام هذا العالم فهو جزء مختصر من هذا الباب.

ثم إنه تعالى بعد ذكر هذه الدلائل قال (لآيات لقوم يتقون) فخصها بالمتقين، لأنهم يحذرون العاقبة فيدعوهم الحذر إلى التدبر والنظر. قال القفال: من تدبر فى هذه الأحوال علم أن الدنيا مخلوقة لشقاء الناس فيها، وأن خالقها وخالقهم ما أهملهم، بل جعلها لهم دار عمل. وإذا كان كذلك فلا بد من أمر ونهى، ثم من ثواب وعقاب. ليتميز المحسن عن المسىء، فهذه الأحوال فى الحقيقة دالة على صحة القول بإثبات المبدأ وإثبات المعاد.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ «٧» أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ «٨»

قوله تعالى ﴿إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾

اعلم أنه تعالى لما أقام الدلائل القاهرة على صحة القول باثبات الاله الرحيم الحكيم ، وعلى صحة القول بالمعاد والحشر والنشر، شرع بعده فى شرح أحوال من يكفر بها ، وفى شرح أحوال من يؤمن بها . فأما شرح أحوال الكافرين فهو المذكور فى هذه الآية . واعلم أنه تعالى وصفهم بصفات أربعة :

﴿الصفة الأولى﴾ قوله (إن الذين لايرجون لقاءنا) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ فى تفسير هذا الرجاء قولان :

﴿القول الأول﴾ وهو قول ابن عباس ومقاتل والكلبى : معناه : لايخافون البعث ، والمعنى : أنهم لايخافون ذلك لأنهم لايؤمنون بها . والدليل على تفسير الرجاء ههنا بالخوف قوله تعالى (إنما أنت منذر من يخشاها) وقوله (وهم من الساعة مشفقون) وتفسير الرجاء بالخوف جائز كما قال تعالى (مالكم لاترجون لله وقارا) قال الهذلى :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها

﴿والقول الثانى﴾ تفسير الرجاء بالطمع . فقوله (لايرجون لقاءنا) أى لايطمعون فى ثوابنا ، فيكون هذا الرجاء هو الذى ضده اليأس ، كما قال (قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار)

واعلم أن حمل الرجاء على الخوف بعيد ، لأن تفسير الضد بالضد غير جائز ، ولامانع ههنا من حمل الرجاء على ظاهره البتة ، والدليل عليه أن لقاء الله إما أن يكون المراد منه تجلى جلال الله تعالى للعبد وإشراق نور كبريائه فى روحه ، وإما أن يكون المراد منه الوصول إلى ثواب الله تعالى والى رحمته . فان كان الأول فهو أعظم الدرجات وأشرف السعادات وأكمل الخيرات ، فالعاقل كيف لايرجوه ، وكيف لايتمناه ؟ وإن كان الثانى فكذلك ، لأن كل أحد يرجو من الله تعالى أن يوصله إلى ثوابه ومقامات رحمته ، وإذا كان كذلك فكل من آمن بالله فهو يرجو ثوابه ، وكل من لم يؤمن بالله ولا بالمعاد فقد أبطل على نفسه هذا الرجاء ، فلاجرم حسن جعل عدم هذا الرجاء كناية عن عدم الايمان بالله واليوم الآخر .

﴿المسألة الثانية﴾ اللقاء هو الوصول إلى الشيء . وهذا فى حق الله تعالى محال ، لكونه منزها عن الحد والنهاية ، فوجب أن يجعل مجازا عن الرؤية ، وهذا مجاز ظاهر . فانه يقال : لقيت فلانا إذا رأيته ، وحمله على لقاء ثواب الله يقتضى زيادة فى الاضمار وهو خلاف الدليل .

واعلم أنه ثبت بالدلائل اليقينية أن سعادة النفس بعد الموت فى أن تتجلى فيها معرفة الله تعالى ويكمل إشراقها ويقوى لمعانها ، وذلك هو الرؤية ، وهى من أعظم السعادات . فمن كان غافلا عن طلبها معرضا عنها مكتفيا بعد الموت بوجدان اللذات الحسية من الأكل والشرب والوقاع كان من الضالين .

﴿الصفة الثانية﴾ من صفات هؤلاء الكفار قوله تعالى (ورضوا بالحياة الدنيا)

واعلم أن الصفة الأولى إشارة إلى خلو قلبه عن طلب اللذات الروحانية . وفراغه عن طلب السعادات الحاصلة بالمعارف الربانية . وأما هذه الصفة الثانية فهى إشارة إلى استغراقه فى طلب اللذات الجسمانية واكتفائه بها . واستغراقه فى طلبها .

﴿والصفة الثالثة﴾ قوله تعالى (واطمأنوا بها) وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ صفة السعداء أن يحصل لهم عند ذكر الله نوع من الوجل والخوف كما قال تعالى (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) ثم إذا قويت هذه الحالة حصلت الطمأنينة فى ذكر الله تعالى كما قال تعالى (وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وصفة الأشقياء أن تحصل لهم الطمأنينة فى حب الدنيا ، وفى الاشتغال بطلب لذاتها كما قال فى هذه الآية (واطمأنوا بها) فحقيقة الطمأنينة أن يزول عن قلوبهم الوجل . فاذا سمعوا الانذار والتخويف لم توجل قلوبهم وصارت كالميتة عند ذكر الله تعالى .

﴿المسألة الثانية﴾ مقتضى اللغة أن يقال : واطمأنوا اليها ، إلا أن حروف الجر يحسن إقامة بعضها مقام البعض ، فلهذا السبب قال (واطمأنوا بها)

﴿والصفة الرابعة﴾ قوله تعالى (والذين هم عن آياتنا غافلون) والمراد أنهم صاروا فى الاعراض عن طلب لقاء الله تعالى . بمنزلة الغافل عن الشيء الذى لا يخطر بباله طول عمره ذكر ذلك الشيء ، وبالجملة فهذه الصفات الأربعة دالة على شدة بعده عن طلب الاستسعاد بالسعادات الأخروية الروحانية ، وعلى شدة استغراقه فى طلب هذه الخيرات الجسمانية والسعادات الدنيوية .

واعلم أنه تعالى لما وصفهم بهذه الصفات الأربعة قال (أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) وفيه مسألتان :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ «٩» دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ «١٠»

﴿المسألة الأولى﴾ النيران على أقسام: النار التى هى جسم محسوس مضىء محرق، صاعد بالطبع، والاقرار به واجب، لأجل أنه ثبت بالدلائل المذكورة أن الاقرار بالجنة والنار حق.

﴿القسم الثانى﴾ النار الروحانية العقلية، وتقريره أن من أحب شيئاً حبا شديدا ثم ضاع عنه ذلك الشىء بحيث لا يمكنه الوصول اليه. فانه يحترق قلبه وباطنه. وكل عاقل يقول: إن فلانا محترق القلب محترق الباطن بسبب فراق ذلك المحبوب. وألم هذه النار أقوى بكثير من ألم النار المحسوسة.

إذا عرفت هذا فنقول: إن الأرواح التى كانت مستغرقة فى حب الجسمانيات وكانت غافلة عن حب عالم الروحانيات، فاذا مات ذلك الانسان وقعت الفرقة بين ذلك الروح وبين معشوقاته ومحبوباته، وهى أحوال هذا العالم، وليس له معرفة بذلك العالم ولا إلف مع أهل ذلك العالم، فيكون مثاله مثال من أخرج من مجالسة معشوقه وألقى فى بئر ظلمانية لا إلف له بها، ولا معرفة له بأحوالها، فهذا الانسان يكون فى غاية الوحشة، وتألم الروح فكذا هنا، أما لو كان نفوراً عن هذه الجسمانيات عارفا بمقابحها ومعايبها وكان شديد الرغبة فى اعتلاق العروة الوثقى، عظيم الحب لله، كان مثاله مثال من كان محبوسا فى سجن مظلم عفن مملوء من الحشرات المؤذية والآفات المهلكة، ثم اتفق أن فتح باب السجن وأخرج منه وأحضر فى مجلس السلطان الأعظم مع الأحباب والأصدقاء، كما قال تعالى (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) فهذا هو الاشارة إلى تعريف النار الروحانية والجنة الروحانية.

﴿المسألة الثانية﴾ الباء فى قوله (بما كانوا يكسبون) مشعر بأن الأعمال السابقة هى المؤثرة فى حصول هذا العذاب ونظيره قوله تعالى (ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد)

قوله تعالى ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال المنكرين والجاحدين فى الآية المتقدمة، ذكر فى هذه الآية أحوال المؤمنين المحقين، واعلم أنه تعالى ذكر صفاتهم أولا، ثم ذكر ما لهم من الأحوال السنية والدرجات

الرفيعة ثانيا . أما أحوالهم وصفاتهم فهى قوله (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وفى تفسيره وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أن النفس الانسانية لها قوتان :

﴿القوة النظرية﴾ وكمالها فى معرفة الأشياء ، ورئيس المعارف وسلطانها معرفة الله .

﴿والقوة العملية﴾ وكمالها فى فعل الخيرات والطاعات . ورئيس الأعمال الصالحة وسلطانها خدمة الله . فقوله (إن الذين آمنوا) إشارة إلى كمال القوة النظرية بمعرفة الله تعالى وقوله (وعملوا الصالحات) إشارة إلى كمال القوة العملية بخدمة الله تعالى . ولما كانت القوة النظرية مقدمة على القوة العملية بالشرف والرتبة ، لاجرم وجب تقديمها فى الذكر .

﴿الوجه الثانى﴾ فى تفسير هذه الآية قال القفال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى صدقوا بقلوبهم ، ثم حققوا التصديق بالعمل الصالح الذى جاءت به الأنبياء والكتب من عند الله تعالى

﴿الوجه الثالث﴾ (الذين آمنوا) أى شغلوا قلوبهم وأرواحهم بتحصيل المعرفة (وعملوا الصالحات) أى شغلوا جوارحهم بالخدمة ، فعينهم مشغولة بالاعتبار كما قال (فاعتبروا ياأولى الابصار) وأذنهم مشغولة بسماع كلام الله تعالى كما قال (وإذا سمعوا ماأنزل إلى الرسول) ولسانهم مشغول بذكر الله كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله) وجوارحهم مشغولة بنور طاعة الله كما قال (ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض .

واعلم أنه تعالى لما وصفهم بالايمان والأعمال الصالحة ذكر بعد ذلك درجات كراماتهم ومراتب سعاداتهم وهى أربعة .

﴿المرتبة الأولى﴾ قوله (يهديهم ربهم بايمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ فى تفسير قوله (يهديهم ربهم بايمانهم) وجوه : الأول : أنه تعالى يهديهم إلى الجنة ثواباً لهم على إيمانهم وأعمالهم الصالحة ، والذى يدل على صحة هذا التأويل وجوه : أحدها : قوله تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) وثانيها : ماروى أنه عليه السلام قال «إن المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة حسنة فيقول له أنا عملك فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة والكافر إذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة سيئة فيقول له أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار» وثالثها : قال مجاهد : المؤمنون يكون لهم نور يمشى بهم إلى الجنة . ورابعها : وهو الوجه العقلى أن الايمان عبارة عن نور اتصل به من عالم القدس وذلك النور كالخيط المتصل بين قلب المؤمن وبين ذلك العالم المقدس ، فان حصل هذا الخط

النورانى قدر العبد على أن يقتدى بذلك النور ويرجع إلى عالم القدس . فأما إذا لم يوجد هذا الحبل النورانى تاه فى ظلمات عالم الضلالات نعوذ بالله منه .

﴿ والتأويل الثانى ﴾ قال ابن الأنبارى : إن إيمانهم يهديهم إلى خصائص فى المعرفة ومزايا فى الألفاظ ولوامع من النور تستنير بها قلوبهم ، وتزول بواسطتها الشكوك والشبهات عنهم ، كقوله تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى) وهذه الزوائد والفوائد والمزايا يجوز حصولها فى الدنيا قبل الموت ، ويجوز حصولها فى الآخرة بعد الموت ، قال القفال : وإذا حملنا الآية على هذا الوجه . كان المعنى يهديهم ربهم بإيمانهم وتجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم ، إلا أنه حذف الواو وجعل قوله (تجرى) خبراً مستأنفاً منقطعاً عما قبله :

﴿ والتأويل الثالث ﴾ أن الكلام فى تفسير هذه الآية يجب أن يكون مسبوقا بمقدمات .

﴿ المقدمة الأولى ﴾ أن العلم نور والجهل ظلمة . وصريح العقل يشهد بأن الأمر كذلك ، ومما يقرره أنك إذا ألقيت مسألة جليلة شريفة على شخصين ، فاتفق أن فهمها أحدهما وما فهمها الآخر ، فانك ترى وجه الفاهم متهللا مشرقاً مضيئاً . ووجه من لم يفهم عبوساً مظلماً منقبضاً . ولهذا السبب جرت عادة القرآن بالتعبير عن العلم والايمان بالنور ، وعن الجهل والكفر بالظلمات .

﴿ والمقدمة الثانية ﴾ أن الروح كاللوح ، والعلوم والمعارف كالنقوش المنقوشة فى ذلك اللوح . ثم ههنا دقيقة ، وهى أن اللوح الجسمانى إذا رسمت فيه نقوش جسمانية فحصول بعض النقوش فى ذلك اللوح مانع من حصول سائر النقوش فيه ، فأما لوح الروح فخاصيته على الضد من ذلك ، فان الروح إذا كانت خالية عن نقوش المعارف والعلوم فانه يصعب عليه تحصيل المعارف والعلوم ، فاذا احتال وحصل شيء منها ، كان حصول ما حصل منها معيناً له على سهولة تحصيل الباقى ، وكلما كان الحاصل أكثر كان تحصيل البقية أسهل ، فالنقوش الجسمانية يكون بعضها مانعاً من حصول الباقى ، والنقوش الروحانية يكون بعضها معينا على حصول البقية ، وذلك يدل على أن أحوال العالم الروحانى بالضد من أحوال العالم الجسمانى .

﴿ المقدمة الثالثة ﴾ أن الأعمال الصالحة عبارة عن الأعمال التى تحمل النفس على ترك الدنيا وطلب الآخرة ، والأعمال المذمومة ماتكون بالضد من ذلك .

إذا عرفت هذه المقدمات فنقول : الانسان إذا آمن بالله فقد أشرق روحه بنور هذه المعرفة ، ثم إذا واظب على الأعمال الصالحة حصلت له ملكة مستقرة فى التوجه إلى الآخرة وفى الاعراض عن الدنيا ، وكلما كانت هذه الأحوال أكمل كان استعداد النفس لتحصيل سائر المعارف أشد ، وكلما

كان الاستعداد أقوى وأكمل . كانت معارج المعارف أكثر وإشراقها ولمعانها أقوى ، ولما كان لانهاية لمراتب المعارف والأنوار العقلية ، لاجرم لانهاية لمراتب هذه الهداية المشار إليها بقوله تعالى (يهديهم ربهم بإيمانهم)

﴿المسألة الثانية﴾ قوله تعالى (تجرى من تحتهم الأنهار) المراد منه أنهم يكونون جالسين على سرر مرفوعة فى البساتين والأنهار تجرى من بين أيديهم ، ونظيره قوله تعالى (قدجعل ربك تحتك سريا) وهى ماكانت قاعدة عليها ، ولكن المعنى بين يديك ، وكذا قوله (وهذه الأنهار تجرى من تحتى) المعنى بين يدى فكذا ههنا .

﴿المسألة الثالثة﴾ الايمان هوالمعرفة والهداية المترتبة عليها أيضاً من جنس المعارف ، ثم إنه تعالى لم يقل يهديهم ربهم إيمانهم . بل قال (يهديهم ربهم بإيمانهم) وذلك يدل على أن العلم بالمقدمتين لايوجب العلم بالنتيجة ، بل العلم بالمقدمتين سبب لحصول الاستعداد التام لقبول النفس للنتيجة . ثم إذا حصل هذا الاستعداد ، كان التكوين من الحق سبحانه وتعالى . وهذا معنى قول الحكماء أن الفياض المطلق والجواد الحق ، ليس إلا الله سبحانه وتعالى .

﴿المرتبة الثانية﴾ من مراتب سعاداتهم ودرجات كمالاتهم قوله سبحانه وتعالى (دعواهم فيها سبحانك اللهم) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ فى دعواهم وجوه : الأول : أن الدعوى ههنا بمعنى الدعاء . يقال : دعا يدعو دعاء ودعوى ، كما يقال : شكى يشكو شكاية وشكوى . قال بعض المفسرين (دعواهم) أى دعاؤهم . وقال تعالى فى أهل الجنة (لهم فيها فاكهة ولهم مايدعون) وقال فى آية أخرى (يدعون فيها بكل فاكهة آمنين) ومما يقوى أن المراد من الدعوى ههنا الدعاء . هو أنهم قالوا : اللهم . وهذا نداء لله سبحانه وتعالى . ومعنى قولهم (سبحانك اللهم) إنا نسبحك ، كقول القانت فى دعاء القنوت «اللهم إياك نعبد» الثانى : أن يراد بالدعاء العبادة ، ونظيره قوله تعالى (وأعتزلكم وماتدعون من دون الله) أى وما تعبدون . فيكون معنى الآية أنه لاعبادة لأهل الجنة إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه . ويكون اشتغالهم بذلك الذكر لاعلى سبيل التكليف ، بل على سبيل الابتهاج بذكر الله تعالى . الثالث : قال بعضهم : لايبعد أن يكون المراد من الدعوى نفس الدعوى التى تكون للخصم على الخصم . والمعنى : أن أهل الجنة يدعون فى الدنيا وفى الآخرة تنزيه الله تعالى عن كل المعايب والاقرار له بالالهية . قال القفال : أصل ذلك أيضاً من الدعاء ، لأن الخصم يدعو خصمه إلى من يحكم بينهما . الرابع : قال مسلم (دعواهم) أى قولهم وإقرارهم ونداؤهم ، وذلك هو قولهم (سبحانك

اللهم) الخامس : قال القاضى : المراد من قوله (دعواهم) أى طريقتهم فى تمجيد الله تعالى وتقديسه وشأنهم وسنتهم . والدليل على أن المراد ذلك أن قوله (سبحانك اللهم) ليس بدعاء ولا بدعوى ، إلا أن المدعى للشيء يكون مواظبا على ذكره ، لاجرم جعل لفظ الدعوى كناية عن تلك المواظبة والملازمة . فأهل الجنة لما كانوا مواظبين على هذا الذكر ، لاجرم أطلق لفظ الدعوى عليها . السادس : قال القفال : قيل فى قوله (لهم مايدعون) أى مايتمنونه ، والعرب تقول : ادع ماشئت على ، أى تمن . وقال ابن جريج : أخبرت أن قوله (دعواهم فيها سبحانك اللهم) هو أنه إذا مر بهم طير يشتهونه (قالوا سبحانك اللهم) فيأتيهم الملك بذلك المشتهى ، فقد خرج تأويل الآية من هذا الوجه ، على أنهم اذا اشتهوا الشيء قالوا سبحانك اللهم . فكان المراد من دعواهم ماحصل فى قلوبهم من التمنى ، وفى هذا التفسير وجه آخر هو أفضل وأشرف مما تقدم ، وهو أن يكون المعنى أن تمنيهم فى الجنة أن يسبحوا الله تعالى . أى تمنيهم لما يتمنونه ، ليس الا فى تسبيح الله تعالى وتقديسه وتنزيهه . السابع : قال القفال أيضاً : ويحتمل أن يكون المعنى فى الدعوى ماكانوا يتداعونه فى الدنيا فى أوقات حروبهم ممن يسكنون اليه ويستنصرونه ، كقولهم : ياآل فلان ، فأخبر الله تعالى أن أنسهم فى الجنة بذكرهم الله تعالى ، وسكونهم بتحميدهم الله . ولذتهم بتمجيدهم الله تعالى .

﴿المسألة الثانية﴾ أن قوله (سبحانك اللهم) فيه وجهان :

﴿الوجه الأول﴾ قول من يقول : ان أهل الجنة جعلوا هذا الذكر علامة على طلب المشتهيات قال ابن جريج : إذا مر بهم طيرا اشتهوه ؛ قالوا سبحانك اللهم فيؤتون به ، فاذا نالوا منه شهوتهم قالوا (الحمد لله رب العالمين) وقال الكلبى : قوله (سبحانك اللهم) علم بين أهل الجنة والخدام ، فاذا سمعوا ذلك من قولهم أتوهم بما يشتهون . واعلم أن هذا القول عندى ضعيف جداً ، وبيانه من وجوه : أحدها : أن حاصل هذا الكلام يرجع الى أن أهل الجنة جعلوا هذا الذكر العالى المقدس علامة على طلب المأكول والمشروب والمنكوح ، وهذا فى غاية الخساسة . وثانيها : أنه تعالى قال فى صفة أهل الجنة (ولهم مايشتهون) فاذا اشتهوا أكل ذلك الطير ، فلا حاجة بهم الى الطلب ، واذا لم يكن بهم حاجة الى الطلب . فقد سقط هذا الكلام . وثالثها : أن هذا يقتضى صرف الكلام عن ظاهره الشريف العالى الى محمل خسيس لااشعار للفظ به ، وهذا باطل .

﴿الوجه الثانى﴾ فى تأويل هذه الآية أن نقول : المراد اشتغال أهل الجنة بتقديس الله سبحانه وتمجيده والثناء عليه ، لأجل أن سعادتهم فى هذا الذكر وابتهاجهم به وسرورهم به ، وكمال حالهم لايحصل إلا منه ، وهذا القول هو الصحيح الذى لامحيد عنه . ثم على هذا التقدير فى الآية وجوه :

أحدها : قال القاضي : إنه تعالى وعد المتقين بالثواب العظيم ، كما ذكر فى أول هذه السورة من قوله (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) فاذا دخل أهل الجنة الجنة ، ووجدوا تلك النعم العظيمة ، عرفوا أن الله تعالى كان صادقا فى وعده إياهم بتلك النعم ، فعندهذا قالوا (سبحانك اللهم) أى نسبحك عن الخلف فى الوعد والكذب فى القول . وثانيها : أن نقول : غاية سعادة السعداء ، ونهاية درجات الأنبياء والأولياء استسعادهم بمراتب معارف الجلال .

واعلم أن معرفة ذات الله تعالى والاطلاع على كنه حقيقته مما لا سبيل للخلق إليه . بل الغاية القصوى معرفة صفاته السلبية أو صفاته الاضافية . أما الصفات السلبية فهى المسماة بصفات الجلال ، وأما الصفات الاضافية فهى المسماة بصفات الاكرام ، فلذلك كان كمال الذكر العالى مقصورا عليها ، كما قال سبحانه وتعالى (تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام) وكان صلى الله عليه وسلم يقول «ألظوا بياذا الجلال والاكرام» ولما كانت السلوب متقدمة بالرتبة على الاضافات ، لاجرم كان ذكر الجلال متقدما على ذكر الاكرام فى اللفظ . وإذا ثبت أن غاية سعادة السعداء ليس إلا فى هذين المقامين ، لاجرم ذكر الله سبحانه وتعالى كونهم مواظبين على هذا الذكر العالى المقدس ، ولما كان لانهاية لمعارج جلال الله ولاغاية لمدارج إلهيته وإكرامه وإحسانه ، فكذلك لانهاية لدرجات ترقى الأرواح المقدسة فى هذه المقامات العلية الالهية . وثالثها : أن الملائكة المقربين كانوا قبل تخليق آدم عليه السلام مشتغلين بهذا الذكر ، ألاترى أنهم قالوا (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) فالحق سبحانه ألهم السعداء من أولاد آدم ، حتى أتوا بهذا التسبيح والتحميد ، ليدل ذلك على أن الذى أتى به الملائكة المقربون قبل خلق العالم من الذكر العالى ، فهو بعينه أتى به السعداء من أولاد آدم عليه السلام . بعدانقراض العالم ، ولما كان هذا الذكر مشتملا على هذا الشرف العالى ، لاجرم جاءت الرواية بقراءته فى أول الصلاة ، فان المصلى إذا كبر قال «سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك»

﴿المرتبة الثالثة﴾ من مراتب سعادات أهل الجنة قوله تعالى (وتحيتهم فيها سلام) قال المفسرون : تحية بعضهم لبعض تكون بالسلام ، وتحية الملائكة لهم بالسلام ، كما قال تعالى (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) وتحية الله تعالى لهم أيضاً بالسلام كما قال تعالى (سلام قولا من رب رحيم) قال الواحدى : وعلى هذا التقدير يكون هذا من إضافة المصدر إلى المفعول ، وعندى فيه وجه آخر : وهو أن مواظبتهم على ذكر هذه الكلمة ، مشعرة بأنهم كانوا فى الدنيا فى منزل الآفات وفى معرض المخافات ، فاذا أخرجوا من الدنيا ووصلوا إلى كرامة الله تعالى ، فقد صاروا سالمين

من الآفات ، آمنين من المخافات والنقصانات . وقد أخبر الله تعالى عنهم بأنهم يذكرون هذا المعنى فى قوله (وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذى أحلنا دار المقامة من فضله لايمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب)

﴿المرتبة الرابعة﴾ من مراتب سعاداتهم قوله سبحانه وتعالى (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قد ذكرنا أن جماعة من المفسرين حملوا هذه الكلمات العالية المقدسة على أحوال أهل الجنة بسبب الأكل والشرب . فقالوا : إن أهل الجنة إذا اشتهوا شيئا قالوا : سبحانك اللهم وبحمدك ، وإذا أكلوا وفرغوا . قالوا : الحمد لله رب العالمين ، وهذاالقائل ماترقى نظره فى دنياه وأخراه عن المأكول والمشروب ، وحقيق لمثل هذا الانسان أن يعد فى زمرة البهائم . وأما المحقون المحققون ، فقد تركوا ذلك . ولهم فيه أقوال . روى الحسن البصرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن أهل الجنة يلهمون الحمد والتسبيح كما تلهمون أنفاسكم» وقال الزجاج : أعلم الله تعالى أن أهل الجنة يفتتحون بتعظيم الله تعالى وتنزيهه . ويختتمون بشكره والثناء عليه ، وأقول: عندى فى هذا الباب وجوه أخر : فأحدها : أن أهل الجنة لما استسعدوا بذكر سبحانك اللهم وبحمدك . وعاينوا ماهم فيه من السلامة عن الآفات والمخافات . علموا أن كل هذه الأحوال السنية والمقامات القدسية ، إنما تيسرت باحسان الحق سبحانه وإفضاله وإنعامه ، فلاجرم اشتغلوا بالحمد والثناء . فقالوا (الحمد لله رب العالمين) وإنما وقع الختم على هذا الكلام لأن اشتغالهم بتسبيح الله تعالى وتمجيده من أعظم نعم الله تعالى عليهم . والاشتغال بشكر النعمة متأخر عن رؤية تلك النعمة ، فلهذا السبب وقع الختم على هذه الكلمة ، وثانيها : أن لكل انسان بحسب قوته معراجا . فتارة ينزل عن ذلك المعراج ، وتارة يصعد إليه . ومعراج العارفين الصادقين ، معرفة الله تعالى وتسبيح الله وتحميد الله ، فاذا قالوا (سبحانك اللهم) فهم فى عين المعراج ، وإذا نزلوا منه إلى عالم المخلوقات . كان الحاصل عند ذلك النزول إفاضة الخير على جميع المحتاجين واليه الاشارة بقوله (وتحيتهم فيها سلام) ثم أنه مرة أخرى يصعد الى معراجه ، وعند الصعود يقول (الحمد لله رب العالمين) فهذه الكلمات العالية اشارة الى اختلاف أحوال العبد بسبب النزول والعروج . وثالثها : أن نقول : إن قولنا الله اسم لذات الحق سبحانه ، فتارة ينظر العبد الى صفات الجلال ، وهى المشار اليها بقوله (سبحانك) ثم يحاول الترقى منها الى حضرة جلال الذات ، ترقيا يليق بالطاقة البشرية ، وهى المشار اليها بقوله (اللهم) فاذا عرج عن ذلك المكان . واخترق فى أوائل تلك الأنوار رجع الى عالم الاكرام ، وهو

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ «١١»

المشار اليه بقوله (الحمد لله رب العالمين) فهذه كلمات خطرت بالبال ودارت فى الخيال . فان حقت فالتوفيق من الله تعالى ، وإن لم يكن كذلك فالتكلان على رحمة الله تعالى .

﴿المسألة الثانية﴾ قال الواحدى (أن) فى قوله (أن الحمد لله) هى المخففة من الشديدة ، فلذلك لم تعمل لخروجها بالتخفيف عن شبه الفعل كقوله :

أن هالك كل من يحفى وينتعل

على معنى أنه هالك . وقال صاحب النظم (أن) ههنا زائدة . والتقدير : وآخر دعواهم الحمد لله رب العالمين ، وهذا القول ليس بشىء ، وقرأبعضهم (أن) الحمد لله بالتشديد . ونصب الحمد .

قوله تعالى ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون ﴾

وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ أن الذى يغلب على ظنى أن ابتداء هذه السورة فى ذكر شبهات المنكرين للنبوة مع الجواب عنها .

﴿فالشبهة الأولى﴾ أن القوم تعجبوا من تخصيص الله تعالى محمداً عليه السلام بالنبوة فأزال الله تعالى ذلك التعجب بقوله (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم) ثم ذكر دلائل التوحيد ودلائل صحة المعاد . وحاصل الجواب أنه يقول : إنى ماجئتكم إلا بالتوحيد والاقرار بالمعاد ، وقد دللت على صحتها ، فلم يبق للتعجب من نبوتى معنى .

﴿والشبهة الثانيه﴾ للقوم أنهم كانوا أبدا يقولون : اللهم إن كان ما يقول : محمد حقاً فى ادعاء الرسالة فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بما ذكره فى هذه الآية . فهذا هو الكلام فى كيفية النظم . ومن الناس من ذكر فيه وجوها أخرى : فالأول : قال القاضى : لما بين تعالى فيما تقدم الوعد والوعيد أتبعه بما دل على أن من حقهما أن يتأخرا عن هذه الحياة الدنيوية لأن حصولها فى الدنيا كالمانع من بقاء التكليف . والثانى : ماذكره القفال : وهو أنه تعالى لما وصف الكفار بأنهم لا يرجون لقاء الله ورضوا بالحياة الدنيا

واطمأنوا بها، وكانوا عن آيات الله غافلين: بين أن من غفلتهم أن الرسول متى أنذرهم استعجلوا العذاب جهلا منهم وسفها.

﴿المسألة الثانية﴾ أنه تعالى أخبر فى آيات كثيرة أن هؤلاء المشركين متى خوفوا بنزول العذاب فى الدنيا استعجلوا ذلك العذاب كما قالوا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) وقال تعالى (سأل سائل بعذاب واقع) الآية. ثم إنهم لما توعدوا بعذاب الآخرة فى هذه الآية وهو قوله (أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) استعجلوا ذلك العذاب، وقالوا: متى يحصل ذلك كما قال تعالى (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها) وقال فى هذه السورة بعد هذه الآية (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) إلى قوله (آلآن وقد كنتم به تستعجلون) وقال فى سورة الرعد (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات) فبين تعالى أنهم لا مصلحة لهم فى تعجيل إيصال الشر إليهم، لأنه تعالى لو أوصل ذلك العقاب اليهم لماتوا وهلكوا، لأن تركيبهم فى الدنيا لا يحتمل ذلك ولا صلاح فى إماتتهم، فربما آمنوا بعد ذلك، وربما خرج من صلبهم من كان مؤمنا، وذلك يقتضى أن لا يعاجلهم بإيصال ذلك الشر.

﴿المسألة الثالثة﴾ فى لفظ الآية إشكال، وهو أن يقال: كيف قابل التعجل بالاستعجال، وكان الواجب أن يقابل التعجيل بالتعجيل، والاستعجال بالاستعجال.

والجواب عنه من وجوه: الأول: قال صاحب الكشاف: أصل هذا الكلام، ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم الخير إلا أنه وضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير اشعاراً بسرعة اجابته واسعافه بطلبهم، حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهم. الثانى: قال بعضهم حقيقة قولك عجلت فلانا طلبت عجلته، وكذلك عجلت الأمر إذا أتيت به عاجلا، كأنك طلبت فيه العجلة والاستعجال أشهر وأظهر فى هذا المعنى، وعلى هذا الوجه يصير معنى الآية لو أراد الله عجلة الشر للناس كما أرادوا عجلة الخير لهم لقضى إليهم أجلهم. قال صاحب هذا الوجه، وعلى هذا التقدير: فلا حاجة إلى العدول عن ظاهر الآية. الثالث: أن كل من عجل شيئا فقد طلب تعجيله، وإذا كان كذلك، فكل من كان معجلا كان مستعجلا. فيصير التقدير، ولو استعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير إلا أنه تعالى وصف نفسه بتكوين العجلة ووصفهم بطلبها، لأن اللائق به تعالى هو التكوين واللائق بهم هو الطلب.

﴿المسألة الرابعة﴾ أنه تعالى سمى العذاب شرا فى هذه الآية، لأنه أذى فى حق المعاقب ومكروه عنده. كما أنه سماه سيئة فى قوله (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة) وفى قوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها)

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «١٢»

(المسألة الخامسة) قرأ ابن عامر (لقضى) بفتح اللام والقاف (أجلهم) بالنصب. يعنى لقضى الله، وينصره قراءة عبد الله (لقضينا إليهم أجلهم) وقرأ الباقون بضم القاف وكسر الضاد وفتح الياء (أجلهم) بالرفع على مالم يسم فاعله.

(المسألة السادسة) المراد من استعجال هؤلاء المشركين الخير وأنهم كانوا عند نزول الشدائد يدعون الله تعالى بكشفها، وقد حكى الله تعالى عنهم ذلك فى آيات كثيرة كقوله (ثم إذا مسكم الضر فاليه تجأرون) وقوله (وإذا مس الانسان الضر دعانا)

(المسألة السابعة) لسائل أن يسأل فيقول: كيف اتصل قوله (فنذر الذين لايرجون لقاءنا) بما قبله وما معناه؟

وجوابه أن قوله (ولو يعجل الله للناس) متضمن معنى نفى التعجيل، كأنه قيل: ولا يعجل لهم الشر، ولا يقضى اليهم أجلهم فيذرهم فى طغيانهم أى فيمهلهم مع طغيانهم إلزاما للحجة.

(المسألة الثامنة) قال أصحابنا: إنه تعالى لما حكم عليهم بالطغيان والعمه امتنع أن لا يكونوا كذلك. وإلا لزم أن ينقلب خبر الله الصدق كذبا وعلمه جهله وحكمه باطلا، وكل ذلك محال، ثم إنه مع هذا كلفهم وذلك يكون جاريا مجرى التكليف بالجمع بين الضدين.

قوله تعالى (وإذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ماكانوا يعملون)

وفيه مسائل:

(المسألة الأولى) فى كيفية النظم وجهان: الأول: أنه تعالى لما بين فى الآية الأولى أنه لو أنزل العذاب على العبد فى الدنيا لهلك ولقضى عليه. فبين فى هذه الآية مايدل على غاية ضعفه ونهاية عجزه، ليكون ذلك مؤكداً لما ذكره من أنه لو أنزل عليه العذاب لمات. الثانى: أنه تعالى حكى عنهم أنهم يستعجلون فى نزول العذاب، ثم بين فى هذه الآية أنهم كاذبون فى ذلك الطلب والاستعجال، لأنه لو نزل بالانسان أدنى شىء يكرهه ويؤذيه، فانه يتضرع إلى الله تعالى فى إزالته

وفى دفعه عنه وذلك يدل على أنه ليس صادقاً فى هذا الطلب .

﴿المسألة الثانية﴾ المقصود من هذه الآية ، بيان أن الانسان قليل الصبر عند نزول البلاء ، قليل الشكر عند وجدان النعماء والآلاء ، فاذا مسه الضر أقبل على التضرع والدعاء مضطجعاً أو قائماً أو قاعداً ، مجتهداً فى ذلك الدعاء طالباً من الله تعالى إزالة تلك المحنة ، وتبديلها بالنعمة والمنحة ، فاذا كشف تعالى عنه ذلك بالعافية أعرض عن الشكر ، ولم يتذكر ذلك الضر ولم يعرف قدر الانعام ، وصار بمنزلة من لم يدع الله تعالى لكشف ضره ، وذلك يدل على ضعف طبيعة الانسان وشدة استيلاء الغفلة والشهوة عليه ، وإنما ذكر الله تعالى ذلك تنبيهاً على أن هذه الطريقة مذمومة ، بل الواجب على الانسان العاقل أن يكون صابراً عند نزول البلاء شاكراً عند الفوز بالنعماء ، ومن شأنه أن يكون كثير الدعاء والتضرع فى أوقات الراحة والرفاهية . حتى يكون مجاب الدعوة فى وقت المحنة . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «من سره أن يستجاب له عند الكرب والشدائد فليكثر الدعاء عند الرخاء»

واعلم أن المؤمن إذا ابتلى ببلية ومحنة ، وجب عليه رعاية أمور : فأولها : أن يكون راضيا بقضاء الله تعالى غير معترض بالقلب واللسان عليه . وإنما وجب عليه ذلك لأنه تعالى مالك على الاطلاق وملك بالاستحقاق . فله أن يفعل فى ملكه وملكه ماشاء كما يشاء ، ولأنه تعالى حكيم على الاطلاق وهو منزه عن فعل الباطل والعبث ، فكل ما فعله فهو حكمة وصواب ، وإذا كان كذلك فحينئذ يعلم أنه تعالى إن أبقى عليه تلك المحنة فهو عدل ، وإن أزالها عنه فهو فضل ، وحينئذ يجب عليه الصبر والسكوت وترك القلق والاضطراب . وثانيها أنه فى ذلك الوقت إن اشتغل بذكر الله تعالى والثناء عليه بدلا عن الدعاء كان أفضل ، لقوله عليه السلام حكاية عن رب العزة «من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» ولأن الاشتغال بالذكر اشتغال بالحق ، والاشتغال بالدعاء اشتغال بطلب حظ النفس ، ولاشك أن الأول أفضل ، ثم إن اشتغل بالدعاء وجب أن يشترط فيه أن يكون إزالته صلاحا فى الدين ، وبالجملة فانه يجب أن يكون الدين راجحا عنده على الدنيا . وثالثها : أنه سبحانه إذا أزال عنه تلك البلية فانه يجب عليه أن يبالغ فى الشكر . وأن لايخلو عن ذلك الشكر فى السراء والضراء ، وأحوال الشدة والرخاء ، فهذا هو الطريق الصحيح عند نزول البلاء . وههنا مقام آخر أعلى وأفضل مما ذكرناه ، وهو أن أهل التحقيق قالوا : إن من كان فى وقت وجدان النعمة مشغولا بالنعمة لا بالمنعم كان عند البلية مشغولا بالبلاء لا بالمبلى ، ومثل هذا الشخص يكون أبدا فى البلاء . أما فى وقت البلاء فلاشك أنه يكون فى البلاء ، وأما فى وقت حصول النعماء فان خوفه من

زوالها يكون أشد أنواع البلاء . فان النعمة كلما كانت أكمل وألذ وأقوى وأفضل ، كان خوف زوالها أشد إيذاء وأقوى إيحاشاً . فثبت أن من كان مشغولا بالنعمة كان أبداً فى لجة البلية . أما من كان فى وقت النعمة مشغولا بالمنعم ، لزم أن يكون فى وقت البلاء مشغولا بالمبلى . وإذا كان المنعم والمبلى واحداً . كان نظره أبداً على مطلوب واحد ، وكان مطلوبه منزهاً عن التغير مقدساً عن التبدل . ومن كان كذلك كان فى وقت البلاء وفى وقت النعماء ، غرقا فى بحر السعادات ، واصلا إلى أقصى الكمالات ، وهذا النوع من البيان بحر لا ساحل له . ومن أراد أن يصل اليه فليكن من الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر .

﴿المسألة الثالثة﴾ اختلفوا فى (الانسان) فى قوله (وإذا مس الانسان الضر) فقال بعضهم . إنه الكافر . ومنهم من بالغ وقال : كل موضع فى القرآن ورد فيه ذكر الانسان ، فالمراد هو الكافر ، وهذا باطل . لأن قوله (يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه فأما من أوتى كتابه بيمينه) لا شبهة فى أن المؤمن داخل فيه ، وكذلك قوله (هل أتى على الانسان حين من الدهر) وقوله (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين) وقوله (ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه) فالذى قالوه بعيد ، بل الحق أن نقول : اللفظ المفرد المحلى بالألف واللام حكمه أنه إذا حصل هناك معهود سابق انصرف اليه ، وإن لم يحصل هناك معهود سابق وجب حمله على الاستغراق صونا له عن الاجمال والتعطيل . ولفظ (الانسان) ههنا لائق بالكافر . لأن العمل المذكور لا يليق بالمسلم البتة .

﴿المسألة الرابعة﴾ فى قوله (دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما) وجهان :

﴿الوجه الأول﴾ أن المراد منه ذكر أحوال الدعاء فقوله (لجنبه) فى موضع الحال بدليل عطف الحالين عليه ، والتقدير : دعانا مضطجعا أو قاعدا أو قائما .

فان قالوا : فما فائدة ذكر هذه الأحوال ؟

قلنا : معناه : إن المضرور لا يزال داعيا لا يفتر عن الدعاء إلى أن يزول عنه الضر ، سواء كان مضطجعا أو قاعدا أو قائما .

﴿والوجه الثانى﴾ أن تكون هذه الأحوال الثلاثة تعديدا لأحوال الضر ، والتقدير : وإذا مس الانسان الضر لجنبه أو قاعدا أو قائما دعانا وهو قول الزجاج . والأول : أصح . لأن ذكر الدعاء أقرب إلى هذه الأحوال من ذكر الضر ، ولأن القول بأن هذه الأحوال أحوال للدعاء يقتضى مبالغة الانسان فى الدعاء . ثم إذا ترك الدعاء بالكلية وأعرض عنه كان ذلك أعجب .

﴿المسألة الخامسة﴾ فى قوله (مر) وجوه : الأول : المراد منه أنه مضى على طريقته الأولى

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ «١٥»

وقوله (وما كانوا ليؤمنوا) يجوز أن يكون عطفا على ظلموا ، وأن يكون اعتراضا ، واللام لتأكيد النفي ، وأن الله قد علم منهم أنهم يصرون على الكفر وهذا يدل على أنه تعالى إنما أهلكهم لأجل تكذيبهم الرسل، فكذلك يجزى كل مجرم ، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم رسول الله ، وقرئ (يجزى) بالياء وقوله (ثم جعلناكم خلائف) الخطاب للذين بعث إليهم محمد عليه الصلاة والسلام ، أي استخلفناكم فى الأرض بعد القرون التى أهلكناهم ، لننظر كيف تعملون ، خيرا أو شراً ، فنعاملكم على حسب عملكم . بقى فى الآية سؤلان :

﴿السؤال الأول﴾ كيف جاز النظر إلى الله تعالى وفيه معنى المقابلة ؟

والجواب : أنه استعير لفظ النظر للعلم الحقيقى الذى لا يتطرق الشك إليه ، وشبه هذا العلم بنظر الناظر وعيان المعاين .

﴿السؤال الثانى﴾ قوله (ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) مشعر بأن الله تعالى ما كان عالما بأحوالهم قبل وجودهم .

والجواب : المراد منه أنه تعالى يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم ، ليجازيهم بحسبه كقوله (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) وقد مر نظائر هذا . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الدنيا خضرة حلوة وأن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون» وقال قتادة : صدق الله ربنا ماجعلنا خلفاء إلا لينظر إلى أعمالنا ، فأروا الله من أعمالكم خيراً ، بالليل والنهار .

﴿المسألة الثالثة﴾ قال الزجاج: موضع (كيف) نصب بقوله (تعملون) لأنها حرف ، لاستفهام والاستفهام لا يعمل فيه ماقبله ، ولو قلت : لننظر خيراً تعملون أم شرا ، كان العامل فى خير وشر تعملون .

قوله تعالى ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم﴾

فيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن هـذا الكلام هو النوع الثالث من شبهاتهم وكلماتهم التى ذكروها فى الطعن فى نبوة النبى صلى الله عليه وسلم ، حكاها الله تعالى فى كتابه وأجاب عنها .

واعلم أن من وقف على هذا الترتيب الذى نذكره . علم أن القرآن مرتب على أحسن الوجوه .

﴿المسألة الثانية﴾ روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن خمسة من الكفار كانوا يستهزئون بالرسول عليه الصلاة والسلام وبالقرآن . الوليد بن المغيرة المخزومى ، والعاص بن وائل السهمى ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، والحرث بن حنظلة ، فقتل الله كل رجل منهم بطريق آخر ، كما قال (إنا كفيناك المستهزئين) فذكر الله تعالى أنهم كلما تلى عليهم آيات (قال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله) وفيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ أن وصفهم بأنهم لايرجون لقاء الله أريد به كونهم مكذبين بالحشر والنشر ، منكرين للبعث والقيامة ، ثم فى تقرير حسن هذه الاستعارة وجوه : الأول : قال الأصم (لايرجون لقاءنا) أى لايرجون فى لقائنا خيراً على طاعة ، فهم من السيئات أبعد أن يخافوها . الثانى : قال القاضى : الرجاء لايستعمل إلا فى المنافع ، لكنه قد يدل على المضار من بعض الوجوه . لأن من لايرجو لقاء ماوعد به من الثواب ، وهو القصد بالتكليف . لايخاف أيضا مايوعده به من العقاب ، فصار ذلك كناية عن جحدهم للبعث والنشور .

واعلم أن كلام القاضى قريب من كلام الأصم . الا أن البيان التام أن يقال : كل من كان مؤمنا بالبعث والنشور فانه لابد وأن يكون راجيا ثواب الله وخائفا من عقابه . وعدم اللازم يدل على عدم الملزوم ، فلزم من نفى الرجاء نفى الايمان بالبعث . فهذا هو الوجه فى حسن هذه الاستعارة .

﴿البحث الثانى﴾ أنهم طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أمرين على البدل : فالأول : أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن . والثانى : أن يبدل هذا القرآن وفيه إشكال ، لأنه إذا بدل هذا القرآن بغيره ، فقد أتى بقرآن غير هذا القرآن ، واذا كان كذلك كان كل واحد منهما شيئاً واحدا . وأيضاً مما يدل على أن كل واحد منهما هو عين الآخر أنه عليه الصلاة والسلام اقتصر فى الجواب على نفى أحدهما ، وهو قوله (مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى) وإذا ثبت أن كل واحد من هذين الأمرين هو نفس الآخر ، كان إلقاء اللفظ على الترديد والتخيير فيه باطلا .

والجواب : أن أحد الأمرين غير الآخر ، فالاتيان بكتاب آخر ، لاعلى ترتيب هـذا القرآن ولا على نظمه ، يكون إتيانا بقرآن آخر ، وأما إذا أتى بهذا القرآن إلا أنه وضع مكان ذم بعض الأشياء مدحها ، ومكان آية رحمة آية عذاب ، كان هذا تبديلا . أو نقول : الاتيان بقرآن غير هذا هو أن

يأتيهم بكتاب آخر سوى هذا الكتاب . مع كون هذا الكتاب باقيا بحاله ، والتبديل هو أن يغير هذا الكتاب . وأما قوله : إنه اكتفى فى الجواب على نفى أحد القسمين .

قلنا : الجواب المذكور عن أحد القسمين هو عين الجواب عن القسم الثانى . وإذا كان كذلك وقع الاكتفاء بذكر أحدهما عن ذكر الثانى . وإنما قلنا : الجواب عن أحد القسمين عين الجواب عن الثانى لوجهين : الأول : أنه عليه الصلاة والسلام لما بين أنه لايجوز أن يبدله من تلقاء نفسه ، لأنه وارد من الله تعالى ولايقدر على مثله ، كما لايقدر سائر العرب على مثله ، فكان ذلك متقرراً فى نفوسهم بسبب ماتقدم من تحديه لهم بمثل هذا القرآن ، فقد دلهم بذلك على أنه لايتمكن من قرآن غير هذا . والثانى : أن التبديل أقرب إلى الامكان من المجىء بقرآن غير هذا القرآن ، فجوابه عن الأسهل يكون جوابا عن الأصعب . ومن الناس من قال : لافرق بين الاتيان بقرآن غير هذا القرآن وبين تبديل هذا القرآن ، وجعل قوله (مايكون لى أن أبدله) جواباً عن الأمرين ، إلا أنه ضعيف على مابيناه .

﴿المسألة الثالثة﴾ اعلم أن إقدام الكفار على هذا الالتماس يحتمل وجهين : أحدهما : أنهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء ، مثل أن يقولوا : إنك لو جئتنا بقرآن آخر غير هذا القرآن أو بدلته لآمنا بك ، وغرضهم من هذا الكلام السخرية والتطير . والثانى : أن يكونوا قالوه على سبيل الجد ، وذلك أيضا يحتمل وجوها : أحدها : أن يكونوا قالوا ذلك على سبيل التجربة والامتحان ، حتى أنه إن فعل ذلك ، علموا أنه كان كذابا فى قوله : إن هذا القرآن نزل عليه من عند الله . وثانيها : أن يكون المقصود من هذا الالتماس أن هذا القرآن مشتمل على ذم آلهتهم والطعن فى طرائقهم ، وهم كانوا يتأذون منها ، فالتمسوا كتابا آخر ليس فيه ذلك . وثالثها : أن بتقدير أن يكونوا قد جوزوا كون هذا القرآن من عند الله ، التمسوا منه أن يلتمس من الله نسخ هذا القرآن وتبديله بقرآن آخر . وهذا الوجه أبعد الوجوه .

واعلم أن القوم لما ذكروا ذلك أمره الله تعالى أن يقول : إن هذا التبديل غير جائز منى (إن أتبع إلا مايوحى إلى) ثم بين تعالى أنه بمنزلة غيره فى أنه متوعد بالعذاب العظيم إن عصى . ويتفرع على هذه الآية فروع :

﴿الفرع الأول﴾ أن قوله (إن أتبع إلا مايوحى إلى) معناه : لاأتبع إلا مايوحى إلى . فهذا يدل على أنه عليه الصلاة والسلام ماحكم إلا بالوحى ، وهذا يدل على أنه لم يحكم قط بالاجتهاد .

﴿الفرع الثانى﴾ تمسك نفاة القياس بهذه الآية فقالوا : دل هذا النص على أنه عليه الصلاة

قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَاتَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ «١٦»

والسلام ماحكم إلا بالنص . فوجب أن يجب على جميع الأمة أن لا يحكموا إلا بمقتضى النص لقوله تعالى (واتبعوه)

﴿الفرع الثالث﴾ نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إن ذلك منسوخ بقوله (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) وهذا بعيد لأن النسخ إنما يدخل فى الأحكام والتعبدات لافى ترتيب العقاب على المعصية .

﴿الفرع الرابع﴾ قالت المعتزلة : ان قوله (إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) مشروط بما يكون واقعا بلا توبة ولا طاعة أعظم منها ، ونحن نقول فيه تخصيص ثالث . وهو أن لا يعفو عنه ابتداء ، لأن عندنا يجوز من الله تعالى أن يعفو عن أصحاب الكبائر .

قوله تعالى ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون﴾

وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنا بينا فيما سلف ، أن القوم إنما التمسوا منه ذلك الالتماس ، لأجل أنهم اتهموه بأنه هو الذى يأتى بهذا الكتاب من عند نفسه ، على سبيل الاختلاق والافتعال ، لا على سبيل كونه وحيا من عند الله . فلهذا المعنى احتج النبى عليه الصلاة والسلام على فساد هذا الوهم بما ذكره الله تعالى فى هذه الآية . وتقريره أن أولئك الكفار كانوا قد شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول عمره الى ذلك الوقت ، وكانوا عالمين بأحواله وأنه ما طالع كتابا ولا تلمذ لأستاذ ولاتعلم من أحد ، ثم بعد انقراض أربعين سنة على هذا الوجه جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس علم الأصول ، ودقائق علم الأحكام ، ولطائف علم الأخلاق ، وأسرار قصص الأولين ، وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء ، وكل من له عقل سليم فانه يعرف أن مثل هذا لايحصل الا بالوحى والالهام من الله تعالى ، فقوله (لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به) حكم منه عليه الصلاة والسلام بأن هذا القرآن وحى من عند الله تعالى ، لامن اختلاقى ولامن افتعالى . وق[illegible] (فقد لبثت فيكم عمرا من قبله) اشارة الى الدليل الذى قررناه ، وقوله (أفلا تعقلون) يعنى أن [illegible]

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ «١٧»

هذا الكتاب العظيم اذا جاء على يد من لم يتعلم ولم يتلمذ ولم يطالع كتابا ولم يمارس مجادلة ، يعلم بالضرورة أنه لا يكون الا على سبيل الوحى والتنزيل . وانكار العلوم الضرورية يقدح فى صحة العقل . فلهذا السبب قال (أفلا تعقلون)

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (ولا أدراكم به) هو من الدراية بمعنى العلم . قال سيبويه : يقال دريته ودريت به ، والأكثر هو الاستعمال بالباء . والدليل عليه قوله تعالى (ولا أدراكم به) ولو كان على اللغة الأخرى لقال ولا أدراكموه .

اذا عرفت هذا فنقول : معنى (ولا أدراكم به) أى ولا أعلمكم الله به ولا أخبركم به . قال صاحب الكشاف : قرأ الحسن (ولا أدرأكم به) على لغة من يقول أعطأته وأرضأته فى معنى أعطيته وأرضيته ويعضده قراءة ابن عباس (ولا أنذرتكم به) ورواه الفراء (ولا أدرأتكم) به بالهمز ، والوجه فيه أن يكون من أدرأته إذا دفعته ، وأدرأته إذا جعلته داريا ، والمعنى : ولا أجعلكم بتلاوته خصماء تدرؤننى بالجدال وتكذبوننى ، وعن ابن كثير (ولأدراكم) بلام الابتداء لاثبات الادراء .

وأما قوله تعالى ﴿فقد لبثت فيكم عمرا من قبله﴾ فالقراءة المشهورة بضم الميم ، وقرىء (عمرا) بسكون الميم .

قوله تعالى ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون﴾

واعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها ظاهر ، وذلك لأنهم التمسوا منه قرآنا يذكره من عند نفسه ، ونسبوه إلى أنه إنما يأتى بهذا القرآن من عند نفسه ، ثم انه أقام البرهان القاهر الظاهر على أن ذلك باطل ، وأن هذا القرآن ليس إلا بوحى الله تعالى وتنزيله ، فعند هذا قال (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) والمراد أن هذا القرآن لو لم يكن من عند الله ، لما كان فى الدنيا أحد أظلم على نفسه منى ، حيث افتريته على الله ، ولما أقمت الدلالة على أنه ليس الأمر كذلك ، بل هو بوحى من الله تعالى وجب أن يقال إنه ليس فى الدنيا أحد أجهل ولا أظلم على نفسه منكم ، لأنه لما ظهر بالبرهان المذكور كونه من عند الله ، فاذا أنكرتموه كنتم قد كذبتم بآيات الله . فوجب أن تكونوا أظلم الناس .

والحاصل أن قوله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) المقصود منه نفى الكذب عن نفسه وقوله

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَاللهِ قُلْ أَتُنَبِّؤُنَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ «١٨»

(أو كذب بآياته) المقصود منه إلحاق الوعيد الشديد بهم حيث أنكروا دلائل الله، وكذبوا بآيات الله تعالى.

وأما قوله ﴿إنه لا يفلح المجرمون﴾ فهو تأكيد لما سبق من هذين الكلامين. والله أعلم.

قوله تعالى ﴿ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولا ينفعهم يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لايعلم فى السموات ولافى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾

اعلم أنا ذكرنا أن القوم إنما التمسوا من الرسول صلى الله عليه وسلم قرآنا غير هذا القرآن أو تبديل، هذا القرآن لأن هذا القرآن مشتمل على شتم الأصنام التى جعلوها آلهة لأنفسهم، فلهذا السبب ذكر الله تعالى فى هذا الموضع مايدل على قبح عبادة الأصنام، ليبين أن تحقيرها والاستخفاف بها أمر حق وطريق متيقن.

واعلم أنه تعالى حكى عنهم أمرين: أحدهما: أنهم كانوا يعبدون الأصنام. والثانى: أنهم كانوا يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. أما الأول فقد نبه الله تعالى على فساده بقوله (مالا يضرهم ولاينفعهم) وتقريره من وجوه: الأول: قال الزجاج: لايضرهم إن لم يعبدوه ولا ينفعهم إن عبدوه. الثانى: أن المعبود لابد وأن يكون أكمل قدرة من العابد، وهذه الأصنام لا تنفع ولا تضر البتة، وأما هؤلاء الكفار فهم قادرون على التصرف فى هذه الأصنام تارة بالاصلاح وأخرى بالافساد، وإذا كان العابد أكمل حالا من المعبود كانت العبادة باطلة. الثالث: أن العبادة أعظم أنواع التعظيم، فهى لاتليق إلا بمن صدر عنه أعظم أنواع الانعام، وذلك ليس إلا الحياة والعقل والقدرة ومصالح المعاش والمعاد، فاذا كانت المنافع والمضار كلها من الله سبحانه وتعالى، وجب أن لا تليق العبادة إلا بالله سبحانه.

﴿وأما النوع الثانى﴾ ماحكاه الله تعالى عنهم فى هذه الآية، وهو قولهم (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) فاعلم أن من الناس من قال إن أولئك الكفار توهموا أن عبادة الأصنام أشد فى تعظيم الله من عبادة الله سبحانه وتعالى. فقالوا ليست لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله تعالى بل نحن نشتغل

بعبادة هذه الأصنام ، وأنها تكون شفعاء لنا عند الله تعالى . ثم اختلفوا فى أنهم كيف قالوا فى الأصنام إنها شفعاؤنا عند الله ؟ وذكروا فيه أقوالا كثيرة : فأحدها : أنهم اعتقدوا أن المتولى لكل إقليم من أقاليم العالم ، روح معين من أرواح عالم الأفلاك . فعينوا لذلك الروح صنما معينا واشتغلوا بعبادة ذلك الصنم ، ومقصودهم عبادة ذلك الروح ، ثم اعتقدوا أن ذلك الروح يكون عبداً للاله الأعظم ومشتغلا بعبوديته . وثانيها : أنهم كانوا يعبدون الكواكب وزعموا أن الكواكب هى التى لها أهلية عبودية الله تعالى ، ثم لما رأوا أن الكواكب تطلع وتغرب وضعوا لها أصناماً معينة واشتغلوا بعبادتها ، ومقصودهم توجيه العبادة إلى الكواكب . وثالثها : أنهم وضعوا طلسمات معينة على تلك الأصنام والأوثان ، ثم تقربوا إليها كما يفعله أصحاب الطلسمات . ورابعها : أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم . وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل ، فان أولئك الأكابر تكون شفعاء لهم عند الله تعالى ، ونظيره فى هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر . على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فانهم يكونون شفعاء لهم عند الله . وخامسها : أنهم اعتقدوا أن الاله نور عظيم ، وأن الملائكة أنوار فوضعوا على صورة الاله الأكبر الصنم الأكبر ، وعلى صورة الملائكة صوراً أخرى . وسادسها : لعل القوم حلولية ، وجوزوا حلول الاله فى بعض الأجسام العالية الشريفة .

واعلم أن كل هذه الوجوه باطلة بالدليل الذى ذكره الله تعالى وهو قوله (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم) وتقريره ماذكرناه من الوجوه الثلاثة .

قوله تعالى ﴿قل أتنبئون الله بما لايعلم فى السموات ولافى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾

اعلم أن المفسرين قرروا وجهاً واحدا ، وهو أن المراد من نفى علم الله تعالى بذلك تقرير نفيه فى نفسه ، وبيان أنه لاوجود له البتة ، وذلك لأنه لو كان موجوداً لكان معلوماً لله تعالى ، وحيث لم يكن معلوماً لله تعالى وجب أن لايكون موجوداً . ومثل هذا الكلام مشهور فى العرف ، فان الانسان اذا أراد نفى شيء عن نفسه يقول : ماعلم الله هذا منى ، ومقصوده أنه ماحصل ذلك قط . وقرىء (أتنبئون) بالتخفيف أماقوله (سبحانه وتعالى عما يشركون) فالمقصود تنزيه الله تعالى نفسه عن ذلك الشرك ، قرأ حمزة والكسائى (تشركون) بالتاء . ومثله فى أول النحل فى موضعين ، وفى الروم كلها بالتاء على الخطاب . قال صاحب الكشاف «ما» موصولة أو مصدرية أى عن الشركاء الذين يشركونهم به أو عن إشراكهم ، قال الواحدى : من قرأ بالتاء فلقوله (أتنبئون الله) ومن قرأ بالياء

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ «١٩»

فكأنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم قل أنت (سبحانه وتعالى عما يشركون) ويجوز أن يكون الله سبحانه هو الذي نزه نفسه عما قالوه فقال (سبحانه وتعالى عما يشركون)

قوله تعالى ﴿وماكان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون﴾

اعلم أنه تعالى لما أقام الدلالة القاهرة على فساد القول بعبادة الأصنام ، بين السبب فى كيفية حدوث هذا المذهب الفاسد ، والمقالة الباطلة . فقال (وماكان الناس إلا أمة واحدة) واعلم أن ظاهر قوله (وماكان الناس إلا أمة واحدة) لا يدل على أنهم أمة واحدة فيماذا ؟ وفيه ثلاثة أقوال :

﴿القول الأول﴾ أنهم كانوا جميعاً على الدين الحق ، وهو دين الاسلام . واحتجوا عليه بأمور: الأول : أن المقصود من هذه الآيات بيان كون الكفر باطلا ، وتزييف طريق عبادة الأصنام ، وتقرير أن الاسلام هو الدين الفاضل ، فوجب أن يكون المراد من قوله (كان الناس أمة واحدة) هو أنهم كانوا أمة واحدة . إما فى الاسلام وإما فى الكفر ، ولا يجوز أن يقال إنهم كانوا أمة واحدة فى الكفر . فبقى أنهم كانوا أمة واحدة فى الاسلام . إنما قلنا إنه لا يجوز أن يقال إنهم كانوا أمة واحدة فى الكفر لوجوه : الأول : قوله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد) وشهيد الله لابد وأن يكون مؤمناً عدلا . فثبت أنه ما خلت أمة من الأمم إلا وفيهم مؤمن . الثانى : أن الأحاديث وردت بأن الأرض لا تخلو عمن يعبد الله تعالى . وعن أقوام بهم يمطر أهل الأرض وبهم يرزقون . الثالث : أنه لما كانت الحكمة الأصلية فى الخلق هو العبودية . فيبعد خلو أهل الأرض بالكلية عن هذا المقصود . روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقية من أهل الكتاب» وهذا يدل على قوم تمسكوا بالايمان قبل مجىء الرسول عليه الصلاة والسلام ، فكيف يقال إنهم كانوا أمة واحدة فى الكفر؟ وإذا ثبت أن الناس كانوا أمة واحدة إما فى الكفر وإما فى الايمان ، وأنهم ما كانوا أمة واحدة فى الكفر ، ثبت أنهم كانوا أمة واحدة فى الايمان ، ثم اختلف القائلون بهذا القول أنهم متى كانوا كذلك ؟ فقال ابن عباس ومجاهد كانوا على دين الاسلام فى عهد آدم وفى عهد ولده . واختلفوا عند

قتل أحد ابنيه الابن الثانى ، وقال قوم : إنهم بقوا على دين الاسلام إلى زمن نوح ، وكانوا عشرة قرون . ثم اختلفوا على عهد نوح . فبعث الله تعالى إليهم نوحاً . وقال آخرون : كانوا على دين الاسلام فى زمن نوح بعد الغرق . إلى أن ظهر الكفر فيهم . وقال آخرون: كانوا على دين الاسلام من عهد إبراهيم عليه السلام إلى أن غيره عمرو بن لحى ، وهذا القائل قال : المراد من الناس فى قوله تعالى (وماكان الناس إلا أمة واحدة) فاختلفوا العرب خاصة .

إذا عرفت تفصيل هذا القول فنقول : إنه تعالى لما بين فيما قبل فساد القول بعبادة الأصنام بالدليل الذى قررناه ، بين فى هذه الآية أن هذا المذهب ليس مذهباً للعرب من أول الأمر ، بل كانوا على دين الاسلام ، ونفى عبادة الأصنام . ثم حذف هذا المذهب الفاسد فيهم ، والغرض منه أن العرب إذا علموا أن هذا المذهب ماكان أصلياً فيهم ، وأنه إنما حدث بعد أن لم يكن ، لم يتعصبوا لنصرته ، ولم يتأذوا من تزييف هذا المذهب ، ولم تنفر طباعهم من إبطاله . ومما يقوى هذا القول وجهان : الأول : أنه تعالى قال (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولاينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عندالله) ثم بالغ فى إبطاله بالدليل . ثم قال عقيبه (وماكان الناس إلا أمة واحدة) فلو كان المراد منه بيان أن هذا الكفر كان حاصلا فيهم من الزمان القديم ، لم يصح جعل هذا الكلام دليلا على إبطال تلك المقالة . أما لو حملناه على أن الناس فى أول الأمر كانوا مسلمين ، وهذا الكفر إنما حدث فيهم من زمان ، أمكن التوسل به إلى تزييف اعتقاد الكفار فى هذه المقالة ، وفى تقبيح صورتها عندهم ، فوجب حمل اللفظ عليه تحصيلا لهذا الغرض . الثانى : أنه تعالى قال (وماكان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم) ولا شك أن هذا وعيد ، وصرف هذا الوعيد إلى أقرب الأشياء المذكورة أولى ، والأقرب هو ذكر الاختلاف ، فوجب صرف هذا الوعيد إلى هذا الاختلاف . لا إلى ماسبق من كون الناس أمة واحدة ، وإذا كان كذلك ، وجب أن يقال : كانوا أمة واحدة فى الاسلام لا فى الكفر . لأنهم لو كانوا أمة واحدة فى الكفر لكان اختلافهم بسبب الايمان ، ولا يجوز أن يكون الاختلاف الحاصل بسبب الايمان سببا لحصول الوعيد . أما لو كانوا أمة واحدة فى الايمان لكان اختلافهم بسبب الكفر ، وحينئذ يصح جعل ذلك الاختلاف سببا للوعيد .

﴿القول الثانى﴾ قول من يقول المراد كانوا أمة واحدة فى الكفر ، وهذا القول منقول عن طائفة من المفسرين . قالوا : وعلى هذا التقدير ففائدة هذا الكلام فى هذا المقام هى أنه تعالى بين للرسول عليه الصلاة والسلام ، أنه لاتطمع فى أن يصير كل من تدعوه إلى الدين مجيبا لك ، قابلا لدينك .

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ «٢٠»

فان الناس كلهم كانوا على الكفر ، وإنما حدث الاسلام فى بعضهم بعد ذلك ، فكيف تطمع فى اتفاق الكل على الايمان ؟

﴿القول الثالث﴾ قول من يقول : المراد إنهم كانوا أمة واحدة فى أنهم خلقوا على فطرة الاسلام ، ثم اختلفوا فى الأديان . واليه الاشارة بقوله عليه الصلاة والسلام « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » ومنهم من يقول المراد كانوا أمة واحدة فى الشرائع العقلية ، وحاصلها يرجع إلى أمرين : التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله . وإليه الاشارة بقوله تعالى (قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم أن لاتشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا) واعلم أن هذه المسألة قد استقصينا فيها فى سورة البقرة ، فلنكتف بهذا القدر ههنا .

أما قوله تعالى ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون﴾ فاعلم أنه ليس فى الآية مايدل على أن تلك الكلمة ماهى؟ وذكروا فيه وجوها : الأول : أن يقال لولا أنه تعالى أخبر بأنه يبقى التكليف على عباده ، وإن كانوا به كافرين ، لقضى بينهم بتعجيل الحساب والعقاب لكفرهم ، لكن لما كان ذلك سببا لزوال التكليف ، ويوجب الالجاء ، وكان إبقاء التكليف أصوب وأصلح ، لاجرم أنه تعالى أخر هذا العقاب إلى الآخرة . ثم قال هذا القائل ، وفى ذلك تصبير للمؤمنين على احتمال المكاره من قبل الكافرين والظالمين . الثانى (ولولا كلمة سبقت من ربك) فى أنه لايعاجل العصاة بالعقوبة إنعاما عليهم ، لقضى بينهم فى اختلافهم . بما يمتاز المحق من المبطل والمصيب من المخطىء الثالث : أن تلك الكلمة هى قوله «سبقت رحمتى غضبى» فلما كانت رحمته غالبة اقتضت تلك الرحمة الغالبة إسبال الستر على الجاهل الضال وإمهاله إلى وقت الوجدان .

قوله تعالى ﴿ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل انما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين﴾

اعلم أن هذا الكلام هو النوع الرابع من شبهات القوم فى إنكارهم نبوته ، وذلك أنهم . قالوا : ان القرآن الذى جئتنا به كتاب مشتمل على أنواع من الكلمات ، والكتاب لايكون معجزا ، ألاترى أن كتاب موسى وعيسى ماكان معجزة لهما . بل كان لهما أنواع من المعجزات دلت على نبوتهما

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ «٢١»

سوى الكتاب . وأيضاً فقد كان فيهم من يدعى إمكان المعارضة ، كما أخبر الله تعالى أنهم قالوا (لو شئنا لقلنا مثل هذا) وإذا كان الأمر كذلك لاجرم طلبوا منه شيئاً آخر سوى القرآن ، ليكون معجزة له . فحكى الله تعالى عنهم ذلك بقوله (ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه) فأمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام أن يقول عند هذا السؤال (إنما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين)

واعلم أن الوجه فى تقرير هذا الجواب أن يقال : أقام الدلالة القاهرة على أن ظهور القرآن عليه معجزة قاهرة ظاهرة . لأنه عليه الصلاة والسلام بين أنه نشأ فيما بينهم وتربى عندهم ، وهم علموا أنه لم يطالع كتابا ، ولم يتلمذ لأستاذ . بل كان مدة أربعين سنة معهم ومخالطا لهم ، وما كان مشتغلا بالفكر والتعلم قط ، ثم إنه دفعة واحدة ظهر هذا القرآن العظيم عليه ، وظهور مثل هذا الكتاب الشريف العالى ، على مثل ذلك الانسان الذى لم يتفق له شىء من أسباب التعلم ، لايكون إلا بالوحى . فهذا برهان قاهر على أن القرآن معجز قاهر ظاهر ، وإذا ثبت هذا كان طلب آية أخرى سوى القرآن من الاقتراحات التى لاحاجة إليها فى إثبات نبوته عليه الصلاة والسلام ، وتقرير رسالته . ومثل هذا يكون مفوضا إلى مشيئة الله تعالى ، فان شاء أظهرها ، وإن شاء لم يظهرها ، فكان ذلك من باب الغيب ، فوجب على كل أحد أن ينتظر أنه هل يفعله الله أم لا ؟ ولكن سواء فعل أو لم يفعل ، فقد ثبتت النبوة ، وظهر صدقه فى ادعاء الرسالة ، ولا يختلف هذا المقصود بحصول تلك الزيادة وبعدمها ، فظهر أن هذا الوجه جواب ظاهر فى تقرير هذا المطلوب .

قوله تعالى ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر فى آياتنا قل الله أسرع مكراً إن رسلنا يكتبون ماتمكرون﴾

فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن القوم لما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم آية أخرى سوى القرآن ، وأجاب الجواب الذى قررناه وهو قوله (إنما الغيب لله) ذكر جوابا آخر وهو المذكور فى هذه الآية ، وتقريره من وجهين :

﴿الوجه الأول﴾ أنه تعالى بين فى هذه الآية أن عادة هؤلاء الأقوام المكر واللجاج والعناد

وعدم الانصاف ، وإذا كانوا كذلك فبتقدير أن يعطوا ماسألوه من إنزال معجزات أخرى ، فانهم لايؤمنون بل يبقون على كفرهم وجهلهم ، فنفتقر ههنا الى بيان أمرين : الى بيان أن عادة هؤلاء الأقوام المكر واللجاج والعناد . ثم الى بيان أنه متى كان الأمر كذلك لم يكن فى إظهار سائر المعجزات فائدة .

﴿أما المقام الأول﴾ فتقريره أنه روى أن الله تعالى سلط القحط على أهل مكة سبع سنين ثم رحمهم ، وأنزل الأمطار النافعة على أراضيهم ، ثم إنهم أضافوا تلك المنافع الجليلة الى الأصنام وإلى الانواء ، وعلى التقديرين فهو مقابلة للنعمة بالكفران . فقوله (وإذا أذقنا الناس رحمة) المراد منه تلك الأمطار النافعة . وقوله (من بعد ضراء مستهم) المراد منه ذلك القحط الشديد . وقوله (إذا لهم مكر فى آياتنا) المراد منه إضافتهم تلك المنافع الجليلة الى الأنواء والكواكب أو إلى الأصنام .

واعلم أنه تعالى ذكر هذا المعنى بعينه فيما تقدم من هذه السورة ، وهو قوله تعالى (وإذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه) إلا أنه تعالى زاد فى هذه الآية التى نحن فى تفسيرها دقيقة أخرى ماذكرها فى تلك الآية . وتلك الدقيقة هى أنهم يمكرون عند وجدان الرحمة ، ويطلبون الغوائل ، وفى الآية المتقدمة ما كانت هذه الدقيقة مذكورة . فثبت بما ذكرنا أن عادة هؤلاء الأقوام اللجاج والعناد والمكر وطلب الغوائل ،

﴿وأما المقام الثانى﴾ وهو بيان أنه متى كان الأمر كذلك فلا فائدة فى إظهار سائر الآيات ، لأنه تعالى لو أظهر لهم جميع ماطلبوه من المعجزات الظاهرة فانهم لا يقبلونها ، لأنه ليس غرضهم من هذه الاقتراحات التشدد فى طلب الدين ، وإنما غرضهم الدفع والمنع والمبالغة فى صون مناصبهم الدنيوية . والامتناع من المتابعة للغير . والدليل عليه أنه تعالى لما شدد الأمر عليهم وسلط البلاء عليهم ، ثم أزالها عنهم وأبدل تلك البليات بالخيرات ، فهم مع ذلك استمروا على التكذيب والجحود ، فدل ذلك على أنه تعالى لو أنزل عليهم الآيات التى طلبوها لم يلتفتوا إليها . فظهر بما ذكرنا أن هذا الكلام جواب قاطع عن السؤال المتقدم .

﴿الوجه الثانى﴾ فى تقرير هذا الجواب : أن أهل مكة قد حصل لهم أسباب الرفاهية وطيب العيش . ومن كان كذلك تمرد وتكبر كما قال تعالى (إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى) وقرر تعالى هذا المعنى بالمثال المذكور . فاقدامهم على طلب الآيات الزائدة والاقتراحات الفاسدة . إنما كان لأجل ماهم فيه من النعم الكثيرة والخيرات المتوالية . وقوله (قل الله أسرع مكرا) كالتنبيه على أنه تعالى يزيل عنهم تلك النعم . ويجعلهم منقادين للرسول مطيعين له ، تاركين لهذه الاعتراضات الفاسدة . والله أعلم .

هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ «٢٢» فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا

﴿المسألة الثانية﴾ قوله تعالى (وإذا أذقنا الناس رحمة) كلام ورد على سبيل المبالغة ، والمراد منه إيصال الرحمة اليهم .

واعلم أن رحمة الله تعالى لاتذاق بالفم ، وإنما تذاق بالعقل ، وذلك يدل على أن القول بوجود السعادات الروحانية حق .

﴿المسألة الثالثة﴾ قال الزجاج (إذا) فى قوله (وإذا أذقنا الناس رحمة) للشرط و (إذا) فى قوله (إذا لهم مكر) جواب الشرط وهو كقوله (وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذاهم يقنطون) والمعنى : إذا أذقنا الناس رحمة مكروا وإن تصبهم سيئة قنطوا . واعلم أن (إذا) فى قوله (إذا لهم مكر) تفيد المفاجأة ، معناه أنهم فى الحال أقدموا على المكر وسارعوا اليه .

﴿المسألة الرابعة﴾ سمى تكذيبهم بآيات الله مكرا ، لأن المكر عبارة عن صرف الشىء عن وجهه الظاهر بطريق الحيلة ، وهؤلاء يحتالون لدفع آيات الله بكل مايقدرون عليه من إلقاء شبهة أو تخليط فى مناظرة أو غير ذلك من الأمور الفاسدة . قال مقاتل : المراد من هذا المكر هو أن هؤلاء لايقولون هذا رزق الله ، بل يقولون سقينا بنوء كذا .

أما قوله تعالى ﴿قل الله أسرع مكراً إن رسلنا يكتبون ماتمكرون﴾ فالمعنى أن هؤلاء الكفار لما قابلوا نعمة الله بالمكر ، فالله سبحانه وتعالى قابل مكرهم بمكر أشد من ذلك ، وهو من وجهين : الأول : ما أعد لهم يوم القيامة من العذاب الشديد ، وفى الدنيا من الفضيحة والخزى والنكال . والثانى : أن رسل الله يكتبون مكرهم ويحفظونه ، وتعرض عليهم مافى بواطنهم الخبيثة يوم القيامة . ويكون ذلك سببا للفضيحة التامة والخزى والنكال نعوذ بالله تعالى منه .

قوله تعالى ﴿هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين

النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ «٢٣»

له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون﴾ فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى لما قال (وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر فى آياتنا) كان هذا الكلام كلاما كليا لا ينكشف معناه تمام الانكشاف . إلا بذكر مثال كامل ، فذكر الله تعالى لنقل الانسان من الضر الشديد إلى الرحمة مثالا ، ولمكر الانسان مثالا ، حتى تكون هذه الآية كالمفسرة للآية التى قبلها . وذلك لأن المعنى الكلى لا يصل إلى أفهام السامعين إلا بذكر مثال جلى واضح يكشف عن حقيقة ذلك المعنى الكلى .

واعلم أن الانسان إذا ركب السفينة ووجد الريح الطيبة الموافقة للمقصود . حصل له الفرح التام والمسرة القوية ، ثم قد تظهر علامات الهلاك دفعة واحدة . فأولها : أن تجيئهم الرياح العاصفة الشديدة . وثانيها : أن تأتيهم الأمواج العظيمة من كل جانب . وثالثها : أن يغلب على ظنونهم أن الهلاك واقع ، وأن النجاة ليست متوقعة . ولا شك أن الانتقال من تلك الأحوال الطيبة الموافقة إلى هذه الأحوال القاهرة الشديدة يوجب الخوف العظيم ، والرعب الشديد . وأيضا مشاهدة هذه الأحوال والأهوال فى البحر مختصة بايجاب مزيد الرعب ، والخوف ثم إن الانسان فى هذه الحالة لا يطمع إلا فى فضل الله ورحمته . ويصير منقطع الطمع عن جميع الخلق ، ويصير بقلبه وروحه وجميع أجزائه متضرعاً إلى الله تعالى ، ثم إذا نجاه الله تعالى من هذه البلية العظيمة . ونقله من هذه المضرة القوية إلى الخلاص والنجاة ، فى الحال ينسى تلك النعمة ويرجع إلى ما ألفه واعتاده من العقائد الباطلة والأخلاق الذميمة ، فظهر أنه لا يمكن تقرير ذلك المعنى الكلى المذكور فى الآية المتقدمة بمثال أحسن وأكمل من المثال المذكور فى هذه الآية .

﴿المسألة الثانية﴾ يحكى أن واحداً قال لجعفر الصادق : اذكر لى دليلا على إثبات الصانع فقال : أخبرنى عن حرفتك : فقال : أنا رجل أتجر فى البحر ، فقال : صف لى كيفية حالك . فقال : ركبت البحر فانكسرت السفينة وبقيت على لوح واحد من ألواحها ، وجاءت الرياح العاصفة ، فقال

جعفر : هل وجدت فى قلبك تضرعا ودعاء . فقال نعم . فقال جعفر : فالهك هو الذى تضرعت اليه فى ذلك الوقت .

﴿المسألة الثالثة﴾ قرأ ابن عامر (ينشركم) من النشر الذى هو خلاف الطى كأنه أخذه من قوله تعالى (فانتشروا فى الأرض) والباقون قرؤا (يسيركم) من التسيير .

﴿المسألة الرابعة﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد يجب أن يكون خلقاً لله تعالى . قالوا : دلت هذه الآية على أن سير العباد من الله تعالى ، ودل قوله تعالى (قل سيروا فى الأرض) على أن سيرهم منهم ، وهذا يدل على أن سيرهم منهم ومن الله . فيكون كسبياً لهم وخلقاً لله . ونظيره قوله تعالى (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) وقال فى آية أخرى (إذ أخرجه الذين كفروا) وقال فى آية أخرى (فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا) ثم قال فى آية أخرى (وأنه هو أضحك وأبكى) وقال فى آية أخرى (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) قال الجبائى : أما كونه تعالى مسيراً لهم فى البحر على الحقيقة فالأمر كذلك . وأما سيرهم فى البر فانما أضيف الى الله تعالى على التوسع . فما كان منه طاعة فبأمره وتسهيله ، وما كان منه معصية فلأنه تعالى هو الذى أقدره عليه . وزاد القاضى فيه يجوز أن يضاف ذلك اليه تعالى من حيث أنه تعالى سخر لهم المركب فى البر ، وسخر لهم الأرض التى يتصرفون عليها بامساكه لها ، لأنه تعالى لو لم يفعل ذلك لتعذر عليهم السير . وقال القفال (هو الذى يسيركم فى البر والبحر) أى هو الله الهادى لكم إلى السير فى البر والبحر طلبا للمعاش لكم ، وهو المسير لكم ، لأجل أنه هيأ لكم أسباب ذلك السير . هذا جملة ماقيل فى الجواب عنه . ونحن نقول : لاشك أن المسير فى البحر هو الله تعالى ، لأن الله تعالى هو المحدث لتلك الحركات فى أجزاء السفينة ، ولا شك أن إضافة الفعل الى الفاعل هو الحقيقة . فنقول : وجب أيضا أن يكون مسيراً لهم فى البر بهذا التفسير ، إذ لو كان مسيراً لهم فى البر بمعنى إعطاء الآلات والأدوات لكان مجازاً بهذا الوجه ، فيلزم كون اللفظ الواحد حقيقة ومجازاً دفعة واحدة ، وذلك باطل .

واعلم أن مذهب الجبائى أنه لامتناع فى كون اللفظ حقيقة ومجازاً بالنسبة الى المعنى الواحد . وأما أبو هاشم فانه يقول : إن ذلك ممتنع ، إلا أنه يقول : لايبعد أن يقال إنه تعالى تكلم به مرتين .

واعلم أن قول الجبائى : قد أبطلناه فى أصول الفقه ، وقول أبى هاشم أنه تعالى تكلم به مرتين أيضا بعيد ، لأن هذا قول لم يقل به أحد من الأمة ممن كانوا قبله ، فكان هذا على خلاف الاجماع فيكون باطلا .

واعلم أنه بقى فى هذه الآية سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ كيف جعل الكون فى الفلك غاية للتسيير فى البحر ، مع أن الكون فى الفلك متقدم لا محالة على التسيير فى البحر ؟

والجواب : لم يجعل الكون فى الفلك غاية للتسيير ، بل تقدير الكلام كأنه قيل هو الذى يسيركم حتى إذا وقع فى جملة تلك التسييرات الحصول فى الفلك كان كذا وكذا .

﴿السؤال الثانى﴾ ما جواب (إذا) فى قوله (حتى إذا كنتم فى الفلك)

الجواب : هو أن جوابها هو قوله (جاءتها ريح عاصف) ثم قال صاحب الكشاف : وأما قوله ﴿دعوا الله﴾ فهو بدل من ظنوا لأن دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك . وقال بعض الأفاضل لو حمل قوله (دعوا الله) على الاستئناف كان أوضح ، كأنه لما قيل (جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم) قال قائل فما صنعوا ؟ فقيل (دعوا الله)

﴿السؤال الثالث﴾ ما الفائدة فى صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة ؟

الجواب فيه وجوه : الأول : قال صاحب الكشاف : المقصود هو المبالغة كأنه تعالى يذكر حالهم لغيرهم لتعجيبهم منها ، ويستدعى منهم مزيد الانكار والتقبيح . الثانى : قال أبو على الجبائى : إن مخاطبته تعالى لعباده ، هى على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام ، فهى بمنزلة الخبر عن الغائب . وكل من أقام الغائب مقام المخاطب ، حسن منه أن يرده مرة أخرى الى الغائب . الثالث : وهو الذى خطر بالبال فى الحال ، أن الانتقال فى الكلام من لفظ الغيبة الى لفظ الحضور فانه يدل على مزيد التقرب والاكرام . وأما ضده وهو الانتقال من لفظ الحضور الى لفظ الغيبة ، يدل على المقت والتبعيد .

﴿أما الأول﴾ فكما فى سورة الفاتحة ، فان قوله (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم) كله مقام الغيبة ، ثم انتقل منها الى قوله (إياك نعبد وإياك نستعين) وهذا يدل على أن العبد كأنه انتقل من مقام الغيبة إلى مقام الحضور ، وهو يوجب علو الدرجة ، وكمال القرب من خدمة رب العالمين .

﴿وأما الثانى﴾ فكما فى هذه الآية ، لأن قوله (حتى إذا كنتم فى الفلك) خطاب الحضور ، وقوله (وجرين بهم) مقام الغيبة ، فههنا انتقل من مقام الحضور الى مقام الغيبة ، وذلك يدل على المقت والتبعيد والطرد ، وهو اللائق بحال هؤلاء ، لأن من كان صفته أنه يقابل إحسان الله تعالى اليه بالكفران ، كان اللائق به ما ذكرناه ،

﴿السؤال الرابع﴾ كم القيود المعتبرة فى الشرط والقيود المعتبرة فى الجزاء ؟

الجواب : أما القيود المعتبرة فى الشرط فثلاثة : أولها : الكون فى الفلك ، وثانيها : جرى الفلك

بالريح الطيبة . وثالثها : فرحهم بها . وأما القيود المعتبرة فى الجزاء فثلاثة أيضاً : أولها : قوله (جاءتها ريح عاصف) وفيه سؤالان :

﴿السؤال الأول﴾ الضمير فى قوله (جاءتها) عائد الى الفلك وهو ضمير الواحد ، والضمير فى قوله (وجرين بهم) عائد الى الفلك وهو الضمير الجمع . فما السبب فيه ؟

الجواب عنه من وجهين : الأول : أنا لانسلم أن الضمير فى قوله (جاءتها) عائد إلى الفلك ، بل نقول إنه عائد إلى الريح الطيبة المذكورة فى قوله (وجرين بهم بريح طيبة) الثانى : لو سلمنا ماذكرتم إلا أن لفظ (الفلك) يصلح للواحد والجمع ، فحسن الضميران .

﴿السؤال الثانى﴾ ماالعاطف . الجواب : قال الفراء والزجاج : يقال ريح عاصف وعاصفة ، وقد عصفت عصوفا وأعصفت ، فهى معصف ومعصفة . قال الفراء : والألف لغة بنى أسد ، ومعنى عصفت الريح اشتدت ، وأصل العصف السرعة ، يقال : ناقة عاصف وعصوف سريعة ، وإنما قيل (ريح عاصف) لأنه يراد ذات عصوف كما قيل : لابن وتامر أو لأجل أن لفظ الريح مذكر .

﴿أما القيد الثانى﴾ فهو قوله (وجاءهم الموج من كل مكان) والموج ماارتفع من الماء فوق البحر .

﴿أما القيد الثالث﴾ فهو قوله (وظنوا أنهم أحيط بهم) والمراد أنهم ظنوا القرب من الهلاك ، وأصله أن العدو إذا أحاط بقوم أو بلد ، فقد دنوا من الهلاك .

﴿السؤال الخامس﴾ ما المراد من الاخلاص فى قوله (دعوا الله مخلصين له الدين)

والجواب : قال ابن عباس : يريد تركوا الشرك ، ولم يشركوا به من آلهتهم شيئا ، وأقروا لله بالربوبية والوحدانية . قال الحسن (دعوا الله مخلصين) الاخلاص الايمان ، لكن لأجل العلم بأنه لاينجيهم من ذلك إلا الله تعالى ، فيكون جاريا مجرى الايمان الاضطرارى . وقال ابن زيد : هؤلاء المشركون يدعون مع الله مايدعون ، فاذا جاء الضر والبلاء لم يدعوا إلا الله . وعن أبى عبيدة أن المراد من ذلك الدعاء قولهم أهيا شراهيا تفسيره ياحى ياقيوم .

﴿السؤال السادس﴾ ما الشىء المشار إليه بقوله هذه فى قوله (لئن أنجيتنا من هذه)

والجواب المراد لئن أنجيتنا من هذه الريح العاصفة ، وقيل المراد لئن أنجيتنا من هذه الأمواج أو من هذه الشدائد . وهذه الألفاظ وإن لم يسبق ذكرها ، إلا أنه سبق ذكر ما يدل عليها .

﴿السؤال السابع﴾ هل يحتاج فى هذه الآية إلى إضمار ؟

الجواب : نعم ، والتقدير : دعوا الله مخلصين له الدين مريدين أن يقولوا لئن أنجيتنا ، ويمكن

أن يقال : لا حاجة إلا الاضمار، لأن قوله (دعوا الله) يصير مفسراً بقوله (لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين) فهم فى الحقيقة ما قالوا إلا هذا القول .

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذا التضرع الكامل بين أنهم بعد الخلاص من تلك البلية والمحنة أقدموا فى الحال على البغى فى الأرض بغير الحق . قال ابن عباس : يريد به الفساد والتكذيب والجراءة على الله تعالى ، ومعنى البغى قصد الاستعلاء بالظلم . قال الزجاج : البغى الترقى فى الفساد قال الأصمعى : يقال بغى الجرح يبغى بغيا إذا ترقى إلى الفساد ، وبغت المرأة إذا فجرت . قال الواحدى : أصل هذا اللفظ من الطلب .

فان قيل : فما معنى قوله (بغير الحق) والبغى لا يكون بحق ؟

قلنا : البغى قد يكون بالحق ، وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم وإحراق زروعهم وقطع أشجارهم ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببنى قريظة . ثم إنه تعالى بين أن هذا البغى أمر باطل يجب على العاقل أن يحترز منه فقال (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ الأكثرون (متاع) برفع العين ، وقرأ حفص عن عاصم (متاع) بنصب العين ، أما الرفع ففيه وجهان : الأول : أن يكون قوله (بغيكم على أنفسكم) مبتدأ ، وقوله (متاع الحياة الدنيا) خبرا . والمراد من قوله (بغيكم على أنفسكم) بغى بعضكم على بعض كما فى قوله (فاقتلوا أنفسكم) ومعنى الكلام أن بغى بعضكم على بعض منفعة الحياة الدنيا ولا بقاء لها . والثانى : أن قوله (بغيكم) مبتدا ، وقوله (على أنفسكم) خبره . وقوله (متاع الحياة الدنيا) خبر مبتدا محذوف ، والتقدير : هو متاع الحياة الدنيا . وأما القراءة بالنصب فوجهها أن نقول : إن قوله (بغيكم) مبتدا ، وقوله (على أنفسكم) خبره ، وقوله (متاع الحياة الدنيا) فى موضع المصدر المؤكد . والتقدير : تتمتعون متاع الحياة الدنيا .

﴿المسألة الثانية﴾ البغى من منكرات المعاصى . قال عليه الصلاة والسلام «أسرع الخير ثوابا صلة الرحم ، وأعجل الشر عقابا البغى واليمين الفاجرة» وروى «ثنتان يعجلهما الله فى الدنيا البغى وعقوق الوالدين» وعن ابن عباس رضى الله عنهما : لو بغى جبل على جبل لاندك الباغى . وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين فى أخيه :

يا صاحب البغى إن البغى مصرعة ... فاربع فخير فعال المرء أعدله
فلو بغى جبل يوما على جبل ... لاندك منه أعاليه وأسفله

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ «٢٤»

وعن محمد بن كعب القرظى : ثلاث من كن فيه كن عليه ، البغى والنكث والمكر . قال تعالى (إنما بغيكم على أنفسكم)

﴿المسألة الثالثة﴾ حاصل الكلام فى قوله تعالى (ياأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم) أى لا يتهيأ لكم بغى بعضكم على بعض إلا أياما قليلة ، وهى مدة حياتكم مع قصرها وسرعة انقضائها (ثم الينا) أى ما وعدنا من المجازاة على أعمالكم (مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) فى الدنيا ، والانباء هو الاخبار ، وهو فى هذا الموضع وعيد بالعذاب كقول الرجل لغيره سأخبرك بما فعلت .

قوله تعالى ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى لما قال (ياأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا) أتبعه بهذا المثل العجيب الذى ضربه لمن يبغى فى الأرض ويغتر بالدنيا ، ويشتد تمسكه بها ، ويقوى إعراضه عن أمر الآخرة والتأهب لها . فقال (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض) وهذا الكلام يحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون المعنى فاختلط به نبات الأرض بسبب هذا الماء النازل من السماء ، وذلك لأنه إذا نزل المطر ينبت بسببه أنواع كثيرة من النبات ، وتكون تلك الأنواع مختلطة ، وهذا فيما لم يكن نابتا قبل نزول المطر . والثانى : أن يكون المراد منه الذى نبت ، ولكنه لم يترعرع . ولم يهتز . وإنما هو فى أول بروزه من الأرض ومبدأ حدوثه ، فاذا نزل المطر عليه ، واختلط بذلك المطر ، أى اتصل كل واحد منهما بالآخر اهتز ذلك النبات وربا وحسن ، وكمل واكتسى كمال الرونق والزينة ، وهو المراد من قوله تعالى (حتى إذا أخذت الأرض

زخرفها وازينت) وذلك لأن التزخرف عبارة عن كمال حسن الشيء . فجعلت الأرض آخذة زخرفها على التشبيه بالعروس إذا لبست الثياب الفاخرة من كل لون ، وتزينت بجميع الألوان الممكنة فى الزينة من حمرة وخضرة وصفرة وذهبية وبياض ، ولا شك أنه متى صار البستان على هذا الوجه ، وبهذه الصفة . فانه يفرح به المالك ويعظم رجاؤه فى الانتفاع به . ويصير قلبه مستغرقا فيه ، ثم إنه تعالى يرسل على هذا البستان العجيب آفة عظيمة دفعة واحدة فى ليل أو نهار من برد ، أو ريح أو سيل ، فصارت تلك الأشجار والزروع باطلة هالكة كأنها ماحصلت البتة . فلا شك أنه تعظم حسرة مالك ذلك البستان ويشتد حزنه ، فكذلك من وضع قلبه على لذات الدنيا وطيباتها ، فاذا فاته تلك الأشياء يعظم حزنه وتلهفه عليها .

واعلم أن تشبيه الحياة الدنيا بهذا النبات يحتمل وجوها لخصها القاضى رحمه الله تعالى .

﴿الوجه الاول﴾ أن عاقبة هذه الحياة الدنيا التى ينفقها المرء فى باب الدنيا كعاقبة هذا النبات الذى حين عظم الرجاء فى الانتفاع به وقع اليأس منه ، لأن الغالب أن المتمسك بالدنيا إذا وضع عليها قلبه وعظمت رغبته فيها يأتيه الموت . وهو معنى قوله تعالى (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون) خاسرون الدنيا ، وقد أنفقوا أعمارهم فيها . وخاسرون من الآخرة ، مع أنهم متوجهون اليها .

﴿والوجه الثانى﴾ فى التشبيه أنه تعالى بين أنه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبة تحمد ، فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها لا يحصل له عاقبة تحمد .

﴿والوجه الثالث﴾ أن يكون وجه التشبيه مثل قوله سبحانه (وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) فلما صار سعى هذا الزراع باطلا بسبب حدوث الأسباب المهلكة . فكذلك سعى المغتر بالدنيا .

﴿والوجه الرابع﴾ أن مالك ذلك البستان لما عمره باتعاب النفس وكد الروح ، وعلق قلبه على الانتفاع به ، فاذا حدث ذلك السبب المهلك ، صار العناء الشديد الذى تحمله فى الماضى سبباً لحصول الشقاء الشديد له فى المستقبل ، وهو مايحصل له فى قلبه من الحسرات . فكذلك حال من وضع قلبه على الدنيا وأتعب نفسه فى تحصيلها ، فاذامات ، وفاته كل ما نال ، صار العناء الذى تحمله فى تحصيل أسباب الدنيا ، سبباً لحصول الشقاء العظيم له فى الآخرة .

﴿والوجه الخامس﴾ لعله تعالى إنما ضرب هذا المثل لمن لا يؤمن بالمعاد ، وذلك لأنا نرى الزرع الذى قد انتهى إلى الغاية القصوى فى التربية ، قد بلغ الغاية فى الزينة والحسن . ثم يعرض

وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ «٢٥»

للأرض المتزينة به آفة ، فيزول ذلك الحسن بالكلية ، ثم تصير تلك الأرض موصوفة بتلك الزينة مرة أخرى . فذكر هذا المثال ليدل على أن من قدر على ذلك ، كان قادرا على إعادة الاحياء فى الآخرة ليجازيهم على أعمالهم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

﴿المسألة الثانيـة﴾ المثل : قول يشبه به حال الثانى بالأول ، ويجوز أن يكون المراد من المثل الصفة . والتقدير: إنما صفة الحياة الدنيا. وأما قوله (وازينت) فقال الزجاج: يعنى تزينت فأدغمت التاء فى الزاى وسكنت الزاى فاجتلب لها ألف الوصل . وهذا مثل ماذكرنا فى قوله (اداراتم . اداركوا) وأما قوله ﴿وظن أهلها أنهم قادرون عليها﴾ فقال ابن عباس رضى الله عنهما : يريد أن أهل تلك الأرض قادرون على حصادها وتحصيل ثمراتها . والتحقيق أن الضمير وإن كان فى الظاهر عائدا إلى الأرض ، إلا أنه عائد إلى النبات الموجود فى الأرض . وأما قوله (أتاها أمرنا) فقال ابن عباس رضى الله عنهما : يريد عذابنا . والتحقيق أن المعنى أتاها أمرنا بهلاكها . وقوله (فجعلناها حصيداً) قال ابن عباس : لاشىء فيها ، وقال الضحاك : يعنى المحصود . وعلى هذا ، المراد بالحصيد الأرض التى حصد نبتها ، ويجوز أن يكون المراد بالحصيد النبات ، قال أبو عبيدة : الحصيد المستأصل ، وقال غيره : الحصيد المقطوع والمقلوع . وقوله (كأن لم تغن بالأمس) قال الليث : يقال للشىء إذا فنى : كأن لم يغن بالأمس . أى كأن لم يكن من قولهم غنى القوم فى دارهم ، إذا أقاموا بها ، وعلى هذا الوجه يكون هذا صفة للنبات . وقال الزجاج : معناه : كأن لم تعمر بالأمس ، وعلى هـذا الوجه فالمراد هو الأرض ، وقوله (كذلك نفصل الآيات) أى نذكر واحدة منها بعد الأخرى ، على الترتيب . ليكون توالیها وكثرتها سبباً لقوة اليقين ، وموجباً لزوال الشك والشبهة :

قوله تعالى ﴿والله يدعوا إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ فى كيفية النظم . اعلم أنه تعالى لما نفر الغافلين عن الميل إلى الدنيا بالمثل السابق ، رغبهم فى الآخرة بهذه الآية . ووجه الترغيب فى الآخرة ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « مثلى ومثلكم شبه سيد بنى داراً ووضع مائدة وأرسل داعياً ، فمن أجاب الداعى دخل الدار وأكل من المائدة ورضى عنه السيد . ومن لم يجب لم يدخل ولم يأكل ولم يرض عنه السيد فالله السيد ، والدار دار الاسلام ، والمائدة الجنة ، والداعى محمد عليه السلام . وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «مامن يوم تطلع فيه الشمس إلا وبجنبيها ملكان يناديان بحيث يسمع كل الخلائق

إلا الثقلين . أيها الناس : هلموا إلى ربكم والله يدعوا إلى دار السلام »

﴿المسألة الثانية﴾ لاشبهة أن المراد من دار السلام الجنة ، إلا أنهم اختلفوا فى السبب الذى لأجله حصل هذا الاسم على وجوه : الأول : أن السلام هو الله تعالى ، والجنة داره . ويجب علينا ههنا بيان فائدة تسمية الله تعالى بالسلام ، وفيه وجوه : أحدها : أنه لما كان واجب الوجود لذاته فقد سلم من الفناء والتغير ، وسلم من احتياجه فى ذاته وصفاته الى الافتقار الى الغير ، وهذه الصفة ليست الا له سبحانه كما قال (والله الغنى وأنتم الفقراء) وقال (يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله) وثانيها : أنه تعالى يوصف بالسلام بمعنى أن الخلق سلموا من ظلمه ، قال (وماربك بظلام للعبيد) ولأن كل ماسواه فهو ملكه وملكه ، وتصرف الفاعل فى ملك نفسه لايكون ظلماً . ولأن الظلم إنما يصدر إما عن العاجز أو الجاهل أو المحتاج . ولما كان الكل محالا على الله تعالى ، كان الظلم محالا فى حقه . وثالثها : قال المبرد : إنه تعالى يوصف بالسلام بمعنى أنه ذو السلام ، أى الذى لا يقدر على السلام إلا هو . والسلام عبارة عن تخليص العاجزين عن المكاره والآفات . فالحق تعالى هو الساتر لعيوب المعيوبين ، وهو المجيب لدعوة المضطرين . وهو المنتصف للمظلومين من الظالمين . قال المبرد : وعلى هذا التقدير : السلام مصدر سلم .

﴿القول الثانى﴾ السلام جمع سلامة ، ومعنى دار السلام : الدار التى من دخلها سلم من الآفات . فالسلام ههنا بمعنى السلامة ، كالرضاع بمعنى الرضاعة . فان الانسان هناك سلم من كل الآفات ، كالموت والمرض والألم والمصائب ونزغات الشيطان والكفر والبدعة والكد والتعب .

﴿والقول الثالث﴾ أنه سميت الجنة بدار السلام لأنه تعالى يسلم على أهلها قال تعالى (سلام قولا من رب رحيم) والملائكة يسلمون عليهم أيضاً . قال تعالى (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم) وهم أيضاً يحيى بعضهم بعضا بالسلام قال تعالى (تحيتهم فيها سلام) وأيضاً فسلامهم يصل إلى السعداء من أهل الدنيا ، قال تعالى (وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين)

﴿المسألة الثالثة﴾ اعلم أن كمال جود الله تعالى وكمال قدرته وكمال رحمته بعباده معلوم ، فدعوته عبيده إلى دار السلام ، تدل على أن دار السلام قد حصل فيها مالاعين رأت ولاأذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . لأن العظيم إذا استعظم شيئاً ورغب فيه وبالغ فى ذلك الترغيب ، دل ذلك على كمال حال ذلك الشىء . لاسيما وقد ملأ الله هذا الكتاب المقدس من وصف الجنة مثل قوله (فروح وريحان وجنة نعيم) ونحن نذكر ههنا كلاماً كلياً فى تقرير هذا المطلوب ، فنقول : الانسان إنما يسعى

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ «٢٦»

فى يومه لغده . ولكل إنسان غدان ، غد فى الدنيا وغد فى الآخرة . فنقول : غد الآخرة خير من غد الدنيا من وجوه أربعة : أولها : أن الانسان قد لا يدرك غد الدنيا وبالضرورة يدرك غد الآخرة . وثانيها : أن بتقدير أن يدرك غد الدنيا فلعله لا يمكنه أن ينتفع بما جمعه ، إما لأنه يضيع منه ذلك المال أو لأنه يحصل فى بدنه مرض يمنعه من الانتفاع به . أما غد الآخرة فكلما اكتسبه الانسان لأجل هذا اليوم ، فانه لابد وأن ينتفع به . وثالثها : أن بتقدير أن يجد غد الدنيا ويقدر على أن ينتفع بماله ، إلا أن تلك المنافع مخلوطة بالمضار والمتاعب ، لأن سعادات الدنيا غير خالصة عن الآفات ، بل هى ممزوجة بالبليات . والاستقراء يدل عليه . ولذلك قال عليه السلام «من طلب مالم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق» فقيل يارسول الله وما هو ؟ قال «سرور يوم بتمامه» وأما منافع عز الآخرة فهى خالصة عن الغموم والهموم والأحزان سالمة عن كل المنفرات . ورابعها : أن بتقدير أن يصل الانسان إلى عز الدنيا وينتفع بسببه ، وكان ذلك الانتفاع خاليا عن خلط الآفات ، إلا أنه لابد وأن يكون منقطعا . ومنافع الآخرة دائمة مبرأة عن الانقطاع ، فثبت أن سعادات الدنيا مشوبة بهذه العيوب الأربعة ، وأن سعادات الآخرة سالمة عنها . فلهذا السبب كانت الجنة دار السلام .

﴿المسألة الرابعة﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الكفر والايمان بقضاء الله تعالى قالوا : إنه تعالى بين فى هذه الآية أنه دعا جميع الخلق إلى دار السلام ، ثم بين أنه ماهدى إلا بعضهم فهذه الهداية الخاصة يجب أن تكون مغايرة لتلك الدعوة العامة ، ولا شك أيضا أن الأقدار والتمكين وإرسال الرسل وإنزال الكتب أمور عامة ، فوجب أن تكون هذه الهداية الخاصة مغايرة لكل هذه الأشياء . وماذاك إلا ماذكرناه من أنه تعالى خصه بالعلم والمعرفة دون غيره . واعلم أن هذه الآية مشكلة على المعتزلة وماقدروا على إيراد الاسئلة الكثيرة ، وحاصل ماذكره القاضى فى وجهين : الأول : أن يكون المراد ويهدى الله من يشاء الى إجابة تلك الدعوة ، بمعنى أن من أجاب الدعاء وأطاع واتقى فان الله يهديه اليها . والثانى : أن المراد من هذه الآية الالطاف . وأجاب أصحابنا عن هذين الوجهين بحرف واحد . وهو أن عندهم أنه يجب على الله فعل هذه الهداية ، وماكان واجبا لايكون معلقا بالمشيئة . وهذا معلق بالمشيئة ، فامتنع حمله على ماذكروه .

قوله تعالى ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب

الجنة هم فيها خالدون﴾

اعلم أنه تعالى لما دعا عباده الى دار السلام . ذكر السعادات التى تحصل لهم فيها فقال (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) فيحتاج الى تفسير هذه الألفاظ الثلاثة .

﴿أما اللفظ الأول﴾ وهو قوله (للذين أحسنوا) فقال ابن عباس : معناه : للذين ذكروا كلمة لاإله إلا الله . وقال الأصم : معناه : للذين أحسنوا فى كل ماتعبدوا به ، ومعناه : أنهم أتوا بالمأمور به كما ينبغى ، واجتنبوا المنهيات من الوجه الذى صارت منهيا عنها .

﴿والقول الثانى﴾ أقرب الى الصواب لأن الدرجات العالية لاتحصل إلا لأهل الطاعات .

﴿وأما اللفظ الثانى﴾ وهو (الحسنى) فقال ابن الأنبارى : الحسنى فى اللغة تأنيث الأحسن ، والعرب توقع هذه اللفظة على الحالة المحبوبة والخصلة المرغوب فيها ، ولذلك لم تؤكد ، ولم تنعت بشىء ، وقال صاحب الكشاف : المراد : المثوبة الحسنى . ونظيرهذه الآية قوله (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان)

﴿وأما اللفظ الثالث﴾ وهو الزيادة . فنقول : هذه الكلمة مبهمة ، ولأجل هذا اختلف الناس فى تفسيرها ، وحاصل كلامهم يرجع الى قولين :

﴿القول الأول﴾ أن المراد منها رؤية الله سبحانه وتعالى . قالوا : والدليل عليه النقل والعقل . أما النقل : فالحديث الصحيح الوارد فيه ، وهو أن الحسنى هى الجنة . والزيادة هى النظر الى الله سبحانه وتعالى .

وأما العقل : فهو أن الحسنى لفظة مفردة دخل عليها حرف التعريف . فانصرف الى المعهود السابق . وهو دار السلام . والمعروف من المسلمين والمتقرر بين أهل الاسلام من هذه اللفظة هو الجنة ، ومافيها من المنافع والتعظيم . واذا ثبت هذا ، وجب أن يكون المراد من الزيادة أمرا مغايرا لكل مافى الجنة من المنافع والتعظيم . وإلا لزم التكرار . وكل من قال بذلك قال : إنما هى رؤية الله تعالى . فدل ذلك على أن المراد من هذه الزيادة : الرؤية . ومما يؤكد هذا وجهان : الأول : أنه تعالى قال (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) فأثبت لأهل الجنة أمرين : أحدهما : نضرة الوجوه والثانى : النظر إلى الله تعالى ، وآيات القرآن يفسر بعضها بعضاً فوجب حمل الحسنى ههنا على نضرة الوجوه ، وحمل الزيادة على رؤية الله تعالى . الثانى : أنه تعالى قال لرسوله صلى الله عليه وسلم (وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيراً) أثبت له النعيم ، ورؤية الملك الكبير ، فوجب ههنا حمل الحسنى والزيادة على هذين الأمرين .

إلا بالمثل ، والفرق هو أن الزيادة على الثواب تكون تفضلا وذلك حسن ، ويكون فيه تأكيد للترغيب فى الطاعة ، وأما الزيادة على قدر الاستحقاق فى عمل السيئات ، فهو ظلم ، ولو فعله ابطل الوعد والوعيد والترهيب والتحذير ، لأن الثقة بذلك إنما تحصل إذ ثبتت حكمته . ولو فعل الظلم لبطلت حكمته . تعالى الله عن ذلك . هكذا قرره القاضى تفريعاً على مذهبه . وثانيها : قوله (وترهقهم ذلة) وذلك كناية عن الهوان والتحقير ، واعلم أن الكمال محبوب لذاته ، والنقصان مكروه لذاته ، فالانسان الناقص إذا مات بقيت روحه ناقصة خالية عن الكمالات ، فيكون شعوره بكونه ناقصاً ، سبباً لحصول الذلة والمهانة والخزى والنكال . وثالثها : قوله (مالهم من الله عاصم) واعلم أنه لاعاصم من الله لافى الدنيا ولا فى الآخرة ، فان قضاءه محيط بجميع الكائنات ، وقدره نافذ فى كل المحدثات إلا أن الغالب على الطباع العاصية ، أنهم فى الحياة العاجلة مشتغلون بأعمالهم ومراداتهم . أما بعد الموت فكل أحد يقر بأنه ليس له من الله من عاصم . ورابعها : قوله (كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلما) والمراد من هذا الكلام إثبات مانفاه عن السعداء حيث قال (ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة)

واعلم أن حكماء الاسلام قالوا : المراد من هذا السواد المذكور ههنا سواد الجهل وظلمة الضلالة . فان العلم طبعه طبع النور . والجهل طبعه طبع الظلمة ، فقوله (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة) المراد منه نور العلم ، وروحه وبشره وبشارته ، وقوله (ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة) المراد منه ظلمة الجهل وكدورة الضلالة .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (والذين كسبوا السيئات) فيه وجهان : أحدهما : أن يكون معطوفا على قوله (للذين أحسنوا) كأنه قيل : للذين أحسنوا الحسنى وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها . والثانى : أن يكون التقدير وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها . على معنى أن جزاءهم أن يجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها لايزاد عليها ، وهذا يدل على أن حكم الله فى حق المحسنين ليس إلا بالفضل ، وفى حق المسيئين ليس إلا بالعدل .

﴿المسألة الثالثة﴾ قال بعضهم : المراد بقوله (والذين كسبوا السيئات) الكفار واحتجوا عليه بأن سواد الوجه من علامات الكفر ، بدليل قوله تعالى (فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم) وكذلك قوله (وجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة) ولأنه تعالى قال بعد هذه الآية (ويوم نحشرهم جميعا) والضمير فى قوله (هم) عائد إلى هؤلاء ، ثم إنه تعالى وصفهم بالشرك ، وذلك يدل على أن هؤلاء هم الكفار ، ولأن العلم نور وسلطان العلوم والمعارف

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ «٢٨» فَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنَا

هو معرفة الله تعالى ، فكل قلب حصل فيه معرفة الله تعالى لم يحصل فيه الظلمة أصلا . وكان الشبلى رحمة الله تعالى عليه يتمثل بهذا ويقول :

كل بيت أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتى الناس بالحجج

وقال القاضى : إن قوله (والذين كسبوا السيئات) عام يتناول الكافر والفاسق . إلا أنا نقول: الصيغة وان كانت عامة إلا أن الدلائل التى ذكرناها تخصصه :

﴿المسألة الرابعة﴾ قال الفراء : فى قوله (جزاء سيئة بمثلها) وجهان : الأول : أن يكون التقدير : فلهم جزاء السيئة بمثلها ، كما قال (ففدية من صيام) أى فعليه . والثانى : أن يعلق الجزاء بالباء فى قوله (بمثلها) قال ابن الأنبارى : وعلى هذا التقدير الثانى فلا بد من عائد الموصول . والتقدير : فجزاء سيئة منهم بمثلها .

وأما قوله ﴿وترهقهم ذلة﴾ فهو معطوف علي يجازى ، لأن قوله (جزاء سيئة بمثلها) تقديره : يجازى سيئة بمثلها ، وقرئ (يرهقهم ذلة) بالياء .

أما قوله تعالى ﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما﴾ ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ (أغشيت) أى ألبست (وجوههم قطعا) قرأ ابن كثير والكسائى (قطعا) بسكون الطاء ، وقرأ الباقون بفتح الطاء ، والقطع بسكون الطاء القطعة . وهى البعض ، ومنه قوله تعالى (فأسر بأهلك بقطع من الليل) أى قطعة . وأما قطع بفتح الطاء ، فهو جمع قطعة ، ومعنى الآية : وصف وجوههم بالسواد ، حتى كأنها ألبست سوادا من الليل ، كقوله تعالى (وترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) وكقوله (فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم) وكقوله (يعرف المجرمون بسيماهم) وتلك العلامة هى سواد الوجه وزرقة العين .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (مظلما) قال الفراء والزجاج : هو نعت لقوله (قطعا) وقال أبو على الفارسى : ويجوز أن يجعل حالا ، كأنه قيل : أغشيت وجوههم قطعا من الليل فى حال ظلمته .

قوله تعالى ﴿ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال

وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ «٢٩»

شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم ان هذا نوع آخر من شرح فضائح أولئك الكفار ، فالضمير فى قوله (ويوم نحشرهم) عائد إلى المذكور السابق ، وذلك هو قوله (والذين كسبوا السيئات) فلما وصف الله هؤلاء الذين يحشرهم بالشرك والكفر ، دل على أن المراد من قوله (والذين كسبوا السيئات) الكفار ، وحاصل الكلام : انه تعالى يحشر العابد والمعبود ، ثم إن المعبود يتبرأ من العابد ، ويتبين له أنه مافعل ذلك بعلمه وارادته ، والمقصود منه أن القوم كانوا يقولون (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) فبين الله تعالى أنهم لايشفعون لهؤلاء الكفار ، بل يتبرؤن منهم . وذلك يدل على نهاية الخزى والنكال فى حق هؤلاء الكفار ، ونظيره آيات منها قوله تعالى (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) ومنها قوله تعالى (ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن)

واعلم أن هذا الكلام يشير على سبيل الرمز إلى دقيقة عقلية ، وهى أن ماسوى الواحد الاحد الحق ممكن لذاته ، والممكن لذاته محتاج بحسب ماهيته ، والشىء الواحد يمتنع أن يكون قابلا وفاعلا معا ، فماسوى الواحد لأحد الحق لاتأثير له فى الايجاد والتكوين ، فالممكن المحدث لايليق به أن يكون معبودا لغيره ، بل المعبود الحق ليس إلا الموجد الحق . وذلك ليس إلا الموجود الحق الذى هو واجب الوجود لذاته ، فبراءة المعبود من العابدين ، يحتمل أن يكون المراد منه ماذكرناه . والله أعلم بمراده .

﴿المسألة الثانية﴾ (الحشر) الجمع من كل جانب الى موقف واحد و(جميعا) نصب على الحال أى نحشر الكل حال اجتماعهم . و (مكانكم) منصوب باضمار الزموا . والتقدير : الزموا مكانكم و(أنتم) تأكيد للضمير (وشركاؤكم) عطف عليه . واعلم أن قوله (مكانكم) كلمة مختصة بالتهديد والوعيد والمراد أنه تعالى يقول للعابدين والمعبودين مكانكم أى الزموا مكانكم حتى تسألوا ، ونظيره قوله تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم وقفوهم إنهم مسئولون)

أما قوله ﴿فزيلنا بينهم﴾ ففيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ أن هذه الكلمة جاءت على لفظ المضى بعد قوله (ثم نقول) وهو منتظر، والسبب فيه أن الذى حكم الله فيه، بأنه سيكون صار كالكائن الراهن الآن. ونظيره قوله تعالى (ونادى أصحاب الجنة)

﴿البحث الثانى﴾ زيلنا فرقنا وميزنا. قال الفراء: قوله (فزيلنا) ليس من أزلت، انما هو من زلت اذا فرقت. تقول العرب: زلت الضأن من المعز فلم تزل. أى ميزتها فلم تتميز، ثم قال الواحدى: فالزيل والتزييل والمزايلة، والتمييز والتفريق. قال الواحدى: وقرىء (فزايلنا بينهم) وهو مثل (فزيلنا) وحكى الواحدى عن ابن قتيبة أنه قال فى هذه الآية: هو من زال يزول وأزلته أنا. ثم حكى عن الأزهرى أنه قال: هذا غلط، لأنه لم يميز بين زال يزول، وبين زال يزيل. وبينهما بون بعيد، والقول ماقاله الفراء، ثم قال المفسرون: (فزيلنا) أى فرقنا بين المشركين وبين شركائهم من الآلهة والأصنام. وانقطع ما كان بينهم من التواصل فى الدنيا.

وأما قوله ﴿وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون﴾ ففيه مباحث:

﴿البحث الأول﴾ انما أضاف الشركاء اليهم لوجوه: الأول: أنهم جعلوا نصيبا من أموالهم لتلك الأصنام. فصيروها شركاء لأنفسهم فى تلك الأموال، فلهذا قال تعالى (وقال شركاؤهم) الثانى أنه يكفى فى الاضافة أدنى تعلق. فلما كان الكفار هم الذين أثبتوا هذه الشركة، لاجرم حسنت اضافة الشركاء إليهم. الثالث: أنه تعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله (مكانكم) صاروا شركاء فى هذا الخطاب.

﴿البحث الثانى﴾ اختلفوا فى المراد بهؤلاء الشركاء. فقال بعضهم: هم الملائكة، واستشهدوا بقوله تعالى (يوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) ومنهم من قال: بل هى الأصنام، والدليل عليه: ان هذا الخطاب مشتمل على التهديد والوعيد، وذلك لا يليق بالملائكة المقربين، ثم اختلفوا فى أن هذه الأصنام كيف ذكرت هذا الكلام. فقال بعضهم: إن الله تعالى يخلق الحياة والعقل والنطق فيها، فلا جرم قدرت على ذكر هذا الكلام. وقال آخرون إنه تعالى يخلق فيها الكلام من غير أن يخلق فيها الحياة حتى يسمع منها ذلك الكلام. وهو ضعيف، لأن ظاهر قوله (وقال شركاؤهم) يقتضى أن يكون فاعل ذلك القول هم الشركاء.

فان قيل: اذا أحياهم الله تعالى فهل يبقيهم أو يفنيهم؟

قلنا: الكل محتمل ولا اعتراض على الله فى شىء من أفعاله. وأحوال القيامة غير معلومة، الا القليل الذى أخبر الله تعالى عنه فى القرآن.

هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ «٣٠»

﴿والقول الثالث﴾ إن المراد بهؤلاء الشركاء ، كل من عبد من دون الله تعالى ، من صنم وشمس وقمر وأنسى وجنى وملك .

﴿البحث الثالث﴾ هذا الخطاب لاشك أنه تهديد فى حق العابدين ، فهل يكون تهديداً فى حق المعبودين . أما المعتزلة : فانهم قطعوا بأن ذلك لايجوز . قالوا . لأنه لاذنب للمعبود . ومن لاذنب له ، فانه يقبح من الله تعالى أن يوجه التخويف والتهديد والوعيد اليه . وأما أصحابنا ، فانهم قالوا إنه تعالى لايسئل عما يفعل .

﴿البحث الرابع﴾ أن الشركاء . قالوا (ما كنتم إيانا تعبدون) وهم كانوا قد عبدوهم ، فكان هذا كذبا ، وقد ذكرنا فى سورة الأنعام اختلاف الناس فى أن أهل القيامة هل يكذبون أم لا ، وقد تقدمت هذه المسألة على الاستقصاء ، والذى نذكره ههنا ، أن منهم من قال : إن المراد من قولهم (ما كنتم إيانا تعبدون) هو أنكم ماعبدتمونا بأمرنا وارادتنا ؟ قالوا : والدليل على أن المراد ماذكرناه وجهان : الأول : أنهم استشهدوا بالله فى ذلك حيث قالوا (فكفى بالله شهيدا بينناوبينكم) والثانى : أنهم قالوا (إن كنا عن عبادتكم لغافلين) فأثبتوا لهم عبادة ، إلا أنهم زعموا أنهم كانوا غافلين عن تلك العبادة ، وقد صدقوا فى ذلك ، لأن من أعظم أسباب الغفلة كونها جمادات لاحس لها بشىء ولاشعور البتة . ومن الناس من أجرى الآية على ظاهرها . وقالوا : إن الشركاء أخبروا أن الكفار ماعبدوها ، ثم ذكروا فيه وجوها : الأول : أن ذلك الموقف موقف الدهشة والحيرة ، فذلك الكذب يكون جاريا مجرى كذب الصبيان ، ومجرى كذب المجانين والمدهوشين . والثانى : أنهم ماأقاموا لأعمال الكفار وزنا وجعلوها لبطلانها كالعدم ، ولهذا المعنى قالوا : إنهم ماعبدونا . والثالث : أنهم تخيلوا فى الأصنام التى عبدوها صفات كثيرة ، فهم فى الحقيقة انما عبدوا ذوات موصوفة بتلك الصفات ، ولما كانت ذواتها خالية عن تلك الصفات . فهم ماعبدوها وانما عبدوا أموراً تخيلوها ولاوجود لها فى الاعيان ، وتلك الصفات التى تخيلوها فى أصنامهم أنها تضر وتنفع وتشفع عند الله بغير اذنه .

قوله تعالى ﴿هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ماكانوا يفترون﴾

واعلم أن هذه الآية كالتتمة لما قبلها . وقوله (هنالك) معناه : فى ذلك المقام وفى ذلك الموقف أو يكون المراد فى ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان ، وفى قوله (تبلوا) مباحث :

﴿البحث الأول﴾ قرأ حمزة والكسائى (تتلوا) بتاءين . وقرأ عاصم (نبلو كل نفس) بالنون ونصب كل والباقون (تبلوا) بالتاء والباء . أما قراءة حمزة والكسائى فلها وجهان : الأول : أن يكون معنى قوله (تتلوا) أى تتبع ماأسلفت ، لأن عمله هو الذى يهديه إلى طريق الجنة وإلى طريق النار . الثانى : أن يكون المعنى : أن كل نفس تقرأ ما فى صحيفتها من خير أوشر . ومنه قوله تعالى (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) وقال (فأولئك يقرؤن كتابهم) وأما قراءة عاصم فمعناها : أن الله تعالى يقول فى ذلك الوقت نختبر كل نفس بسبب اختبار ماأسلفت من العمل ، والمعنى : أنا نعرف حالها بمعرفة حال عملها ، إن كان حسنا فهى سعيدة ، وإن كان قبيحا فهى شقية . والمعنى نفعل بها فعل المختبر ، كقوله تعالى (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) وأما القراءة المشهورة فمعناها : أن كل نفس تختبر أعمالها فى ذلك الوقت .

﴿البحث الثانى﴾ الابتلاء عبارة عن الاختبار . قال تعالى (وبلوناهم بالحسنات والسيئات) ويقال : البلاء ثم الابتلاء . أى الاختبار ينبغى أن يكون قبل الابتلاء .

ولقائل أن يقول : إن فى ذلك الوقت تنكشف نتائج الأعمال وتظهر آثار الأفعال ، فكيف يجوز تسمية حدوث العلم بالابتلاء ؟

وجوابه : أن الابتلاء سبب لحدوث العلم ، وإطلاق اسم السبب على المسبب مجاز مشهور .

وأما قوله (وردوا إلى الله مولاهم الحق) فاعلم أن الرد عبارة عن صرف الشيء إلى الموضع الذى جاء منه . وههنا فيه احتمالات : الأول : أن يكون المراد من قوله (وردوا إلى الله) أى وردوا إلى حيث لا حكم إلا لله على ماتقدم فى نظائره . والثانى : أن يكون المراد (وردوا) إلى مايظهر لهم من الله من ثواب وعقاب ، منبهاً بذلك على أن حكم الله بالثواب والعقاب لايتغير . الثالث : أن يكون المراد من قوله (وردوا إلى الله) أى جعلوا ملجئين إلى الاقرار بالهيته . بعد أن كانوا فى الدنيا يعبدون غير الله تعالى ، ولذلك قال (مولاهم الحق) أعنى أعرضوا عن المولى الباطل ورجعوا إلى المولى الحق .

وأما قوله ﴿مولاهم الحق﴾ فقد مر تفسيره فى سورة الأنعام .

وأما قوله ﴿وضل عنهم ماكانوا يفترون﴾ فالمراد أنهم كانوا يدعون فيما يعبدونه أنهم شفعاء وأن عبادتهم مقربة إلى الله تعالى ، فنبه تعالى على أن ذلك يزول فى الآخرة . ويعلمون أن ذلك باطل وافتراء واختلاق .

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ «٣١» فَذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ «٣٢» كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ «٣٣»

قوله تعالى ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون كذلك حقت كلمت ربك على الذين فسقوا أنهم لايؤمنون﴾

اعلم أنه تعالى لما بين فضائح عبدة الأوثان أتبعها بذكر الدلائل الدالة على فساد هذا المذهب .

﴿فالحجة الأولى﴾ ماذكره فى هذه الآية وهو أحوال الرزق وأحوال الحواس وأحوال الموت والحياة . أما الرزق فانه إنما يحصل من السماء والأرض ، أما من السماء فبنزول الأمطار الموافقة . وأمامن الأرض ، فلأن الغذاء إما أن يكون نباتا أو حيوانا ، أما النبات فلا ينبت إلامن الأرض . وأما الحيوان فهو محتاج أيضا إلى الغذاء . ولايمكن أن يكون غذاء كل حيوان حيوانا آخر . وإلا لزم الذهاب إلى مالانهاية له وذلك محال ، فثبت أن أغذية الحيوانات يجب انتهاؤهاإلى النبات . وثبت أن تولد النبات من الأرض ، فلزم القطع بأن الارزاق لاتحصل إلا من السماء والأرض ، ومعلوم أن مدبر السموات والأرضين ليس الا الله سبحانه وتعالى ، فثبت أن الرزق ليس الا من الله تعالى ، وأما أحوال الحواس فكذلك ، لأن أشرفها السمع والبصر . وكان على رضى الله عنه يقول : سبحان من بصر بشحم . وأسمع بعظم ، وأنطق بلحم ، وأما أحوال الموت والحياة فهو قوله (ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) وفيه وجهان : الأول : انه يخرج الانسان والطائر من النطفة والبيضة (ويخرج الميت من الحى) أى يخرج النطفة والبيضة من الانسان والطائر . والثانى : أن المراد منه أنه يخرج المؤمن من الكافر . والكافر

من المؤمن ، والأكثرون على القول الأول ، وهو الى الحقيقة أقرب ، ثم إنه تعالى لما ذكر هذا التفصيل ذكر بعده كلاما كلياً ، وهو قوله (ومن يدبر الأمر) وذلك لأن أقسام تدبير الله تعالى فى العالم العلوى وفى العالم السفلى . وفى عالمى الأرواح والأجساد أمور لانهاية لها . وذكر كلها كالمتعذر ، فلما ذكر بعض تلك التفاصيل . لاجرم عقبها بالكلام الكلى ليدل على الباقى ، ثم بين تعالى أن الرسول عليه السلام . إذا سألهم عن مدبر هذه الأحوال . فسيقولون إنه الله سبحانه وتعالى ، وهذا يدل على أن المخاطبين بهذا الكلام كانوا يعرفون الله ويقرون به ، وهم الذين قالوا فى عبادتهم للأصنام إنها تقربنا إلى الله زلفى . وانهم شفعاؤنا عند الله وكانوا يعلمون أن هذه الأصنام لاتنفع ولا تضر ، فعند ذلك قال لرسوله عليه السلام (فقل أفلا تتقون) يعنى أفلا تتقون أن تجعلوا هذه الأوثان شركاء لله فى المعبودية . مع اعترافكم بأن كل الخيرات فى الدنيا والآخرة إنما تحصل من رحمة الله وإحسانه ، واعترافكم بأن هذه الأوثان لاتنفع ولا تضر البتة .

ثم قال تعالى ﴿فذلكم الله ربكم﴾ ومعناه أن من هذه قدرته ورحمته هو (ربكم الحق) الثابت ربوبيته ثباتا لاريب فيه ، وإذا ثبت أن هذا هو الحق ، وجب أن يكون ما سواه ضلالا ، لأن النقيضين يمتنع أن يكونا حقين وأن يكونا باطلين ، فاذا كان أحدهما حقا . وجب أن يكون ما سواه باطلا .

ثم قال ﴿فأنى تصرفون﴾ والمعنى أنكم لما عرفتم هذا الأمر الواضح الظاهر (فأنى تصرفون) وكيف تستجيزون العدول عن هذا الحق الظاهر . واعلم أن الجبائى قد استدل بهذه الآية وقال : هذا يدل على بطلان قول المجبرة أنه تعالى يصرف الكفار عن الايمان ، لأنه لوكان كذلك لما جاز أن يقول (فأنى تصرفون) كما لايقول : إذا أعمى بصر أحدهم إنى عميت ، واعلم أن الجواب عنه سيأتى عن قريب .

أما قوله ﴿كذلك حقت كلمت ربك على الذين فسقوا أنهم لايؤمنون﴾ ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الكفر بقضاء الله تعالى وإرادته ، وتقريره أنه تعالى أخبر عنهم خبراً جزماً قطعاً أنهم لايؤمنون ، فلو آمنوا ، لكان إما أن يبقى ذلك الخبر صدقا أو لايبقى ، والأول باطل ، لأن الخبر بأنه لايؤمن يمتنع أن يبقى صدقا حال مايوجد الايمان منه . والثانى أيضاً باطل ، لأن انقلاب خبر الله تعالى كذباً محال ، فثبت أن صدور الايمان منهم محال . والمحال لايكون مرادا ، فثبت أنه تعالى ماأراد الايمان من هذا الكافر وأنه أراد الكفر منه ، ثم نقول : إن كان قوله (فأنى تصرفون) يدل على صحة مذهب القدرية . فهذه الآية الموضوعة بجنبه

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ «٣٤»

تدل على فساده ، وقد كان من الواجب على الجبائى مع قوة خاطره حين استدل بتلك الآية على صحة قوله : أن يذكر هذه الحجة ويجيب عنها حتى يحصل مقصوده .

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ نافع وابن عامر (كلمات ربك) على الجمع وبعده (إن الذين حقت عليهم كلمات ربك) وفى حم المؤمن (كذلك حقت كلمات) كله بالألف على الجمع والباقون (كلمت ربك) فى جميع ذلك على لفظ الوحدان .

﴿المسألة الثالثة﴾ الكاف فى قوله (كذلك) للتشبيه ، وفيه قولان : الأول : أنه كما ثبت وحق أنه ليس بعد الحق إلا الضلال كذلك حقت كلمة ربك بأنهم لايؤمنون : الثانى : كما حق صدور العصيان منهم ، كذلك حقت كلمة العذاب عليهم .

﴿المسألة الرابعة﴾ (أنهم لايؤمنون) بدل من (كلمت) أى حق عليهم انتفاء الايمان .

﴿المسألة الخامسة﴾ المراد من كلمة الله إما اخباره عن ذلك وخبره صدق لا يقبل التغير والزوال ، أو علمه بذلك ، وعلمه لايقبل التغير والجهل . وقال بعض المحققين : علم الله تعلق بأنه لايؤمن . وخبره تعالى تعلق بأنه لايؤمن ، وقدرته لم تتعلق بخلق الايمان فيه ، بل بخلق الكفر فيه وإرادته لم تتعلق بخلق الايمان فيه ، بل بخلق الكفر فيه ، وأثبت ذلك فى اللوح المحفوظ ، وأشهد عليه ملائكته ، وأنزله على أنبيائه وأشهدهم عليه ، فلو حصل الايمان لبطلت هذه الأشياء ، فينقلب علمه جهلا ، وخبره الصدق كذبا ، وقدرته عجزاً ، وإرادته كرها ، وإشهاده باطلا ، وإخبار الملائكة والأنبياء كذبا ، وكل ذلك محال .

قوله تعالى ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون﴾

اعلم أن هذا هو الحجة الثانية ، وتقريرها ماشرح الله تعالى فى سائر الآيات من كيفية ابتداء تخليق الانسان من النطفة والعلقة والمضغة وكيفية إعادته ، ومن كيفية ابتداء تخليق السموات والأرض ، فلما فصل هذه المقامات ، لاجرم اكتفى تعالى بذكرها ههنا على سبيل الاجمال ، وههنا سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ ما الفائدة فى ذكر هذه الحجة على سبيل السؤال والاستفهام .

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ «٣٥» وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ «٣٦»

والجواب : أن الكلام إذا كان ظاهراً جلياً ثم ذكر على سبيل الاستفهام وتفويض الجواب إلى المسئول . كان ذلك أبلغ وأوقع فى القلب .

﴿السؤال الثانى﴾ القوم كانوا منكرين الاعادة والحشر والنشر . فكيف احتج عليهم بذلك ؟
والجواب : أنه تعالى قدم فى هذه السورة ذكر مايدل عليه ، وهو وجوب التمييز بين المحسن وبين المسىء وهذه الدلالة ظاهرة قوية لايتمكن العاقل من دفعها ، فلأجل كمال قوتها وظهورها تمسك به ، سواء ساعد الخصم عليه أولم يساعد .

﴿السؤال الثالث﴾ لم أمر رسوله بأن يعترف بذلك ، والالزام إنما يحصل لو اعترف الخصم به ؟
والجواب : أن الدليل لما كان ظاهرا جليا ، فاذا أورد على الخصم فى معرض الاستفهام ، ثم إنه بنفسه يقول الأمر كذلك ، كان هذا تنبيها على أن هذا الكلام بلغ فى الوضوح إلى حيث لاحاجة فيه إلى إقرار الخصم به ، وأنه سواء أقر أو أنكر ، فالأمر متقرر ظاهر .

أما قوله ﴿فأنى تؤفكون﴾ فالمراد التعجب منهم فى الذهاب عن هذا الأمر الواضح الذى دعاهم الهوى والتقليد أو الشبهة الضعيفة إلى مخالفته ، لأن الأخبار عن كون الأوثان آلهة كذب وإفك ، والاشتغال بعبادتها مع أنها لاتستحق هذه العبادة يشبه الافك .

قوله تعالى ﴿قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع أمن لايهدى إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لايغنى من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون﴾

وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن هذا هو الحجة الثالثة ، واعلم أن الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولا ، ثم بالهداية ثانيا ، عادة مطردة فى القرآن . فحكى تعالى عن الخليل عليه السلام أنه ذكر ذلك

فقال (الذى خلقنى فهو يهدين) وعن موسى عليه السلام ، أنه ذكر ذلك فقال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . وأمر محمداً صلى الله عليه وسلم بذلك فقال (سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى) وهو فى الحقيقة دليل شريف ، لأن الانسان له جسد وله روح ، فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخلق . والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية فههنا أيضاً لما ذكر دليل الخلق فى الآية الأولى . وهو قوله (أم من يبدأ الخلق ثم يعيده) أتبعه بدليل الهداية فى هذه الآية .

واعلم أن المقصود من خلق الجسد حصول الهداية للروح ، كما قال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) وهذا كالتصريح بأنه تعالى إنما خلق الجسد ، وإنما أعطى الحواس لتكون آلة فى اكتساب المعارف والعلوم . وأيضاً فالأحوال الجسدية خسيسة يرجع حاصلها إلى الالتذاذ بذوق شىء من الطعوم أولمس شىء من الكيفيات الملموسة ، أما الأحوال الروحانية والمعارف الالهية ، فانها كمالات باقية أبد الآباد مصونة عن الكون والفساد ، فعلمنا أن الخلق تبع للهداية ، والمقصود الأشرف الأعلى حصول الهداية .

إذا ثبت هذا فنقول : العقول مضطربة والحق صعب ، والأفكار مختلطة ، ولم يسلم من الغلط إلا الأقلون ، فوجب أن الهداية وإدراك الحق لايكون إلا باعانة الله سبحانه وتعالى وهدايته وإرشاده ، ولصعوبة هذا الأمر قال الكليم عليه السلام بعد استماع الكلام القديم (رب اشرح لى صدرى) وكل الخلق يطلبون الهداية ويحترزون عن الضلالة ، مع أن الأكثرين وقعوا فى الضلالة ، وكل ذلك يدل على أن حصول الهداية والعلم والمعرفة ليس إلا من الله تعالى .

إذا عرفت هذا فنقول : الهداية إما أن تكون عبارة عن الدعوة إلى الحق ، وإما أن تكون عبارة عن تحصيل تلك المعرفة وعلى التقديرين فقد دللنا على أنها أشرف المراتب البشرية وأعلى السعادات الحقيقية ، ودللنا على أنها ليست إلا من الله تعالى . وأما الأصنام فانها جمادات لاتأثير لها فى الدعوة إلى الحق ولا فى الارشاد إلى الصدق ، فثبت أنه تعالى هو الموصل إلى جميع الخيرات فى الدنيا والآخرة ، والمرشد إلى كل الكمالات فى النفس والجسد ، وأن الأصنام لاتأثير لها فى شىء من ذلك ، وإذا كان كذلك كان الاشتغال بعبادتها جهلا محضاً وسفهاً صرفا . فهذا حاصل الكلام فى هذا الاستدلال .

﴿المسألة الثانية﴾ قال الزجاج : يقال هديت إلى الحق ، وهديت للحق بمعنى واحد . والله تعالى ذكر هاتين اللغتين فى قوله (قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق)

﴿المسألة الثالثة﴾ فى قوله (أم من لايهدى) ست قراءات : الأولى : قرأ ابن كثير وابن عامر وورش عن نافع (يهدى) بفتح الياء والهاء وتشديد الدال . وهو اختيار أبى عبيدة وأبى حاتم . لأن أصله يهتدى أدغمت التاء فى الدال ونقلت فتحة التاء المدغمة إلى الهاء . الثانية : قرأ نافع ساكنة الهاء مشددة الدال أدغمت التاء فى الدال وتركت الهاء على حالها ، فجمع فى قراءته بين ساكنين كما جمعوا فى (يخصمون) قال على بن عيسى وهو غلط على نافع . الثالثة : قرأ أبو عمرو بالاشارة إلى فتحة الهاء من غير إشباع فهو بين الفتح والجزم مختلسة على أصل مذهبه اختياراً للتخفيف ، وذكر على بن عيسى أنه الصحيح من قراءة نافع . الرابعة : قرأ عاصم بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال فراراً من التقاء الساكنين . والجزم يحرك بالكسر . الخامسة : قرأ حماد ويحيي بن آدم عن أبى بكر عن عاصم بكسر الياء والهاء . أتبع الكسرة للكسرة . وقيل : هو لغة من قرأ (نستعين ونعبد) السادسة : قرأ حمزة والكسائى (يهدى) ساكنة الهاء وبتخفيف الدال على معنى يهتدى . والعرب تقول : يهدى ، بمعنى يهتدى . يقال : هديته فهدى ، أى اهتدى .

﴿المسألة الرابعة﴾ فى لفظ الآية إشكال ، وهو أن المراد من الشركاء فى هذه الآية الأصنام وأنها جمادات لاتقبل الهداية ، فقوله (أم من لايهدى إلا أن يهدى) لا يليق بها .

والجواب من وجوه : الأول : لايبعد أن يكون المراد من قوله (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده) هو الأصنام . والمراد من قوله (قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق) رؤساء الكفر والضلالة والدعاة إليها . والدليل عليه قوله سبحانه (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) إلى قوله (لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) والمراد أن الله سبحانه وتعالى هدى الخلق إلى الدين الحق بواسطة ما أظهر من الدلائل العقلية والنقلية . وأما هؤلاء الدعاة والرؤساء فانهم لايقدرون على أن يهدوا غيرهم إلا إذا هداهم الله تعالى ، فكان التمسك بدين الله تعالى أولى من قبول قول هؤلاء الجهال .

﴿الوجه الثانى﴾ فى الجواب أن يقال : إن القوم لما اتخذوها آلهة ، لاجرم عبر عنها كما يعبر عمن يعلم ويعقل ، ألا ترى أنه تعالى قال (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) مع أنها جمادات ؟ وقال (إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم) فأجرى اللفظ على الأوثان على حسب مايجرى على من يعقل ويعلم . فكذا ههنا وصفهم الله تعالى بصفة من يعقل ، وإن لم يكن الأمر كذلك . الثالث : أنا نحمل ذلك على التقدير ، يعنى أنها لو كانت بحيث يمكنها أن تهدى ، فانها لاتهدى غيرها إلا بعد أن يهديها غيرها . وإذا حملنا الكلام على هذا التقدير فقد زال السؤال . الرابع : أن البنية عندنا ليست شرطا

لصحة الحياة والعقل ، فتلك الأصنام حال كونها خشبا وحجرا قابلة للحياة والعقل . وعلى هذا التقدير فيصح من الله تعالى أن يجعلها حية عاقلة . ثم إنها تشتغل بهداية الغير . الخامس : أن الهدى عبارة عن النقل والحركة يقال : هديت المرأة إلى زوجها هدى ، إذا نقلت اليه ، والهدى مايهدى إلى الحرم من النعم ، وسميت الهدية هدية لانتقالها من رجل إلى غيره ، وجاء فلان يهادى بين اثنين إذا كان يمشى بينهما معتمدا عليهما من ضعفه وتمايله .

إذا ثبت هذا فنقول : قوله (أم من لا يهدى إلا أن يهدى) يحتمل أن يكون معناه : انه لا ينتقل إلى مكان إلا اذا نقل اليه ، وعلى هـذا التقدير : فالمراد الاشارة إلى كون هذه الأصنام جمادات خالية عن الحياة والقدرة . واعلم أنه تعالى لما قرر على الكفار هذه الحجة الظاهرة قال (فما لكم كيف تحكمون) يعجب من مذهبهم الفاسد ومقالتهم الباطلة أرباب العقول .

ثم قال تعالى ﴿ ومايتبع أكثرهم إلا ظنا ﴾ وفيه وجهان : الأول : وما يتبع أكثرهم فى إقرارهم بالله تعالى إلا ظنا ، لأنه قول غير مستند الى برهان عندهم ، بل سمعوه من أسلافهم . الثانى : ومايتبع أكثرهم فى قولهم : الأصنام آلهة وأنها شفعاء عند الله إلا الظن . والقول الأول أقوى ، لأنا فى القول الثانى نحتاج إلى أن نفسر الأكثر بالكل .

ثم قال تعالى ﴿إن الظن لا يغنى من الحق شيئا﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ تمسك نفاة القياس بهذه الآية ، فقالوا : العمل بالقياس عمل بالظن ، فوجب أن لا يجوز ، لقوله تعالى (إن الظن لا يغنى من الحق شيئا)

أجاب مثبتو القياس ، فقالوا : الدليل الذى دل على وجوب العمل بالقياس دليل قاطع ، فكان وجوب العمل بالقياس معلوماً ، فلم يكن العمل بالقياس مظنونا . بل كان معلوما .

أجاب المستدل عن هذا السؤال ، فقال : لو كان الحكم المستفاد من القياس يعلم كونه حكما لله تعالى لكان ترك العمل به كفراً لقوله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ولما لم يكن كذلك ، بطل العمل به وقد يعدون عن هذه الحجة بأنهم قالوا : الحكم المستفاد من القياس إما أن يعلم كونه حكما لله تعالى أو يظن ، أو لا يعلم ولا يظن . والأول باطل . وإلا لكان من لم يحكم به كافراً لقوله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وبالاتفاق ليس كذلك . والثانى : باطل ، لأن العمل بالظن لا يجوز لقوله تعالى (إن الظن لا يغنى من الحق شيئا) والثالث : باطل . لأنه إذا لم يكن ذلك الحكم معلوما ولا مظنونا ، كان مجرد التشهى ، فكان باطلا لقوله تعالى (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات)

وأجاب مثبتو القياس : بأن حاصل هذا الدليل يرجع إلى التمسك بالعمومات ، والتمسك بالعمومات

وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَـكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْـكِتَابِ لَارَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ «٣٧» أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ «٣٨» بَلْ كَذَّبُوا بِمَـا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّـا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ «٣٩»

لايفيد الاالظن . فلمـا كانت هذه العمومات دالة على المنع من التمسك بالظن ، لزم كونها دالة على المنع من التمسك بها ، وما أفضى ثبوته الى نفيه كان متروكا .

﴿المسألة الثانية﴾ دلت هذه الآية على أن كل من كان ظانا فى مسائل الأصول ، وماكان قاطعاً . فانه لايكون مؤمنا .

فان قيل : فقول أهل السنة أنامؤمن إن شاء الله ، يمنع من القطع . فوجب أن يلزمهم الـكفر .

قلنا : هذا ضعيف من وجوه : الأول : مذهب الشافعى رحمـه الله : أن الايمـان عبارة عن مجموع الاعتقاد والاقرار والعمل . والشك حاصل فى أن هذه الأعمـال هل هى موافقة لأمر الله تعـالى ؟ والشك فى أحد أجزاء المـاهية لايوجب الشك فى تمـام المـاهيـة . الثانى : أن الغرض من قوله إن شاء الله . بقاء الايمـان عنـد الخاتمة . الثالث : الغرض منـه هضم النفس وكسرها . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وماكان هـــذا القرآن أن يفترى من دون الله ولـكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الـكتاب لاريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين بل كذبوا بمـا لم يحيطوا بعـلمه ولمـا يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾

فيه مسائل .

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنا حين شرعنا فى تفسير قوله تعالى (ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه) ذكرنا أن القوم إنمـا ذكروا ذلك لاعتقادهم أن القرآن ليس بمعجز، وأن محمداً إنمـا يأتى به من

عند نفسه على سبيل الافتعال والاختلاق ، ثم إنه تعالى ذكر الجوابات الكثيرة عن هذا الكلام ، وامتدت تلك البيانات على الترتيب الذى شرحناه وفصلناه إلى هذا الموضع ، ثم إنه تعالى بين فى هذا المقام أن إتيان محمد عليه السلام بهذا القرآن ليس على سبيل الافتراء على الله تعالى ، ولكنه وحى نازل عليه من عند الله ، ثم إنه تعالى احتج على صحة هذا الكلام بقوله (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله) وذلك يدل على أنه معجز نازل عليه من عند الله تعالى ، وأنه مبرأ عن الافتراء والافتعال . فهذا هو الترتيب الصحيح فى نظم هذه الآيات .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله تعالى (وما كان هذا القرآن أن يفترى) فيه وجهان : الأول : أن قوله (أن يفترى) فى تقدير المصدر ، والمعنى : وما كان هذا القرآن افتراء من دون الله ، كما تقول : ما كان هذا الكلام إلا كذبا . والثانى : أن يقال إن كلمة (أن) جاءت ههنا بمعنى اللام ، والتقدير : ما كان هذا القرآن ليفترى من دون الله ، كقوله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة . ما كان الله ليذر المؤمنين . وما كان الله ليطلعكم على الغيب) أى لم يكن ينبغى لهم أن يفعلوا ذلك . فكذلك ماينبغى لهذا القرآن أن يفترى ، أى ليس وصفه وصف شىء يمكن أن يفترى به على الله ، لأن المفترى هو الذى يأتى به البشر ، والقرآن معجز لايقدر عليه البشر . والافتراء افتعال من فريت الأديم إذا قدرته للقطع . ثم استعمل فى الكذب كما استعمل قولهم : اختلق فلان هذا الحديث فى الكذب ، فصار حاصل هذا الكلام أن هذا القرآن لا يقدر عليه أحد إلا الله عز وجل ، ثم إنه تعالى احتج على هذه الدعوى بأمور :

﴿الحجة الأولى﴾ قوله (ولكن تصديق الذى بين يديه) وتقرير هذه الحجة من وجوه : أحدها : أن محمداً عليه السلام كان رجلا أميا ماسافر إلى بلدة لأجل التعلم ، وما كانت مكة بلدة العلماء ، وما كان فيها شىء من كتب العلم ، ثم إنه عليه السلام أتى بهذا القرآن ، فكان هذا القرآن مشتملا على أقاصيص الأولين ، والقوم كانوا فى غاية العداوة له . فلو لم تكن هذه الأقاصيص موافقة لما فى التوراة والانجيل لقدحوا فيه ولبالغوا فى الطعن فيه ، ولقالوا له إنك جئت بهذه الأقاصيص لا كما ينبغى ، فلما لم يقل أحد ذلك مع شدة حرصهم على الطعن فيه ، وعلى تقبيح صورته ، علمنا أنه أتى بتلك الأقاصيص مطابقة لما فى التوراة والانجيل ، مع أنه ماطالعهما ولا تلمذ لأحد فيهما ، وذلك يدل على أنه عليه السلام إنما أخبر عن هذه الأشياء بوحى من قبل الله تعالى .

﴿الحجة الثانية﴾ أن كتب الله المنزلة دلت على مقدم محمد عليه السلام ، على ما استقصينا فى تقريره فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) وإذا كان الأمر كذلك

كان مجيء محمد عليه السلام تصديقاً لما في تلك الكتب ، من البشارة بمجيئه صلى الله عليه وسلم ، فكان هذا عبارة عن تصديق الذي بين يديه .

﴿الحجة الثالثة﴾ أنه عليه السلام أخبر في القرآن عن الغيوب الكثيرة في المستقبل . ووقعت مطابقة لذلك الخبر ، كقوله تعالى (الم غلبت الروم) الآية ، وكقوله تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) وكقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض) وذلك يدل على أن الأخبار عن هذه الغيوب المستقبلة ، إنما حصل بالوحي من الله تعالى ، فكان ذلك عبارة عن تصديق الذي بين يديه ، فالوجهان الأولان : إخبار عن الغيوب الماضية . والوجه الثالث : إخبار عن الغيوب المستقبلة ، ومجموعها عبارة عن تصديق الذي بين يديه .

﴿النوع الثاني﴾ من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى (وتفصيل كل شيء)

واعلم أن الناس اختلفوا في أن القرآن معجز من أي الوجوه ؟ فقال بعضهم : إنه معجز لاشتماله على الاخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة ، وهذا هو المراد من قوله (تصديق الذي بين يديه) ومنهم من قال : إنه معجز لاشتماله على العلوم الكثيرة ، وإليه الاشارة بقوله (وتفصيل كل شيء) وتحقيق الكلام في هذا الباب أن العلوم إما أن تكون دينية أو ليست دينية ، ولاشك أن القسم الأول أرفع حالا وأعظم شأناً وأكمل درجة من القسم الثاني . وأما العلوم الدينية ، فاما أن تكون علم العقائد والأديان ، وإما أن تكون علم الأعمال . أما علم العقائد والأديان فهو عبارة عن معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . أما معرفة الله تعالى ، فهي عبارة عن معرفة ذاته ومعرفة صفات جلاله ، ومعرفة صفات إكرامه ، ومعرفة أفعاله ، ومعرفة أحكامه ، ومعرفة أسمائه والقرآن مشتمل على دلائل هذه المسائل وتفاريعها وتفاصيلها على وجه لايساويه شيء من الكتب ، بل لايقرب منه شيء من المصنفات . وأما علم الأعمال فهو إما أن يكون عبارة عن علم التكاليف المتعلقة بالظواهر ، وهو علم الفقه . ومعلوم أن جميع الفقهاء إنما استنبطوا مباحثهم من القرآن . وإما أن يكون علما بتصفية الباطن أو رياضة القلوب . وقد حصل في القرآن من مباحث هذا العلم مالايكاد يوجد في غيره . كقوله (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وقوله (إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي) فثبت أن القرآن مشتمل على تفاصيل جميع العلوم الشريفة ، عقليها ونقليها ، اشتمالا يمتنع حصوله في سائر الكتب فكان ذلك معجزاً . وإليه الاشارة بقوله (وتفصيل الكتاب)

أما قوله ﴿لاريب فيه من رب العالمين﴾ فتقريره : أن الكتاب الطويل المشتمل على هذه

العلوم الكثيرة، لابد وأن يشتمل على نوع من أنواع التناقض، وحيث خلى هذا الكتاب عنه، علمنا أنه من عند الله وبوحيه وتنزيله. ونظيره قوله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً)

واعلم أنه تعالى لما ذكر فى أول هذه الآية أن هذا القرآن لايليق بحاله وصفته أن يكون كلاما مفترى على الله تعالى، وأقام عليه هذين النوعين من الدلائل المذكورة، عاد مرة أخرى بلفظ الاستفهام على سبيل الانكار. فقال (أم يقولون افتراه) ثم إنه تعالى ذكر حجة أخرى على إبطال هذا القول، فقال (قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) وهذه الحجة بالغنا فى تقريرها فى تفسير قوله تعالى فى سورة البقرة (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) وههنا سؤالات:

﴿السؤال الأول﴾ لم قال فى سورة البقرة (من مثله) وقال ههنا (فأتوا بسورة مثله)

والجواب: أن محمدا عليه السلام كان رجلا أميا، لم يتلمذ لأحد ولم يطالع كتابا فقال فى سورة البقرة (فأتوا بسورة من مثله) يعنى فليأت إنسان يساوى محمدا عليه السلام فى عدم التلمذ وعدم مطالعة الكتب وعدم الاشتغال بالعلوم، بسورة تساوى هذه السورة، وحيث ظهر العجز ظهر المعجز. فهذا لايدل على أن السورة فى نفسها معجزة، ولكنه يدل على أن ظهور مثل هذه السورة من إنسان مثل محمد عليه السلام فى عدم التلمذ والتعلم معجز، ثم إنه تعالى بين فى هذه السورة أن تلك السورة فى نفسها معجز. فان الخلق وإن تلمذوا وتعلموا وطالعوا وتفكروا، فانه لايمكنهم الاتيان بمعارضة سورة واحدة من هذه السور، فلاجرم قال تعالى فى هذه الآية (فأتوا بسورة مثله) ولا شك أن هذا ترتيب عجيب فى باب التحدى وإظهار المعجز.

﴿السؤال الثانى﴾ قوله (فأتوا بسورة مثله) هل يتناول جميع السور الصغار والكبار، أو يختص بالسور الكبار.

الجواب: هذه الآية فى سورة يونس وهى مكية، فالمراد مثل هذه السورة، لأنها أقرب مايمكن أن يشار إليه.

﴿السؤال الثالث﴾ أن المعتزلة تمسكوا بهذه الآية على أن القرآن مخلوق، قالوا: إنه عليه السلام تحدى العرب بالقرآن. والمراد من التحدى: أنه طلب منهم الاتيان بمثله، فاذا عجزوا عنه ظهر كونه حجة من عند الله على صدقه، وهذا إنما يمكن لوكان الاتيان بمثله صحيح الوجود فى الجملة، ولو كان قديما لكان الاتيان بمثل القديم محالا فى نفس الأمر، فوجب أن لايصح التحدى به.

والجواب : أن القرآن اسم يقال بالاشتراك على الصفة القديمة القائمة بذات الله تعالى ، وعلى هذه الحروف والأصوات ، ولا نزاع فى أن الكلمات المركبة من هذه الحروف والأصوات محدثة مخلوقة ، والتحدى إنما وقع بها لا بالصفة القديمة .

أما قوله ﴿وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ فالمراد منه : تعليم أنه كيف يمكن الاتيان بهذه المعارضة لو كانوا قادرين عليها . وتقريره أن الجماعة اذا تعاونت وتعاضدت صارت تلك العقول الكثيرة كالعقل الواحد ، فاذا توجهوا نحو شىء واحد . قدر مجموعهم على مايعجز كل واحد منهم ، فكأنه تعالى يقول : هب أن عقل الواحد والأثنين منكم لا يفى باستخراج معارضة القرآن فاجتمعوا وليعن بعضكم بعضا فى هذه المعارضة . فاذا عرفتم عجزكم حالة الاجتماع وحالة الانفراد عن هذه المعارضة ، فحينئذ يظهر أن تعذر هذه المعارضة انما كان لأن قدرة البشر غير وافية بها ، فحينئذ يظهر أن ذلك فعل الله لا فعل البشر .

واعلم أنه قد ظهر بهذا الذى قررناه أن مراتب تحدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن ستة ، فأولها : أنه تحداهم بكل القرآن كما قال (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) وثانيها : أنه عليه السلام تحداهم بعشر سور قال تعالى (فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) وثالثها : أنه تحداهم بسوره واحدة كما قال (فأتوا بسورة من مثله) ورابعها : أنه تحداهم بحديث مثله فقال (فليأتو بحديث مثله) وخامسها : أن فى تلك المراتب الأربعة ،كان يطلب منهم أن يأتى بالمعارضة رجل يساوى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدم التلمذ والتعلم ، ثم فى سورة يونس طلب منهم معارضة سورة واحدة من أى انسان سواء تعلم العلوم أو لم يتعلمها . وسادسها : أن فى المراتب المتقدمة تحدى كل واحد من الخلق ، وفى هذه المرتبة تحدى جميعهم ، وجوز أن يستعين البعض بالبعض فى الاتيان بهذه المعارضة ، كما قال (وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) وههنا آخر المراتب ، فهذا مجموع الدلائل التى ذكرها الله تعالى فى إثبات أن القرآن معجز ، ثم إنه تعالى ذكر السبب الذى لأجله كذبوا القرآن فقال (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) واعلم أن هذا الكلام يحتمل وجوها :

﴿الوجه الأول﴾ أنهم كلما سمعوا شيئاً من القصص . قالوا : ليس فى هذا الكتاب إلا أساطير الأولين . ولم يعرفوا أن المقصود منها ليس هو نفس الحكاية بل أمور أخرى مغايرة لها : فأولها بيان قدرة الله تعالى على التصرف فى هذا العالم . ونقل أهله من العز إلى الذل ومن الذل إلى العز

وذلك يدل على قدرة كاملة . وثانيها : أنها تدل على العبرة من حيث أن الانسان يعرف بها أن الدنيا لاتبقى ، فنهاية كل متحرك سكون ، وغاية كل متكون أن لايكون ، فيرفع قلبه عن حب الدنيا وتقوى رغبته فى طلب الآخرة ، كما قال (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) وثالثها : أنه صلى الله عليه وسلم لما ذكر قصص الأولين من غير تحريف ولا تغيير مع أنه لم يتعلم ولم يتلمذ ، دل ذلك على أنه بوحى من الله تعالى ، كما قال فى سورة الشعراء بعد أن ذكر القصص (وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين)

﴿والوجه الثانى﴾ أنهم كلما سمعوا حروف التهجى فى أوائل السور ولم يفهموا منها شيئاً ساء ظنهم بالقرآن . وقد أجاب الله تعالى عنه بقوله (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات)

﴿والوجه الثالث﴾ أنهم رأوا أن القرآن يظهر شيئاً فشيئاً ، فصار ذلك سبباً للطعن الردىء فقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة فأجاب الله تعالى عنه بقوله (كذلك لنثبت به فؤادك) وقد شرحنا هذا الجواب فى سورة الفرقان .

﴿والوجه الرابع﴾ أن القرآن مملوء من اثبات الحشر والنشر . والقوم كانوا قد ألفوا المحسوسات فاستبعدوا حصول الحياة بعد الموت ، ولم يتقرر ذلك فى قلوبهم ، فظنوا أن محمدا عليه السلام إنما يذكر ذلك على سبيل الكذب ، والله تعالى بين صحة القول بالمعاد بالدلائل القاهرة الكثيرة .

﴿الوجه الخامس﴾ أن القرآن مملوء من الأمر بالصلاة والزكاة وسائر العبادات ، والقوم كانوا يقولون إله العالمين غنى عنا وعن طاعتنا ، وأنه تعالى أجل من أن يأمر بشىء لافائدة فيه ، فأجاب الله تعالى عنه بقوله (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا) وبقوله (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) وبالجملة فشبهات الكفار كثيرة ، فهم لما رأوا القرآن مشتملا على أمور ماعرفوا حقيقتها ولم يطلعوا على وجه الحكمة فيها لاجرم كذبوا بالقرآن ، والحاصل أن القوم ماكانوا يعرفون أسرار الالهيات ، وكانوا يجرون الأمور على الأحوال المألوفة فى عالم المحسوسات . وماكانوا يطلبون حكمها ولا وجوه تأويلاتها ، فلا جرم وقعوا فى التكذيب والجهل ، فقوله (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) إشارة الى عدم علمهم بهذه الأشياء ، وقوله (ولما يأتهم تأويله) إشارة الى عدم جدهم واجتهادهم فى طلب تلك الأسرار .

ثم قال ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ والمراد أنهم طلبوا الدنيا وتركوا الآخرة ، فلما ماتوا فاتتهم الدنيا والآخرة . فبقوا فى الخسار العظيم ، ومن الناس من قال المراد منه عذاب الاستئصال وهو الذى نزل بالأمم الذين كذبوا الرسل من ضروب العذاب فى الدنيا ، قال أهل التحقيق قوله

وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ «٤٠» وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ «٤١»

(ولما يأتهم تأويله) يدل على أن من كان غير عارف بالتأويلات وقع فى الكفر والبدعة ، لأن ظواهر النصوص قد يوجد فيها ماتكون متعارضة ، فاذا لم يعرف الانسان وجه التأويل فيها وقع فى قلبه أن هذا الكتاب ليس بحق ، أما إذا عرف وجه التأويل طبق التنزيل على التأويل . فيصير ذلك نوراً على نور يهدى الله لنوره من يشاء .

قوله تعالى ﴿ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما تعملون﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر فى الآية المتقدمة قوله (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) وكان المراد منه تسليط العذاب عليهم فى الدنيا ، أتبعه بقوله (ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به) منبهاً على أن الصلاح عنده تعالى كان فى هذه الطائفة التبقية دون الاستئصال ، من حيث كان المعلوم أن منهم من يؤمن به . والأقرب أن يكون الضمير فى قوله (به) رجعاً إلى القرآن ، لأنه هو المذكور من قبل ، ثم يعلم أنه متى حصل الايمان بالقرآن ، فقد حصل معه الايمان بالرسول عليه الصلاة والسلام أيضاً . واختلفوا فى قوله (ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به) لأن كلمة يؤمن فعل مستقبل وهو يصلح للحال والاستقبال ، فمنهم من حمله على الحال . وقال : المراد إن منهم من يؤمن بالقرآن باطناً ، لكنه يتعمد الجحد وإظهار التكذيب ، ومنهم من باطنه كظاهره فى التكذيب ، ويدخل فيه أصحاب الشبهات ، وأصحاب التقليد ، ومنهم من قال : المراد هو المستقبل . يعنى أن منهم من يؤمن به فى المستقبل بأن يتوب عن الكفر ويبدله بالايمان ومنهم من يصر ويستمر على الكفر .

ثم قال ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ أى هو العالم بأحوالهم فى أنه هل يبقى مصرا على الكفر أو يرجع عنه .

ثم قال ﴿وان كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم﴾ قيل فقل لى عملى الطاعة والايمان . ولكم عملكم الشرك ، وقيل : لى جزاء عملى ولكم جزاء عملكم .

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ «٤٢» وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ «٤٣» إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ «٤٤»

ثم قال ﴿أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون﴾ قيل معنى الآية الزجر والردع ، وقيل بل معناه استمالة قلوبهم . قال مقاتل والكلبي : هذه الآية منسوخة بآية السيف وهذا بعيد ، لأن شرط الناسخ أن يكون رافعا لحكم المنسوخ ، ومدلول هذه الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب ، وذلك لا يقتضى حرمة القتال . فآية القتال مارفعت شيئا من مدلولات هذه الآية فكان القول بالنسخ باطلا .

قوله تعالى ﴿ومنهم من يستمعون اليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾

فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى فى الآية الأولى ، قسم الكفار إلى قسمين . منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ، وفى هذه الآية . قسم من لا يؤمن به قسمين : منهم من يكون فى غاية البغض له والعداوة له . ونهاية النفرة عن قبول دينه ، ومنهم من لا يكون كذلك ، فوصف القسم الأول فى هذه الآية فقال : ومنهم من يستمع كلامك مع أنه يكون كالأصم من حيث أنه لا ينتفع البتة بذلك الكلام فان الانسان إذا قوى بغضه لانسان آخر ، وعظمت نفرته عنه . صارت نفسه متوجهة إلى طلب مقابح كلامه معرضة عن جميع جهات محاسن كلامه . فالصمم فى الأذن ، معنى ينافى حصول ادراك الصوت فكذلك حصول هذا البغض الشديد كالمنافى للوقوف على محاسن ذلك الكلام . والعمى فى العين معنى ينافى حصول إدراك الصورة ، فكذلك البغض ينافى وقوف الانسان على محاسن من يعاديه والوقوف على ما آتاه الله تعالى من الفضائل ، فبين تعالى أن فى أولئك الكفار من بلغت حالته فى البغض والعداوة إلى هذا الحد ، ثم كما أنه لا يمكن جعل الأصم سميعا ولا جعل الأعمى بصيراً ،

فكذلك لا يمكن جعل العدو البالغ فى العداوة إلى هذا الحد صديقاً تابعاً للرسول صلى الله عليه وسلم والمقصود من هذا الكلام تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام بأن هذه الطائفة ، قد بلغوا فى مرض العقل إلى حيث لا يقبلون العـــلاج . والطبيب إذا رأى مريضاً لا يقبل العلاج أعرض عنه ، ولم يستوحش من عدم قبوله للعلاج ، فكذلك وجب عليك أن لا تستوحش من حال هؤلاء الكفار

﴿المسألة الثانية﴾ احتج ابن قتيبة بهذه الآية ، على أن السمع أفضل من البصر . فقال : إن الله تعالى قرن بذهاب السمع ذهاب العقل ، ولم يقرن بذهاب النظر الا ذهاب البصر ، فوجب أن يكون السمع أفضل من البصر . وزيف ابن الانبارى هذا الدليل . فقال : إن الذى نفاه الله مع السمع بمنزلة الذى نفاه الله مع البصر لأنه تعالى أراد إبصار القلوب ، ولم يرد إبصار العيون . والذى يبصره القلب هو الذى يعقله . واحتج ابن قتيبة على هذا المطلوب بحجة أخرى من القرآن ، فقال : كلما ذكر الله السمع والبصر ، فانه فى الأغلب يقدم السمع على البصر ، وذلك يدل على أن السمع أفضل من البصر ومن الناس من ذكر فى هذا الباب دلائل أخرى : فأحدها : أن العمى قد وقع فى حق الأنبياء عليهم السلام . أما الصمم فغير جائز عليهم لأنه يخل بأداء الرسالة ، من حيث أنه إذا لم يسمع كلام السائلين تعذر عليه الجواب . فيعجز عن تبليغ شرائع الله تعالى .

﴿الحجة الثانية﴾ أن القوة السامعة تدرك المسموع من جميع الجوانب ، والقوة الباصرة لا تدرك المرئى إلا من جهة واحدة وهى المقابل .

﴿الحجة الثالثة﴾ أن الانسان إنمـا يستفيد العلم بالتعلم من الأستاذ ، وذلك لا يمكن إلا بقوة السمع ، فاستكمال النفس بالكمالات العلميه لا يحصل إلا بقوة السمع ، ولا يتوقف على قوة البصر ، فكان السمع أفضل من البصر .

﴿الحجة الرابعة﴾ انه تعالى قال (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) والمراد من القلب ههنا العقل ، فجعل السمع قرينا للعقل . ويتأكد هذا بقوله تعالى (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) فجعلوا السمع سبباً للخلاص من عذاب السعير .

﴿الحجة الخامسة﴾ أن المعنى الذى يمتاز به الانسان من سائر الحيوانات . هو النطق والكلام . وانمـا ينتفع بذلك بالقوة السامعة ، فمتعلق السمع النطق الذى به حصل شرف الانسان . ومتعلق البصر ادراك الألوان والاشكال ، وذلك أمر مشترك فيه بين الناس وبين سائر الحيوانات . فوجب أن يكون السمع أفضل من البصر .

﴿الحجة السادسة﴾ أن الأنبياء عليهم السلام يراهم الناس ويسمعون كلامهم ، فنبوتهم ماحصلت بسبب مامعهم من الصفات المرئية ، وإنما حصلت بسبب مامعهم من الأصوات المسموعة . وهو الكلام وتبليغ الشرائع وبيان الأحكام . فوجب أن يكون المسموع أفضل من المرئى ، فلزم أن يكون السمع أفضل من البصر ، فهذا جملة ماتمسك به القائلون بأن السمع أفضل من البصر . ومن الناس من قال : البصر أفضل من السمع ، ويدل عليه وجوه .

﴿الحجة الأولى﴾ أنهم قالوا فى المثل المشهور ليس وراء العيان بيان ، وذلك يدل على أن أكمل وجوه الادراكات هو الأبصار .

﴿الحجة الثانية﴾ ان آلة القوة الباصرة هو النور وآلة القوة السامعة هى الهواء والنور أشرف من الهواء . فالقوة الباصرة أشرف من القوة السامعة .

﴿الحجة الثالثة﴾ ان عجائب حكمة الله تعالى فى تخليق العين التى هى محل الأبصار أكثر من عجائب خلقته فى الأذن التى هى محل السماع ، فانه تعالى جعل تمام روح واحد من الأرواح السبعة الدماغية من العصب آلة للابصار ، وركب العين من سبع طبقات وثلاث رطوبات . وخلق لتحريكات العين عضلات كثيرة على صور مختلفة . والأذن ليس كذلك . وكثرة العناية فى تخليق الشىء تدل على كونه أفضل من غيره .

﴿الحجة الرابعة﴾ أن البصر يرى ماحصل فوق سبع سموات . والسمع لايدرك مابعد منه على فرسخ ، فكان البصر أقوى وأفضل . وبهذا البيان يدفع قولهم إن السمع يدرك من كل الجوانب والبصر لايدرك إلا من الجانب الواحد .

﴿الحجة الخامسة﴾ أن كثيراً من الأنبياء سمع كلام الله فى الدنيا ، واختلفوا فى أنه هل رآه أحد فى الدنيا أم لا ؟ وأيضاً فان موسى عليه السلام سمع كلامه من غير سبق سؤال والتماس ولما سأل الرؤية قال (لن ترانى) وذلك يدل على أن حال الرؤية أعلى من حال السماع .

﴿الحجة السادسة﴾ قال ابن الانبارى : كيف يكون السمع أفضل من البصر وبالبصر يحصل جمال الوجه ، وبذهابه عيبه ، وذهاب السمع لايورث الانسان عيباً ، والعرب تسمى العينين الكريمتين ولاتصف السمع بمثل هذا ؟ ومنه الحديث يقول الله تعالى (من أذهبت كريمته فصبر واحتسب لم أرض له ثوابا دون الجنة)

﴿المسألة الثالثة﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية ، على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، قالوا: الآية دالة على أن قلوب أولئك الكفار بالنسبة إلى الايمان كالاصم بالنسبة إلى استماع الكلام ، وكالأعمى

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ «٤٥» وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ «٤٦»

بالنسبة الى إبصار الاشياء ، وكما أن هذا ممتنع فكذلك ما نحن فيه . قالوا : والذى يقوى ذلك أن حصول العداوة القوية الشديدة ، وكذلك حصول المحبة الشديدة فى القلب ليس باختيار الانسان ، لأن عند حصول هذه العداوة الشديدة يجد وجدانا ضروريا أن القلب يصير كالأصم والأعمى فى استماع كلام العدو وفى مطالعة أفعاله الحسنة ، وإذا كان الأمر كذلك فقد حصل المطلوب ، وأيضاً لما حكم الله تعالى عليها حكما جازما بعدم الايمان ، فحينئذ يلزم من حصول الايمان انقلاب علمه جهلا ، وخبره الصدق كذبا . وذلك محال . واما المعتزلة : فقد احتجوا على صحة قولهم بقوله تعالى (إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون) وجه الاستدلال به ، أنه يدل على أنه تعالى ما ألجأ أحداً الى هذه القبائح والمنكرات ، ولكنهم باختيار أنفسهم يقدمون عليها ويباشرونها .

أجاب الواحدى عنه فقال : إنه تعالى إنما نفى الظلم عن نفسه ، لأنه يتصرف فى ملك نفسه ، ومن كان كذلك لم يكن ظالما ، وإنما قال (ولكن الناس أنفسهم يظلمون) لأن الفعل منسوب إليهم بسبب الكسب .

قوله تعالى ﴿ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فالينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف هؤلاء الكفار بقلة الاصغاء وترك التدبر أتبعه بالوعيد فقال (ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ حفص عن عاصم (يحشرهم) بالياء والباقون بالنون .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (كأن لم يلبثوا) فى موضع الحال ، أى مشابهين من لم يلبث إلا ساعة من النهار . وقوله (يتعارفون) يجوز أن يكون متعلقا بيوم نحشرهم . ويجوز أن يكون حالا بعد حال .

﴿المسألة الثالثة﴾ (كأن) هذه هى المخففة من الثقيلة . التقدير : كأنهم لم يلبثوا ، فخففت كقوله : وكأن قد .

﴿المسألة الرابعة﴾ قيل : كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار وقيل فى قبورهم ، والقرآن وارد بهذين الوجهين . قال تعالى (كم لبثتم فى الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم) قال القاضى : والوجه الأول أولى لوجهين : أحدهما : أن حال المؤمنين كحال الكافرين فى أنهم لا يعرفون مقدار لبثهم بعد الموت إلى وقت الحشر ، فيجب أن يحمل ذلك على أمر يختص بالكفار ، وهو أنهم لما لم ينتفعوا بعمرهم استقلوه ، والمؤمن لما انتفع بعمره فانه لا يستقله . الثانى : أنه قال (يتعارفون بينهم) لأن التعارف إنما يضاف الى حال الحياة لا إلى حال الممات .

﴿المسألة الخامسة﴾ ذكروا فى سبب هذا الاستقلال وجوها : الأول : قال أبو مسلم : لما ضيعوا أعمارهم فى طلب الدنيا والحرص على لذاتها لم ينتفعوا بعمرهم البتة ، فكان وجود ذلك العمر كالعدم ، فلهذا السبب استقلوه . ونظيره قوله تعالى (وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر) الثانى : قال الأصم : قل ذلك عندهم لما شاهدوا من أهوال الآخرة ، والانسان اذا عظم خوفه نسى الأمور الظاهرة . الثالث : أنه قل عندهم مقامهم فى الدنيا فى جنب مقامهم فى الآخرة وفى العذاب المؤبد . الرابع : أنه قل عندهم مقامهم فى الدنيا لطول وقوفهم فى الحشر . الخامس : المراد أنهم عند خروجهم من القبور يتعارفون كما كانوا يتعارفون فى الدنيا ، وكأنهم لم يتعارفوا بسبب الموت إلا مدة قليلة لا تؤثر فى ذلك التعارف . وأقول : تحقيق الكلام فى هذا الباب ، أن عذاب الكافر مضرة خالصة دائمة مقرونة بالاهانة والاذلال ، والاحساس بالمضرة أقوى من الاحساس باللذة بدليل أن أقوى اللذات ، هى لذات الوقاع والشعور بألم القولنج وغيره ، والعياذ بالله تعالى أقوى من الشعور بلذة الوقاع . وأيضاً لذات الدنيا مع خساستها ما كانت خالصة ، بل كانت مخلوطة بالهموم الكثيرة ، وكانت تلك اللذات مغلوبة بالمؤلمات والآفات ، وأيضاً إن لذات الدنيا ماحصلت إلا بعض أوقات الحياة الدنيوية ، وآلام الآخرة أبدية سرمدية لا تنقطع البتة . ونسبة عمر جميع الدنيا إلى الآخرة الأبدية أقل من الجزء الذى لا يتجزأ بالنسبة إلى ألف ألف عالم ، مثل العالم الموجود .

إذا عرفت هذا فنقول : أنه متى قوبلت الخيرات الحاصلة بسبب الحياة العاجلة بالآفات الحاصلة للكافر . وجدت أقل من اللذة بالنسبة إلى جميع العالم . فقوله (كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار) إشارة إلى ما ذكرناه من قلتها وحقارتها فى جنب ماحصل من العذاب الشديد .

أما قوله ﴿يتعارفون بينهم﴾ ففيه وجوه : الأول : يعرف بعضهم بعضاً كما كانوا يعرفون فى الدنيا . الثانى : يعرف بعضهم بعضاً بما كانوا عليه من الخطأ والكفر ، ثم تنقطع المعرفة إذا

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ «٤٧»

عاينوا العذاب وتبرأ بعضهم من بعض .

فان قيل : كيف توافق هذه الآية قوله (ولا يسئل حميم حميما) والجواب عنه من وجهين :

﴿الوجه الأول﴾ أن المراد من هذه الآية أنهم يتعارفون بينهم يوبخ بعضهم بعضاً ، فيقول : كل فريق للآخر أنت أضللتنى يوم كذا وزينت لى الفعل الفلانى من القبائح . فهذا تعارف تقبيح وتعنيف وتباعد وتقاطع ، لاتعارف عطف وشفقة . وأماقوله تعالى (ولا يسئل حميم حميما) فالمراد سؤال الرحمة والعطف .

﴿والوجه الثانى﴾ فى الجواب حمل هاتين الآيتين على حالتين . وهو أنهم يتعارفون إذا بعثوا ثم تنقطع المعرفة ، فلذلك لايسأل حميم حميما .

أما قوله تعالى ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾ ففيه وجهان : الأول : أن يكون التقدير : ويوم يحشرهم حال كونهم متعارفين ، وحال كونهم قائلين . قدخسر الذين كذبوا بلقاءالله . الثانى : أن يكون (قد خسر الذين كذبوا) كلام الله ، فيكون هذا شهادة من الله عليهم بالخسران . والمعنى : أنمن باعآخرته بالدنيا فقد خسر ، لأنهأعطى الكثير الشريفالباقى ، وأخذ القليل الخسيس الفانى .

وأما قوله ﴿وما كانوا مهتدين﴾ فالمراد أنهم مااهتدوا إلى رعاية مصالح هذه التجارة . وذلك لأنهم اغتروا بالظاهر وغفلوا عن الحقيقة ، فصاروا كمن رأى زجاجة حسنة فظنها جوهرةشريفة فاشتراها بكل ماملكه ، فاذا عرضها على الناقدين خاب سعيه وفات أمله ووقع فى حرقة الروع ، وعذاب القلب . وأماقوله (وإما نرينك بعض الذى نعدهم أونتوفيك فالينا مرجعهم) فاعلم أن قوله (فالينامرجعهم) جواب (نتوفينك) وجواب (نرينك) محذوف ، والتقدير : وإما نرينكبعضالذى نعدهم فى الدنيا فذاك أو نتوفينك قبل أننرينك ذلك الموعد ، فانك ستراه فىالآخرة .

واعلم أن هذا يدل على أنه تعالى يرى رسوله أنواعاً من ذل الكافرين وخزيهم فى الدنيا ، وسيزيد عليه بعد وفاته ، ولا شك أنه حصل الكثير منه فى زمان حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وحصل الكثير أيضاً بعد وفاته ، والذى سيحصل يوم القيامة أكثر ، وهو تنبيه على أن عاقبة المحقين محمودة ، وعاقبة المذنبين مذمومة .

قوله تعالى ﴿ولكل أمة رسول فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لايظلمون﴾

اعلم أنه تعالى لما بين حال محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه ، بين أن حال كل الأنبياء مع أقوامهم كذلك . وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ هذه الآية تدل على أن كل جماعة ممن تقدم قد بعث الله إليهم رسولا . والله تعالى ما أهمل أمة من الأمم قط . ويتأكد هذا بقوله تعالى (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير)

فان قيل : كيف يصح هذا مع ما يعلمه من أحوال الفترة ومع قوله سبحانه (لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم)

قلنا : الدليل الذى ذكرناه لا يوجب أن يكون الرسول حاضراً مع القوم ، لأن تقدم الرسول لا يمنع من كونه رسولا إليهم ، كما لا يمنع تقدم رسولنا من كونه مبعوثا الينا إلى آخر الأبد . وتحمل الفترة على ضعف دعوة الأنبياء ووقوع موجبات التخليط فيها .

﴿المسألة الثانية﴾ فى الكلام اضمار ، والتقدير : فاذا جاء رسولهم وبلغ فكذبه قوم وصدقه آخرون قضى بينهم ، أى حكم وفصل .

﴿المسألة الثالثة﴾ المراد من الآية أحد أمرين : إما بيان أن الرسول إذا بعث إلى كل أمة فانه بالتبليغ وإقامة الحجة يزيح كل علة فلا يبقى لهم عذر فى مخالفته أو تكذيبه ، فيدل ذلك على أن ما يجرى عليهم من العذاب فى الآخرة يكون عدلا ولا يكون ظلما ، لأنهم من قبل أنفسهم وقعوا فى ذلك العقاب ، أو يكون المراد أن القوم إذا اجتمعوا فى الآخرة جمع الله بينهم وبين رسولهم فى وقت المحاسبة ، وبان الفصل بين المطيع والعاصى ليشهد عليهم بما شاهد منهم ، وليقع منهم الاعتراف بأنه بلغ رسالات ربه فيكون ذلك من جملة ما يؤكد الله به الزجر فى الدنيا كالمساءلة ، وانطاق الجوارح ، والشهادة عليهم بأعمالهم والموازين وغيرها ، وتمام التقرير على هذا الوجه الثانى أنه تعالى ذكر فى الآية الأولى أن الله شهيد عليهم ، فكأنه تعالى يقول : أنا شهيد عليهم وعلى أعمالهم يوم القيامة ، ومع ذلك فانى أحضر فى موقف القيامة مع كل قوم رسولهم ، حتى يشهد عليهم بتلك الأعمال . والمراد منه المبالغة فى إظهار العدل .

واعلم أن دليل القول الأول هو قوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقوله (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقوله (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا) ودليل القول الثانى قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) إلى قوله (ويكون الرسول عليكم شهيدا) وقوله (وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا) وقوله تعالى (قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) فالتكرير لأجل التأكيد والمبالغة فى نفى الظلم .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَـذَا الْوَعْـدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ «٤٨» قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ «٤٩»

قوله تعالى ﴿ويقولون متى هـذا الوعد إن كنتم صادقين قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾

اعلم أن هذا هو الشبهة الخامسة من شبهات منكرى النبوة فانه عليه السلام كلما هددهم بنزول العذاب ومر زمان ولم يظهر ذلك العذاب . قالوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . واحتجوا بعدم ظهوره على القدح فى نبوته عليه السلام ، وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ أن قوله تعالى (ويقولون متى هذا الوعد) كالدليل على أن المراد مما تقدم من قوله (قضى بينهم بالقسط) القضاء بذلك فى الدنيا ، لأنه لا يجوز أن يقولوا متى هـذا الوعد عند حضورهم فى الدار الآخرة . لأن الحال فى الآخرة حال يقين ومعرفة لحصول كل وعد ووعيد والاظهر أنهم انما قالوا ذلك على وجه التكذيب للرسول عليه السلام فيما أخبرهم من نزول العذاب للأعداء والنصرة للأولياء . أو على وجه الاستبعاد لكونه محقا فى ذلك الاخبار ، ويدل هذا القول على أن كل أمة قالت لرسولها مثل ذلك القول بدليل قوله (ان كنتم صادقين) وذلك لفظ جمع وهو موافق لقوله (ولكل أمة رسول) ثم أنه تعالى أمره بأن يجيب عن هـذه الشبهة بجواب يحسم المادة وهو قوله (قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعا إلا ما شاء الله) والمراد أن إنزال العذاب على الاعداء وإظهار النصرة للأولياء لا يقدر عليه أحد إلا الله سبحانه ، وأنه تعالى ما عين لذلك الوعد والوعيد وقتا معينا حتى يقال : لما لم يحصل ذلك الموعود فى ذلك الوقت . دل على حصول الخلف فكان تعيين الوقت مفوضا إلى الله سبحانه ، اما بحسب مشيئته والهيته عند من لا يعلل أفعاله وأحكامه برعاية المصالح ، واما بحسب المصلحة المقدرة عند من يعلل أفعاله وأحكامه برعاية المصالح ، ثم إذا حضر الوقت الذى وقته الله تعالى لحدوث ذلك الحادث ، فانه لابد وأن يحـدث فيه . ويمتنع عليه التقدم والتأخر .

﴿المسألة الثانية﴾ المعتزلة احتجوا بقوله (قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ماشاء الله)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ «٥٠» أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ «٥١» ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ «٥٢»

فقالوا : هذا الاستثناء يدل على أن العبد لايملك لنفسه ضرا ولا نفعا إلا الطاعة والمعصية ، فهذا الاستثناء يدل على كون العبد مستقلا بهما .

والجواب : قال أصحابنا : هذا الاستثناء منقطع . والتقدير : ولكن ماشاء الله من ذلك كائن .

﴿المسألة الثالثة﴾ قرأ ابن سيرين (فاذا جاء أجلهم)

﴿المسألة الرابعة﴾ قوله (إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولايستقدمون) يدل على أن أحدا لايموت إلا بانقضاء أجله . وكذلك المقتول لايقتل إلا على هذا الوجه ، وهذه مسألة طويلة وقد ذكرناها فى هذا الكتاب فى مواضع كثيرة .

﴿المسألة الخامسة﴾ أنه تعالى قال ههنا (اذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) فقوله (اذا جاء أجلهم) شرط وقوله (فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) جزاء والفاء حرف الجزاء ، فوجب إدخاله على الجزاء كما فى هذه الآية ، وهذه الآية تدل على أن الجزاء يحصل مع حصول الشرط لامتأخرا عنه وأن حرف الفاء لايدل على التراخى وإنما يدل على كونه جزاء .

إذا ثبت هذا فنقول : إذا قال الرجل لامرأة أجنبية إن نكحتك فأنت طالق . قال الشافعى رضى الله عنه : لايصح هذا التعليق ، وقال أبو حنيفة رضى الله عنه : يصح ، والدليل على أنه لايصح أن هذه الآية دلت على أن الجزاء إنما يحصل حال حصول الشرط ، فلو صح هذا التعليق لوجب أن يحصل الطلاق مقارنا للنكاح ، لما ثبت أن الجزاء يجب حصوله مع حصول الشرط ، وذلك يوجب الجمع بين الضدين ، ولما كان هذا اللازم باطلا وجب أن لايصح هذا التعليق .

قوله تعالى ﴿قل أرأيتم ان أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون أثم إذا ماوقع آمنتم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون الا بما كنتم تكسبون﴾

اعلم أن هذا هو الجواب الثانى عن قولهم متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ حاصل الجواب أن يقال لأولئك الكفار الذين يطلبون نزول العذاب بتقدير أن يحصل هذا المطلوب وينزل هذا العذاب ماالفائدة لكم فيه ؟ فان قلتم نؤمن عنده ، فذلك باطل ، لأن الايمان فى ذلك الوقت إيمان حاصل فى وقت الالجاء والقسر ، وذلك لايفيد نفعاً البتة ، فثبت أن هذا الذى تطلبونه لو حصل لم يحصل منه إلا العذاب فى الدنيا ، ثم يحصل عقيبه يوم القيامة عذاب آخر أشد منه ، وهوأنه يقال : للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد ، ثم يقرن بذلك العذاب كلام يدل على الاهانة والتحقير وهو أنه تعالى يقول (هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون) فحاصل هذا الجواب : أن هذا الذى تطلبونه هو محض الضرر العارى عن جهات النفع . والعاقل لايفعل ذلك .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (بياتا) أى ليلا يقال بت ليلتى أفعل كذا ، والسبب فيه أن الانسان فى الليل يكون ظاهراً فى البيت ، فجعل هذا اللفظ كناية عن الليل والبيات مصدر مثل التبييت كالوداع والسراح ، ويقال فى النهار ظللت أفعل كذا ، لأن الانسان فى النهار يكون ظاهراً فى الظل . وانتصب بياتا على الظرف أى وقت بيات وكلمة (ما ذا) فيها وجهان : أحدهما : أن يكون ماذا اسما واحداً ويكون منصوب المحل كما لو قال ماذا أراد الله ، ويجوز أن يكون ذا بمعنى الذى ، فيكون ماذا كلمتين ومحل ما الرفع على الابتداء وخبره ذا وهو بمعنى الذى ، فيكون معناه ما الذى يستعجل منه المجرمون ومعناه ، أى شيء الذى يستعجل من العذاب المجرمون .

واعلم ان قوله (إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا) شرط .

وجوابه : قوله ماذا يستعجل منه المجرمون ، وهو كقولك إن أتيتك ماذا تطعمنى ، يعنى : إن حصل هذا المطلوب ، فأى مقصود تستعجلونه منه .

وأما قوله ﴿أثم إذا ما وقع آمنتم به﴾ فاعلم أن دخول حرف الاستفهام على ثم كدخوله على الواو والفاء فى قوله (أوأمن أهل القرى — أفأمن) وهو يفيد التقريع والتوبيخ ، ثم أخبر تعالى أن ذلك الايمان غير واقع لهم بل يعيرون ويوبخون ، يقال : آلآن تؤمنون وترجون الانتفاع بالايمان مع أنكم كنتم قبل ذلك به تستعجلون على سبيل السخرية والاستهزاء ، وقرئ (آلان) بحذف الهمزة التى بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام .

وأما قوله ﴿ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد﴾ فهو عطف على الفعل المضمر قبل (آلآن) والتقدير : قيل : آلان وقد كنتم به تستعجلون ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ «٥٣» وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ «٥٤»

وأما قوله تعالى ﴿هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون﴾ ففيه ثلاث مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ أنه تعالى أينما ذكر العقاب والعذاب ذكر هذه العلة . كأن سائلا يسأل ويقول : يارب العزة أنت الغنى عن الكل فكيف يليق برحمتك هذا التشديد والوعيد . فهو تعالى يقول «أنا ماعاملته بهذه المعاملة ابتداء بل هذا وصل اليه جزاء على عمله الباطل» وذلك يدل على أن جانب الرحمة راجح غالب ، وجانب العذاب مرجوح مغلوب .

﴿المسألة الثانية﴾ ظاهر الآية يدل على أن الجزاء يوجب العمل ، أما عند الفلاسفة فهو أثر العمل ، لأن العمل الصالح يوجب تنوير القلب ، وإشراقه إيجاب العلة معلولها وأما عند المعتزلة فلأن العمل الصالح يوجب استحقاق الثواب على الله تعالى . وأما عند أهل السنة ، فلأن ذلك الجزاء واجب بحكم الوعد المحض .

﴿المسألة الثالثة﴾ الآية تدل على كون العبد مكتسبا خلافا للجبرية ، وعندنا أن كونه مكتسبا معناه أن مجموع القدرة مع الداعية الخالصة يوجب الفعل والمسألة الطويلة معروفة بدلائلها .

قوله تعالى ﴿ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾

اعلم أنه سبحانه أخبر عن الكفار بقوله (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) وأجاب عنه بما تقدم فحكى عنهم أنهم رجعوا إلى الرسول مرة أخرى فى عين هذه الواقعة وسألوه عن ذلك السؤال مرة أخرى وقالوا : أحق هو واعلم أن هذا السؤال جهل محض من وجوه : أولها : انه قد تقدم هذا السؤال مع الجواب فلا يكون فى الاعادة فائدة . وثانيها : أنه تقدم ذكر الدلالة العقلية على كون محمد رسولا من عند الله ، وهو بيان كون القرآن معجزا ، وإذا صحت نبوته لزم القطع بصحة كل ما يخبر عن وقوعه ، فهذه المعانى توجب الاعراض عنهم ،

وترك الالتفات إلى سؤالهم . واختلفوا فى الضمير فى قوله (أحق هو) قيل : أحق ما جئتنا به من القرآن والنبوة والشرائع . وقيل : ما تعدنا من البعث والقيامة . وقيل : ما تعدنا من نزول العذاب علينا فى الدنيا .

ثم إنه تعالى أمره أن يجيبهم بقوله ﴿قل إى وربى إنه لحق﴾ والفائدة فيه أمور : أحدها : أن يستمليهم ويتكلم معهم بالكلام المعتاد ومن الظاهر أن من أخبر عن شىء ، وأكده بالقسم فقد أخرجه عن الهزل وأدخله فى باب الجد . وثانيها : أن الناس طبقات فمنهم من لا يقر بالشىء الابالبرهان الحقيق ، ومنهم من لا ينتفع بالبرهان الحقيق ، بل ينتفع بالأشياء الاقناعية ، نحو القسم فان الأعرابى الذى جاء الرسول عليه السلام ، وسأل عن نبوته ورسالته اكتفى فى تحقيق تلك الدعوى بالقسم ، فكذا ههنا .

ثم إنه تعالى أكد ذلك بقوله ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ ولا بد فيه من تقدير محذوف . فيكون المراد وما أنتم بمعجزين لمن وعدكم بالعذاب أن ينزله عليكم والغرض منه التنبيه على أن أحداً لا يجوز أن يمانع ربه ويدافعه عما أراد وقضى . ثم إنه تعالى بين أن هذا الجنس من الكلمات ، إنما يجوز عليهم ماداموا فى الدنيا فأما إذا حضروا محفل القيامة وعاينوا قهرالله تعالى ، وآثار عظمته تركوا ذلك واشتغلوا بأشياء أخرى ، ثم إنه تعالى حكى عنهم ثلاثة أشياء : أولها : قوله (ولو أن لكل نفس ظلمت مافى الأرض لافتدت به ، إلا أن ذلك متعذر لأنه فى محفل القيامة . لايملك شيئاً كما قال تعالى (وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً) وبتقدير : أن يملك خزائن الأرض لاينفعه الفداء لقوله تعالى (ولا يؤخذ منها عدل ولاهم ينصرون) وقال فى صفة هذا اليوم (لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة) وثانيها : قوله (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب)

واعلم أن قوله (وأسروا الندامة) جاء على لفظ الماضى . والقيامة من الأمور المستقبلة إلا أنها لما كانت واجبة الوقوع ، جعل الله مستقبلها كالماضى ، واعلم أن الاسرار هو الاخفاء والاظهار وهو من الأضداد ، أما ورود هذه اللفظة بمعنى الاخفاء فظاهر . وأما ورودها بمعنى الاظهار فهو من قولهم . سر الشىء وأسره إذا أظهره .

إذا عرفت هذا فنقول : من الناس من قال : المراد منه إخفاء تلك الندامة . والسبب فى هذا الاخفاء وجوه : الأول : أنهم لما رأوا العذاب الشديد صاروا مبهوتين متحيرين ، فلم يطيقوا عنده بكاء ولاصراخاً سوى أسرار الندم كالحال فيمن يذهب به ليصلب فانه يبقى مبهوتاً متحيراً لا ينطق بكلمة . الثانى : أنهم أسروا الندامة من سفلتهم وأتباعهم حياء منهم ، وخوفاً من توبيخهم .

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ «٥٥» هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ «٥٦»

فان قيل: إن مهابة ذلك الموقف تمنع الانسان عن هذا التدبير فكيف قدموا عليه.

قلنا: إن هذا الكتمان انما يحصل قبل الاحتراق بالنار، فاذا احترقوا تركوا هذا الاخفاء واظهروه بدليل قوله تعالى (قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا) الثالث: أنهم أسروا تلك الندامة لأنهم اخلصوا لله فى تلك الندامة، ومن أخلص فى الدعاء أسره، وفيه تهكم بهم وباخلاصهم يعنى أنهم لما أتوا بهذا الاخلاص فى غير وقته ولم ينفعهم. بل كان من الواجب عليهم أن يأتوا به فى دار الدنيا وقت التكليف، وأما من فسر الاسرار بالاظهار فقوله: ظاهر، لأنهم إنما أخفوا الندامة على الكفر والفسق فى الدنيا لأجل حفظ الرياسة، وفى القيامة بطل هذا الغرض فوجب الاظهار. وثالثها: قوله تعالى (وقضى بينهم بالقسط وهم لايظلمون) فقيل بين المؤمنين والكافرين، وقيل بين الرؤساء والاتباع، وقيل بين الكفار بانزال العقوبة عليهم.

واعلم أن الكفار وإن اشتركوا فى العذاب فانه لابد وأن يقضى الله تعالى بينهم لأنه لايمتنع أن يكون قد ظلم بعضهم بعضا فى الدنيا وخانه، فيكون فى ذلك القضاء تخفيف من عذاب بعضهم، وتثقيل لعذاب الباقين، لأن العدل يقتضى أن ينتصف للمظلومين من الظالمين، ولا سبيل إليه إلا بأن يخفف من عذاب المظلومين ويثقل فى عذاب الظالمين.

قوله تعالى ﴿ألا إن لله ما فى السموات والأرض ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لايعلمون هو يحيي ويميت وإليه ترجعون﴾

اعلم أن من الناس من قال: إن تعلق هذه الآية بما قبلها هو أنه تعالى قال قبل هذه الآية (ولو أن لكل نفس ظلمت مافى الأرض لافتدت به) فلاجرم قال فى هذه الآية ليس للظالم شىء يفتدى به، فان كل الأشياء ملك الله تعالى وملكه، واعلم أن هذا التوجيه حسن، أما الأحسن أن يقال إنا قد ذكرنا أن الناس على طبقات، فمنهم من يكون انتفاعه بالاقناعيات أكثر من انتفاعه بالبرهانيات. أما المحققون فانهم لايلتفتون إلى الاقناعيات، وإنما تعويلهم على الدلائل البينة والبراهين القاطعة، فلما حكى الله تعالى عن الكفار أنهم قالوا: أحق هو؟ أمر الرسول عليه السلام بأن يقول (إى وربى) وهذا جار مجرى الاقناعيات، فلما ذكر ذلك أتبعه بما هو البرهان القاطع

على صحته وتقريره أن القول بالنبوة والقول بصحة المعاد يتفرعان على إثبات الاله القادر الحكيم وأن كل ماسواه فهوملكه وملكه ، فعبرعن هذا المعنى بقوله (ألا إن لله مافى السموات والأرض) ولم يذكر الدليل على صحة هذه القضية ، لأنه تعالى قد استقصى فى تقرير هذه الدلائل فيما سبق من هذه السورة . وهو قوله (إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض) وقوله (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل) فلما تقدم ذكر هذه الدلائل القاهرة اكتفى بذكرها ، وذكر أن كل مافى العالم من نبات وحيوان وجسد وروح وظلمة ونور فهو ملكه وملكه ، ومتى كان الأمر كذلك ، كان قادراً على كل الممكنات ، عالما بكل المعلومات غنياً عن جميع الحاجات ، منزهاً عن النقائص والآفات ، فهو تعالى لكونه قادراً على جميع الممكنات يكون قادراً على إنزال العذاب على الأعداء فى الدنيا وفى الآخرة ويكون قادراً على إيصال الرحمة إلى الأولياء فى الدنيا وفى الآخرة ويكون قادراً على تأييد رسوله عليه السلام بالدلائل القاطعة والمعجزات الباهرة ويكون قادراً على إعلاء شأن رسوله وإظهار دينه وتقوية شرعه ، ولما كان قادراً على كل ذلك فقد بطل الاستهزاء والتعجب . ولما كان منزها عن النقائص والآفات ، كان منزها عن الخلف والكذب وكل ماوعد به فلابد وأن يقع ، هذا إذا قلنا : إنه تعالى لايراعى مصالح العباد ، أما إذا قلنا : إنه تعالى يراعيها . فنقول : الكذب إنما يصدر عن العاقل ، إما للعجز أو للجهل أو للحاجة ، ولما كان الحق سبحانه منزهاً عن الكل كان الكذب عليه محالا ، فلما أخبر عن نزول العذاب بهؤلاء الكفار ، وبحصول الحشر والنشر وجب القطع بوقوعه . فثبت بهذا البيان أن قوله تعالى (ألا إن لله مافى السموات والأرض) مقدمة توجب الجزم بصحة قوله (ألا إن وعد الله حق) ثم قال (ولكن أكثرهم لايعلمون) والمراد أنهم غافلون عن هذه الدلائل ، مغرورون بظواهر الأمور ، فلاجرم بقوا محرومين عن هذه المعارف ، ثم إنه أكد هذه الدلائل فقال (هو يحيي ويميت وإليه ترجعون) والمراد أنه لما قدر على الاحياء فى المرة الأولى فاذا أماته وجب أن يبقى قادراً على إحيائه فى المرة الثانية . فظهر بما ذكرنا أنه تعالى أمر رسوله بأن يقول (إى وربى) ثم إنه تعالى أتبع ذلك الكلام بذكر هذه الدلائل القاهرة .

واعلم أن فى قوله (ألا إن لله مافى السموات والأرض) دقيقة أخرى وهى كلمة (ألا) وذلك لأن هذه الكلمة إنما تذكر عند تنبيه الغافلين وإيقاظ النائمين وأهل هذا العالم مشغولون بالنظر إلى الأسباب الظاهرة . فيقولون البستان للأمير والدار للوزير والغلام لزيد والجارية لعمرو فيضيفون كل شىء إلى مالك آخر والخلق لكونهم مستغرقين فى نوم الجهل ورقدة الغفلة يظنون صحة تلك الاضافات فالحق نادى هؤلاء النائمين الغافلين بقوله (ألا إن الله مافى السموات والأرض) وذلك لأنه

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ «٥٧» قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ «٥٨»

لما ثبت بالعقل أن ماسوى الواحد الأحدالحق ممكن لذاته ، وثبت أن الممكن مستند الى الواجب لذاته إما ابتداء أو بواسطة ، فثبت أن ماسواه ملكه وملكه ، وإذا كان كذلك ، فليس لغيره فى الحقيقة ملك ، فلما كان أكثر الخلق غافلين عن معرفة هذا المعنى غير عالمين به ، لاجرم أمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام أن يذكر هذا النداء ، لعل واحداً منهم يستيقظ من نوم الجهالة ورقدة الضلالة .

قوله تعالى ﴿ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾

فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن الطريق إلى اثبات نبوة الأنبياء عليهم السلام أمران : الأول : أن نقول إن هذا الشخص قد ادعى النبوة وظهرت المعجزة على يده . وكل من كان كذلك ، فهو رسول من عند الله حقاً وصدقاً ، وهذا الطريق مما قد ذكره الله تعالى فى هذه السورة وقرره على أحسن الوجوه فى قوله (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) وقد ذكرنا فى تفسير هذه الآية مايقوى الدين ويورث اليقين ويزيل الشكوك والشبهات ويبطل الجهالات والضلالات .

وأما الطريق الثانى فهو أن نعلم بعقولنا أن الاعتقاد الحق والعمل الصالح ما هو؟ فكل من جاء ودعا الخلق اليه وحملهم عليه وكانت لنفسه قوة قوية فى نقل الناس من الكفر إلى الايمان ، ومن الاعتقاد الباطل إلى الاعتقاد الحق ، ومن الأعمال الداعية إلى الدنيا إلى الأعمال الداعية إلى الآخرة فهو النبى الحق الصادق المصدق ، وتقريره : أن نفوس الخلق قد استولى عليها أنواع النقص والجهل وحب الدنيا ، ونحن نعلم بعقولنا أن سعادة الانسان لاتحصل إلا بالاعتقاد الحق والعمل الصالح ، وحاصله يرجع إلى حرف واحد وهو أن كل ماقوى نفرتك عن الدنيا ورغبتك فى الآخرة فهو

العمل الصالح . وكل ما كان بالضد من ذلك فهو العمل الباطل والمعصية . واذا كان الأمر كذلك كانوا محتاجين الى انسان كامل ، قوى النفس . مشرق الروح ، علوى الطبيعة ، ويكون بحيث يقوى على نقل هؤلاء الناقصين من مقام النقصان إلى مقام الكمال ، وذلك هو النبى . فالحاصل أن الناس أقسام ثلاثة : الناقصون والكاملون الذين لايقدرون على تكميل الناقصين ، والقسم الثالث هو الكامل الذى يقدر على تكميل الناقصين ، فالقسم الأول هو عامة الخلق ، والقسم الثانى هم الأولياء . والقسم الثالث هم الأنبياء ، ولما كانت القدرة على نقل الناقصين من درجة النقصان الى درجة الكمال مراتبها مختلفة ودرجاتها متفاوتة ، لاجرم كانت درجات الأنبياء فى قوة النبوة مختلفة . ولهذا السر : قال النبى صلى الله عليه وسلم «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل»

إذا عرفت هذه المقدمة . فنقول : إنه تعالى لما بين صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بطريق المعجزة ، ففى هذه الآية بين صحة نبوته بالطريق الثانى ، وهذا الطريق طريق كاشف عن حقيقة النبوة معرف لماهيتها ، فالاستدلال بالمعجز ، هو الذى تسميه المنطقيون برهان الأن ، وهذا الطريق هو الطريق الذى يسمونه برهان اللم ، وهو أشرف وأعلى وأكمل وأفضل .

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أنه تعالى وصف القرآن فى هذه الآية بصفات أربعة : أولها : كونه موعظة من عند الله ، وثانيها : كونه شفاء لما فى الصدور . وثالثها : كونه هدى . ورابعها : كونه رحمة للمؤمنين ولابد لكل واحد من هذه الصفات من فائدة مخصوصة . فنقول : إن الأرواح لما تعلقت بالاجساد كان ذلك التعلق بسبب عشق طبيعى وجب للروح على الجسد ، ثم إن جوهر الروح التذ بمشتهيات هذا العالم الجسدانى . وطيباته بواسطة الحواس الخمس . وتمرن على ذلك وألف هذه الطريقة واعتادها . ومن المعلوم أن نور العقل إنما يحصل فى آخر الدرجة ، حيث قويت العلائق الحسية والحوادث الجسدانية ، فصار ذلك الاستغراق سبباً لحصول العقائد الباطلة والأخلاق الذميمة فى جوهر الروح ، وهذه الأحوال تجرى مجرى الأمراض الشديدة لجوهر الروح ، فلابد لها من طبيب حاذق ، فان من وقع فى المرض الشديد ، فان لم يتفق له طبيب حاذق يعالجه بالعلاجات الصائبة مات لامحالة ، وإن اتفق ان صادفه مثل هذا الطبيب ، وكان هذا البدن قابلا للعلاجات الصائبة فربما حصلت الصحة ، وزال السقم .

إذا عرفت هذا فنقول : ان محمداً صلى الله عليه وسلم ، كان كالطبيب الحاذق ، وهذا القرآن عبارة عن مجموع أدويته التى بتركيبها تعالج القلوب المريضة . ثم ان الطبيب إذا وصل إلى المريض فله معه مراتب أربعة .

﴿المرتبة الأولى﴾ أن ينهاه عن تناول مالا ينبغى . ويأمره بالاحتراز عن تلك الأشياء التى بسببها وقع فى ذلك المرض ، وهذا هو الموعظة . فانه لامعنى للوعظ إلا الزجر عن كل مايبعد عن رضوان الله تعالى ، والمنع عن كل ما يشغل القلب بغير الله .

﴿المرتبة الثانية﴾ الشفاء وهو أن يسقيه أدوية تزيل عن باطنه تلك الأخلاط الفاسدة الموجبة للمرض ، فكذلك الأنبياء عليهم السلام اذا منعوا الخلق عن فعل المحظورات صارت ظواهرهم مطهرة عن فعل مالا ينبغى . فحينئذ يأمرونهم بطهارة الباطن وذلك بالمجاهدة فى ازالة الأخلاق الذميمة وتحصيل الأخلاق الحميدة ، وأوائلها ما ذكره الله تعالى فى قوله (إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) وذلك لأنا ذكرنا أن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة جارية مجرى الأمراض ، فاذا زالت فقد حصل الشفاء للقلب وصار جوهر الروح مطهراً عن جميع النقوش المانعة عن مطالعة عالم الملكوت .

﴿والمرتبة الثالثة﴾ حصول الهدى ، وهذه المرتبة لايمكن حصولها الابعد المرتبة الثانية . لأن جوهر الروح الناطقة قابل للجلايا القدسية والأضواء الالهية . وفيض الرحمة عام غير منقطع على ماقال عليه الصلاة والسلام «إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها» وأيضاً فالمنع إنما يكون إما للعجز أو للجهل أو للبخل ، والكل فى حق الحق ممتنع ، فالمنع فى حقه ممتنع ، فعلى هذا عدم حصول هذه الأضواء الروحانية ، إنما كان لأجل أن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة طبعها طبع الظلمة ، وعند قيام الظلمة يمتنع حصول النور ، فاذا زالت تلك الأحوال ، فقد زال العائق فلا بد وأن يقع ضوء عالم القدس فى جوهر النفس القدسية . ولا معنى لذلك الضوء إلا الهدى ، فعند هذه الحالة تصير هذه النفس بحيث قد انطبع فيها نقش الملكوت وتجلى لها قدس اللاهوت ، وأول هذه المرتبة هو قوله (ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك) وأوسطها قوله تعالى (ففروا إلى الله) وآخرها قوله (قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) ومجموعها قوله (ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون) وسيجىء تفسير هذه الآيات فى مواضعها باذن الله تعالى ، وهذه المرتبة هى المراد بقوله سبحانه (وهدى)

﴿وأما المرتبة الرابعة﴾ فهى أن تصير النفس البالغة الى هذه الدرجات الروحانية والمعارج الربانية بحيث تفيض أنوارها على أرواح الناقصين فيض النور من جوهر الشمس على أجرام هذا العالم ، وذلك هو المراد بقوله (ورحمة للمؤمنين) وإنما خص المؤمنين بهذا المعنى . لأن أرواح المعاندين لاتستضىء بأنوار أرواح الأنبياء عليهم السلام ، لأن الجسم القابل للنور عن قرص الشمس

هو الذى يكون وجهه مقابلا لوجه الشمس ، فان لم تحصل هذه المقابلة لم يقع ضوء الشمس عليه ، فكذلك كل روح لما لم تتوجه إلى خدمة أرواح الأنبياء المطهرين ، لم تنتفع بأنوارهم ، ولم يصل اليها آثار تلك الأرواح المطهرة المقدسة ، وكما أن الأجسام التى لاتكون مقابلة لقرص الشمس مختلفة الدرجات والمراتب فى البعد عن هذه المقابلة ولا تزال تتزايد درجات هذا البعد حتى ينتهى ذلك الجسم إلى غاية بعده عن مقابلة قرص الشمس ، فلاجرم يبقى خالص الظلمة ، فكذلك تتفاوت مراتب النفوس فى قبول هذه الأنوار عن أرواح الأنبياء . ولاتزال تتزايد حتى تنتهى إلى النفس التى كملت ظلمتها ، وعظمت شقاوتها وانتهت فى العقائد الفاسدة ، والاخلاق الذميمة إلى أقصى الغايات ، وأبعد النهايات ، فالحاصل أن الموعظة اشارة إلى تطهير ظواهر الخلق عما لاينبغى وهو الشريعة ، والشفاء اشارة إلى تطهير الأرواح عن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة وهو الطريقة . والهدى وهو اشارة إلى ظهور نور الحق فى قلوب الصديقين وهو الحقيقة ، والرحمة وهى اشارة الى كونها بالغة فى الكمال والاشراق الى حيث تصير مكملة للناقصين وهى النبوة ، فهذه درجات عقلية ومراتب برهانية مدلول عليها بهذه الألفاظ القرآنية لايمكن تأخير ماتقدم ذكره ، ولاتقديم ماتأخر ذكره ، ولما نبه الله تعالى فى هذه الآية على هذه الأسرار العالية الآلهية قال (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) والمقصود منه الاشارة الى ماقرره حكماء الاسلام من أن السعادات الروحانية أفضل من السعادات الجسمانية وقد سبق فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب المبالغة فى تقرير هذا المعنى فلا فائدة فى الاعادة انتهى .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) وتقديره : بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ، ثم يقول مرة أخرى (فبذلك فليفرحوا) والتكرير للتأكيد . وأيضاً قوله (فبذلك فليفرحوا) يفيد الحصر ، يعنى يجب أن لايفرح الانسان إلا بذلك . واعلم أن هذا الكلام يدل على أمرين : أحدهما : أنه يجب أن لايفرح الانسان بشىء من الأحوال الجسمانية ، ويدل عليه وجوه : الأول : أن جماعة من المحققين قالوا : لامعنى لهذه اللذات الجسمانية إلا دفع الآلام ، والمعنى العدمى لايستحق أن يفرح به . والثانى : أن بتقدير أن تكون هذه اللذات صفات ثبوتية ، لكنها معنوية من وجوه : الأول : أن التضرر بآلامها أقوى من الانتفاع بلذاتها . ألا ترى أن أقوى اللذات الجسمانية لذة الوقاع ، ولا شك أن الالتذاذ بها أقل مرتبة من الاستضرار بألم القولنج وسائر الآلام القوية . والثانى : أن مداخل اللذات الجسمانية قليلة ، فانه لاسبيل إلى تحصيل اللذات الجسمانية إلا بهذين الطريقين أعنى لذة البطن والفرج . وأما الآلام : فان كل جزء من أجزاء بدن الانسان معه نوع آخر من الآلام ، ولكل نوع منها خاصية ليست للنوع الآخر . والثالث : أن اللذات

الجسمانية لاتكون خالصة البتة . بل تكون ممزوجة بأنواع من المكاره . فلو لم يحصل فى لذة الأكل والوقاع إلا إتعاب النفس فى مقدماتها وفى لواحقها لكفى . الرابع : أن اللذات الجسمانية لاتكون باقية ، فكلما كان الالتذاذ بها أكثر . كانت الحسرات الحاصلة من خوف فواتها أكثر وأشد . ولذلك قال المعرى :

ان حزنا فى ساعة الموت أضعا ف سرور فى ساعة الميلاد

فمن المعلوم أن الفرح الحاصل عند حدوث الولد لايعادل الحزن الحاصل عند موته . الخامس : أن اللذات الجسمانية حال حصولها تكون ممتنعة البقاء ، لأن لذة الأكل لاتبقى بحالها ، بل كما زال ألم الجوع زال الالتذاذ بالأكل ولايمكن استبقاء تلك اللذة . السادس : أن اللذات الجسمانية التذاذ بأشياء خسيسة . فانها التذاذ بكيفيات حاصلة فى أجسام رخوة سريعة الفساد مستعدة للتغير . فاما اللذات الروحانية فانها بالضد فى جميع هذه الجهات ، فثبت أن الفرح باللذات الجسمانية فرح باطل ، وأما الفرح الكامل فهو الفرح بالروحانيات والجواهر المقدسة وعالم الجلال ، ونور الكبرياء .

﴿ والبحث الثانى ﴾ من مباحث هذه الآية أنه إذا حصلت اللذات الروحانية فانه يجب على العاقل أن لايفرح بها من حيث هى هى ، بل يجب أن يفرح بها من حيث أنها من الله تعالى وبفضل الله وبرحمته ، فلهذا السبب قال الصديقون : من فرح بنعمة الله من حيث أنها تلك النعمة فهو مشرك ، أما من فرح بنعمة الله من حيث أنها من الله كان فرحه بالله ، وذلك هو غاية الكمال ونهاية السعادة فقوله سبحانه (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) يعنى فليفرحوا بتلك النعم لا من حيث هى هى ، بل من حيث أنها بفضل الله وبرحمة الله ، فهذه أسرار عالية اشتملت عليها هذه الألفاظ التى ظهرت من عالم الوحى والتنزيل ، هذا ماتلخص عندنا فى هذا الباب ، أما المفسرون فقالوا : فضل الله الاسلام ، ورحمته القرآن . وقال أبو سعيد الخدرى : فضل الله القرآن ، ورحمته أن جعلكم من أهله .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرئ (فلتفرحوا) بالتاء ، قال الفراء : وقد ذكر عن زيد بن ثابت أنه قرأ بالتاء وقال : معناه فبذلك فلتفرحوا يا أصحاب محمد هو خير مما يجمع الكفار ، قال وقريب من هذه القراءة قراءة أبى (فبذلك فافرحوا) والأصل فى الأمر للمخاطب والغائب اللام نحو لتقم يازيد وليقم زيد ، وذلك لأن حكم الأمر فى الصورتين واحد . الا أن العرب حذفوا اللام من فعل المأمور المخاطب لكثرة استعماله ، وحذفوا التاء أيضا وأدخلوا ألف الوصل نحو اضرب واقتل ليقع الابتداء به وكان الكسائى يعيب قولهم فليفرحوا لأنه وجده قليلا فجعله عيبا الا أن ذلك هو الأصل ، وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى بعض المشاهد «لتأخذوا مصافكم» يريد به خذوا ، هذا كله كلام

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ «٥٩» وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ «٦٠»

الفراء . وقرئ (تجمعون) بالتاء ووجهه أنه تعالى عنى المخاطبين والغائبين الا أنه غلب المخاطب على الغائب كما يغلب التذكير على التأنيث ، فكأنه أراد المؤمنين هكذا قاله أهل اللغة وفيه دقيقة عقلية وهو أن الانسان حصل فيه معنى يدعوه الى خدمة الله تعالى والى الاتصال بعالم الغيب ومعارج الروحانيات ، وفيه معنى آخر يدعوه إلى عالم الحس والجسم واللذات الجسدانية . وما دام الروح متعلقا بهـذا الجسد ، فانه لا ينفك عن حب الجسد ، وعن طلب اللذات الجسمانية . فكأنه تعالى خاطب الصديقين العارفين ، وقال : حصلت الخصومة بين الحوادث العقلية الالهية وبين النوازع النفسانية الجسدانية ، والترجيح لجانب العقل . لأنه يدعو إلى فضل الله ورحمته والنفس تدعو إلى جمع الدنيا وشهواتها وفضل الله ورحمته خير لكم مما تجمعون من الدنيا لأن الآخرة خير وأبقى ، وماكان كذلك فهو أولى بالطلب والتحصيل .

قوله تعالى ﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾

وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن الناس ذكروا في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوهاً ، ولا أستحسن واحداً منها . والذي يخطر بالبال والعلم عند الله تعالى وجهان : الأول : أن المقصود من هذا الكلام ذكر طريق ثالث في إثبات النبوة . وتقريره أنه عليه الصلاة والسلام قال للقوم «إنكم تحكمون بحل بعض الأشياء وحرمة بعضها فهذا الحكم تقولونه على سبيل الافتراء على الله تعالى ، أو تعلمون أنه حكم حكم الله به» والأول طريق باطل بالاتفاق ، فلم يبق إلا الثاني ، ثم من المعلوم أنه تعالى ما خاطبكم به من غير واسطة ، ولما بطل هذا ، ثبت أن هذه الأحكام إنما وصلت اليكم بقول رسول أرسله الله اليكم ونبي بعثه الله اليكم ، وحاصل الكلام أن حكمهم بحل بعض الأشياء وحرمة بعضها مع اشتراك الكل في الصفات المحسوسة والمنافع المحسوسة . يدل على اعترافكم بصحة النبوة والرسالة وإذا

كان الأمر كذلك ، فكيف يمكنكم أن تبالغوا هذه المبالغات العظيمة فى إنكار النبوة والرسالة وحمل الآية على هذا الوجه الذى ذكرته طريق حسن معقول .

﴿الطريق الثانى﴾ فى حسن تعلق هذه الآية بما قبلها هو أنه عليه الصلاة والسلام ، لما ذكر الدلائل الكثيرة على صحة نبوة نفسه . وبين فساد سؤالاتهم وشبهاتهم فى انكارها ، أتبع ذلك ببيان فساد طريقتهم فى شرائعهم وأحكامهم وبين أن التمييز بين هذه الأشياء بالحل والحرمة ، مع أنه لم يشهد بذلك لا عقل ولا نقل طريق باطل ومنهج فاسد ، والمقصود إبطال مذاهب القوم فى أديانهم وفى أحكامهم ، وأنهم ليسوا على شىء فى باب من الأبواب .

﴿المسألة الثانية﴾ المراد بالشىء الذى جعلوه حراما ما ذكروه من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وأيضا قوله تعالى (وقالوا هذه أنعام وحرث حجر) إلى قوله (وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) وأيضا قوله تعالى (ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين) والدليل عليه أن قوله (فجعلتم منه حراما) إشارة إلى أمر تقدم منهم ، ولم يحك الله تعالى عنهم إلا هذا ، فوجب توجه هذا الكلام إليه ، ثم لما حكى تعالى عنهم ذلك . قال لرسوله عليه الصلاة والسلام (قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون) وهذه القسمة صحيحة ، لأن هذه الأحكام إما أن تكون من الله تعالى أو لم تكن من الله ، فان كانت من الله تعالى ، فهو المراد بقوله (آلله أذن لكم) وإن كانت ليست من الله . فهو المراد بقوله (أم على الله تفترون)

ثم قال تعالى ﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب﴾ وهذا وان كان فى صورة الاستعلام فالمراد منه تعظيم وعيد من يفترى على الله . وقرأ عيسى بن عمر (وماظن) على لفظ الفعل ومعناه أى ظن ظنوه يوم القيامة وجىء به على لفظ الماضى لما ذكرنا أن أحوال القيامة وإن كانت آتية إلا أنها لما كانت واجبة الوقوع فى الحكمة . ولاجرم عبر الله عنها بصيغة الماضى .

ثم قال ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ أى باعطاء العقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب (ولكن أكثرهم لايشكرون) فلايستعملون العقل فى التأمل فى دلائل الله تعالى ولا يقبلون دعوة أنبياء الله ولاينتفعون باستماع كتب الله .

﴿المسألة الثالثة﴾ ما فى قوله تعالى (قل أرأيتم ماأنزل الله) فيه وجهان : أحدهما : بمعنى الذى فينتصب برأيتم والآخر أن يكون بمعنى أى فى الاستفهام . فينتصب بأنزل وهو قول الزجاج ، ومعنى أنزل ههنا خلق وأنشأ كقوله (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) وجاز أن يعبر عن الخلق بالانزال ، لأن كل ما فى الأرض من رزق فما أنزل من السماء من ضرع وزرع وغيرهما ، فلما كان ايجاده بالأنزال سمى انزالا .

وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ «٦١»

قوله تعالى ﴿وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين﴾

فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه لما أطال الكلام فى أمر الرسول بايراد الدلائل على فساد مذاهب الكفار ، وفى أمره بايراد الجواب عن شبهاتهم ، وفى أمره بتحمل أذاهم ، وبالرفق معهم ذكر هذا الكلام ليحصل به تمام السلوة والسرور للمطيعين ، وتمام الخوف والفزع للمذنبين ، وهو كونه سبحانه عالماً بعمل كل واحد ، وبما فى قلبه من الدواعى والصوارف . فان الانسان ربما أظهر من نفسه نسكا وطاعة وزهدا وتقوى ، ويكون باطنه مملوأ من الخبث وربما كان بالعكس من ذلك . فاذا كان الحق سبحانه عالماً بما فى البواطن كان ذلك من أعظم أنواع السرور للمطيعين ومن أعظم أنواع التهديد للمذنبين .

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أنه تعالى خصص الرسول فى أول هذه الآية بالخطاب فى أمرين ، ثم أتبع ذلك بتعميم الخطاب مع كل المكلفين فى شىء واحد ، أما الأمران المخصوصان بالرسول عليه الصلاة والسلام . فالأول : منهما قوله (وماتكون فى شأن) واعلم أن (ما) ههنا جحد والشأن الخطب والجمع الشؤن ، تقول العرب ماشأن فلان أى ماحاله . قال الأخفش : وتقول ماشأنت شأنه أى ماعملت عمله ، وفيه وجهان : قال ابن عباس : وما تكون يامحمد فى شأن يريد من أعمال البر . وقال الحسن : فى شأن من شأن الدنيا وحوائجك فيها . والثانى : منهما قوله تعالى (وماتتلوا منه من قرآن) واختلفوا فى أن الضمير فى قوله (منه) إلى ماذا يعود؟ وذكروا فيه ثلاثه أوجه : الأول : أنه راجع إلى الشأن لأن تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل هو معظم

شأنه ، وعلى هذا التقدير ، فكان هذا داخلا تحت قوله (وما تكون فى شأن) إلا أنه خصه بالذكر تنبيها على علو مرتبته ، كما فى قوله تعالى (وملائكته وجبريل وميكال) وكما فى قوله (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم) الثانى : أن هذا الضمير عائد إلى القرآن والتقدير : وما تتلو من القرآن من قرآن ، وذلك لأنه كما أن القرآن اسم للمجموع ، فكذلك هو اسم لكل جزء من أجزاء القرآن والاضمار قبل الذكر ، يدل على التعظيم . الثالث : أن يكون التقدير : وما تتلو من قرآن من الله أى نازل من عند الله . وأقول : قوله (وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن) أمران مخصوصان بالرسول صلى الله عليه وسلم .

وأما قوله ﴿ولا تعملون من عمل﴾ فهذا خطاب مع النبى ومع جميع الأمة . والسبب فى أن خص الرسول بالخطاب أولا ، ثم عمم الخطاب مع الكل ، هو أن قوله (وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن) وإن كان بحسب الظاهر خطاباً مختصا بالرسول ، إلا أن الأمة داخلون فيه ومرادون منه ، لأنه من المعلوم أنه اذا خوطب رئيس القوم كان القوم داخلين فى ذلك الخطاب . والدليل عليه قوله تعالى (ياأيها النبى إذا طلقتم النساء) ثم إنه تعالى بعد أن خص الرسول بذينك الخطابين عمم الكل بالخطاب الثالث فقال (ولا تعملون من عمل) فدل ذلك على كونهم داخلين فى الخطابين الأولين .

ثم قال تعالى ﴿إلا كنا عليكم شهودا﴾ وذلك لأن الله تعالى شاهد على كل شىء ، وعالم بكل شىء ، أما على أصول أهل السنة والجماعة ، فالأمر فيه ظاهر ، لأنه لامحدث ولاخالق ولا موجد إلا الله تعالى . فكل مايدخل فى الوجود من أفعال العباد وأعمالهم الظاهرة والباطنة ، فكلها حصلت بايجاد الله تعالى وإحداثه . والموجد للشىء لابد وأن يكون عالما به ، فوجب كونه تعالى عالما بكل المعلومات ، وأما على أصول المعتزلة ، فقد قالوا : إنه تعالى حى وكل من كان حياً ، فانه يصح أن يعلم كل واحد من المعلومات ، والموجب لتلك العالمية ، هو ذاته سبحانه . فنسبة ذاته إلى اقتضاء حصول العالمية ببعض المعلومات كنسبة ذاته إلى اقتضاء حصول العالمية بسائر المعلومات ، فلما اقتضت ذاته حصول العالمية ببعض المعلومات وجب أن تقتضى حصول العالمية بجميع المعلومات ، فثبت كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات .

أما قوله تعالى ﴿إذ تفيضون فيه﴾ فاعلم أن الافاضة ههنا الدخول فى العمل على جهة الانصباب إليه وهو الانبساط فى العمل ، يقال أفاض القوم فى الحديث إذا اندفعوا فيه ، وقد أفاضوا من عرفة إذا دفعوا منه بكثرتهم ، فتفرقوا .

فان قيل (إذ) ههنا بمعنى حين ، فيصير تقدير الكلام إلا كنا عليكم شهوداً حين تفيضون فيه .

وشهادة الله تعالى عبارة عن علمه ، فيلزم منه أن يقال إنه تعالى ماعلم الأشياء إلا عند وجودها وذلك باطل .

قلنا : هذا السؤال بناء على أن شهادة الله تعالى عبارة عن علمه ، وهذا ممنوع . فان الشهادة لاتكون إلا عند وجود المشهود عليه ، وأما العلم ، فلا يمتنع تقدمه على الشيء ، والدليل عليه أن الرسول عليه السلام ، لوأخبرنا عن زيد أنه يأكل غداً كنا من قبل حصول تلك الحالة عالمين بها ولانوصف بكوننا شاهدين لها . واعلم أن حاصل هذه الكلمات أنه لايخرج عن علم الله شيء . ثم إنه تعالى أكد هذا الكلام زيادة تأكيد . فقال (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولاأصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ أصل العزوب من البعد . يقال : كلأ عازب إذا كان بعيد المطلب ، وعزب الرجل بأبله إذا أرسلها إلى موضع بعيد من المنزل ، والرجل سمى عزبا لبعده عن الأهل ، وعزب الشيء عن علمى إذا بعد .

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ الكسائى (وما يعزب) بكسر الزاى . والباقون بالضم ، وفيه لغتان : عزب يعزب ، وعزب يعزب .

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (من مثقال ذرة) أى وزن ذرة . ومثقال الشيء مايساويه فى الثقل ، والمعنى : مايساوى ذرة والذر صغار النمل واحدها ذرة . وهى تكون خفيفة الوزن جدا ، وقوله (فى الأرض ولافى السماء) فالمعنى ظاهر .

فان قيل : لم قدم الله ذكر الأرض ههنا على ذكر السماء مع أنه تعالى قال فى سورة سبأ (عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض) ؟

قلنا : حق السماء أن تقدم على الأرض إلا أنه تعالى لما ذكر فى هذه الآية شهادته على أحوال أهل الأرض وأعمالهم ، ثم وصل بذلك قوله لا يعزب عنه ، ناسب أن تقدم الأرض على السماء فى هذا الموضع .

ثم قال ﴿ولاأصغر من ذلك ولاأكبر﴾ وفيه قراءتان قرأ حمزة (ولاأصغر ولاأكبر) بالرفع فيهما ، والباقون بالنصب .

واعلم أن قوله (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة) تقديره . وما يعزب عن ربك مثقال ذرة فلفظ (مثقال) عند دخول كلمة (من) عليه مجرور بحسب الظاهر ، ولكنه مرفوع فى المعنى ، فالمعطوف عليه ان عطف على الظاهر كان مجروراً إلاأن لفظ أصغر وأكبر غير منصرف ، فكان مفتوحا

وإن عطف على المحل ، وجب كونه مرفوعاً . ونظيره قوله ماأتانى من أحد عاقل وعاقل ، وكذا قوله (مالكم من إله غيره) و(غيره) وقال الشاعر :

فلسنا بالجبال ولا الحديدا

هذا ماذكره النحويون . قال صاحب الكشاف : لو صح هذا العطف لصار تقدير هذه الآية وما يعزب عنه شيء فى الأرض ولا فى السماء إلا فى كتاب : وحينئذ يلزم أن يكون الشيء الذى فى الكتاب خارجا عن علم الله تعالى وإنه باطل .

وأجاب بعض المحققين عنه بوجهين :

﴿الوجه الأول﴾ أنا بينا أن العزوب عبارة عن مطلق البعد .

وإذا ثبت هذا فنقول : الأشياء المخلوقة على قسمين : قسم أوجده الله تعالى ابتداء من غير واسطة كالملائكة والسموات والأرض ، وقسم آخر أوجده الله بواسطة القسم الأول . مثل : الحوادث الحادثة فى عالم الكون والفساد ، ولاشك أن هذا القسم الثانى قد يتباعد فى سلسلة العلية والمعلولية عن مرتبة وجود واجب الوجود فقوله : ومايعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولاأصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ، أى لا يبعد عن مرتبة وجوده مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء إلاوهو فى كتاب مبين . وهو كتاب كتبه الله تعالى وأثبت صور تلك المعلومات فيه ، ومتى كان الأمر كذلك فقد كان عالما بها محيطا بأحوالها ، والغرض منه الرد على من يقول : إنه تعالى غير عالم بالجزئيات ، وهو المراد من قوله (إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون)

﴿والوجه الثانى﴾ فى الجواب أن نجعل كلمة (إلا) فى قوله (إلا فى كتاب مبين) استثناء منقطعا لكن بمعنى هو فى كتاب مبين ، وذكر أبو على الجرجانى صاحب النظم عنه جواباً آخر فقال : قوله (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) ههنا تم الكلام وانقطع . ثم وقع الابتداء بكلام آخر ، وهو قوله (إلا فى كتاب مبين) أى وهو أيضا فى كتاب مبين . قال : والعرب تضع «إلا» موضع «واو النسق» كثيراً على معنى الابتداء . كقوله تعالى (لايخاف لدى المرسلون إلا من ظلم) يعنى ومن ظلم . وقوله (لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا) يعنى والذين ظلموا ، وهذا الوجه فى غاية التعسف .

وأجاب صاحب الكشاف : بوجه رابع . فقال : الاشكال إنما جاء إذا عطفنا قوله (ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) على قوله (من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء) إما بحسب الظاهر أو بحسب المحل ، لكننا لانقول ذلك ، بل نقول: الوجه فى القراءة بالنصب فى قوله (ولا أصغر من ذلك) الحمل

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ «٦٢» الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ «٦٣» لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ «٦٤»

على نفى الجنس . وفى القراءة بالرفع الحمل على الابتداء ، وخبره قوله (فى كتاب مبين) وهذا الوجه اختيار الزجاج :

قوله تعالى ﴿ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾

اعلم أنا بينا أن قوله تعالى (وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن) مما يقوى قلوب المطيعين ، ومما يكسر قلوب الفاسقين فأتبعه الله تعالى بشرح أحوال المخلصين الصادقين الصديقين وهو المذكور فى هذه الآية . وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنا نحتاج فى تفسير هذه الآية إلى أن تبين أن الولى من هو ؟ ثم نبين تفسير نفى الخوف والحزن عنه . فنقول : أما إن الوحى من هو ؟ فيدل عليه القرآن والخبر والأثر والمعقول . أما القرآن ، فهو قوله فى هذه الآية (الذين آمنوا وكانوا يتقون) فقوله (آمنوا) إشارة إلى كمال حال القوة النظرية وقوله (وكانوا يتقون) إشارة إلى كمال حال القوة العملية . وفيه مقام آخر ، وهو أن يحمل الايمان على مجموع الاعتقاد والعمل ، ثم نصف الولى بأنه كان متقياً فى الكل . أما التقوى فى موقف العلم فلأن جلال الله أعلى من أن يحيط به عقل البشر ، فالصديق إذا وصف الله سبحانه بصفة من صفات الجلال . فهو يقدس الله عن أن يكون كماله وجلاله مقتصراً على ذلك المقدار الذى عرفه ووصفه به . وإذا عبد الله تعالى فهو يقدس الله تعالى عن أن تكون الخدمة اللائقة بكبريائه متقدرة بذلك المقدار . فثبت أنه أبداً يكون فى مقام الخوف والتقوى . وأما الأخبار فكثيرة روى عمر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها . فوالله إن وجوههم لنور . وإنهم لعلى منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس . ولا يحزنون إذا حزن الناس» ثم قرأ هذه الآية ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «هم الذين يذكر الله تعالى برؤيتهم» قال أهل التحقيق : السبب فيه أن مشاهدتهم تذكر أمر الآخرة لما يشاهد فيهم من آيات الخشوع والخضوع ، ولما ذكر الله تعالى سبحانه فى قوله (سيماهم فى وجوههم من

أثر السجود . وأما الأثر ، فقال أبو بكر الأصم : أولياء الله هم الذين تولى الله تعالى هدايتهم بالبرهان وتولوا القيام بحق عبودية الله تعالى والدعوة اليه ، وأما المعقول فنقول : ظهر فى علم الاشتقاق أن تركيب الواو واللام والياء يدل على معنى القرب ، فولى كل شىء هو الذى يكون قريبا منه ، والقرب من الله تعالى بالمكان والجهة محال ، فالقرب منه إنما يكون إذا كان القلب مستغرقا فى نور معرفة الله تعالى سبحانه ، فان رأى رأى دلائل قدرة الله ، وإن سمع سمع آيات الله . وإن نطق نطق بالثناء على الله ، وإن تحرك تحرك تحرك فى خدمة الله ، وإن اجتهد اجتهد فى طاعة الله ، فهنا لك يكون فى غاية القرب من الله ، فهذا الشخص يكون ولياً لله تعالى ، وإذا كان كذلك كان الله تعالى ولياً له أيضا كما قال الله تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) ويجب أن يكون الأمر كذلك ، لأن القرب لا يحصل إلا من الجانبين . وقال المتكلمون : ولى الله من يكون آتيا بالاعتقاد الصحيح المبنى على الدليل ويكون آتيا بالأعمال الصالحة على وفق ماوردت به الشريعة ، فهذا كلام مختصر فى تفسير الولى .

وأما قوله تعالى فى صفتهم ﴿لاخوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ ففيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ أن الخوف إنما يكون فى المستقبل بمعنى أنه يخاف حدوث شىء فى المستقبل من المخوف ، والحزن إنما يكون على الماضى إما لأجل أنه كان قد حصل فى الماضى ما كرهه أو لأنه فات شىء أحبه .

﴿البحث الثانى﴾ قال بعض المحققين : ان نفى الحزن والخوف إما أن يحصل للأولياء حال كونهم فى الدنيا أو حال انتقالهم الى الآخرة والأول باطل لوجوه : أحدها : أن هذا لا يحصل فى دار الدنيا لأنها دار خوف وحزن والمؤمن خصوصاً لا يخلو من ذلك على ماقاله الرسول عليه الصلاة والسلام «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» وعلى ماقال «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات» وثانيها : أن المؤمن . وإن صفا عيشه فى الدنيا ، فانه لا يخلو من هم بأمر الآخرة شديد ، وحزن على ما يفوته من القيام بطاعة الله تعالى ، وإذا بطل هذا القسم وجب حمل قوله تعالى (لاخوف عليهم ولاهم يحزنون) على أمر الآخرة ، فهذا كلام محقق ، وقال بعض العارفين : إن الولاية عبارة عن القرب . فولى الله تعالى هو الذى يكون فى غاية القرب من الله تعالى ، وهذا التقرير قد فسرناه باستغراقه فى معرفة الله تعالى بحيث لا يخطر بباله فى تلك اللحظة شىء مما سوى الله ، ففى هذه الساعة تحصل الولاية التامة ، ومتى كانت هذه الحالة حاصلة فان صاحبها لا يخاف شيئاً ، ولا يحزن بسبب شىء . وكيف يعقل ذلك والخوف من الشىء والحزن على الشىء لا يحصل الا بعد الشعور به ، والمستغرق فى نور جلال الله غافل عن كل ماسوى الله تعالى ، فيمتنع أن يكون له خوف أو حزن ؟

وهذه درجة عالية ، ومن لم يذقها لم يعرفها ، ثم إن صاحب هذه الحالة قد تزول عنه الحالة ، وحينئذ يحصل له الخوف والحزن والرجاء والرغبة والرهبة بسبب الأحوال الجسمانية ، كما يحصل لغيره ، وسمعت أن ابراهيم الخواص كان بالبادية ومعه واحد يصحبه ، فاتفق فى بعض الليالى ظهور حالة قوية وكشف تام له ، فجلس فى موضعه وجاءت السباع ووقفوا بالقرب منه ، والمريد تسلق على رأس شجرة خوفا منها . والشيخ ما كان فازعا من تلك السباع . فلما أصبح وزالت تلك الحالة ففى الليلة الثانية وقعت بعوضة على يده فأظهر الجزع من تلك البعوضة ، فقال المريد : كيف تليق هذه الحالة بما قبلها ؟ فقال الشيخ : إنا إنما تحملنا البارحة ما تحملناه بسبب قوة الوارد الغيبى ، فلما غاب ذلك الوارد فأنا أضعف خلق الله تعالى .

﴿المسألة الثانية﴾ قال أكثر المحققين : إن أهل الثواب لايحصل لهم خوف فى محفل القيامة واحتجوا على صحة قولهم بقوله تعالى (ألا إن الله أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون) وبقوله تعالى (لايحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة) وأيضا فالقيامة دار الجزاء فلا يليق به إيصال الخوف ومنهم من قال : بل يحصل فيه أنواع من الخوف ، وذكروا فيه أخباراً تدل عليه الا أن ظاهر القرآن أولى من خبر الواحد .

وأما قوله ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ ففيه ثلاثة أوجه : الأول : النصب بكونه صفة للأولياء والثانى : النصب على المدح . والثالث : الرفع على الابتداء وخبره لهم البشرى .

وأما قوله تعالى ﴿لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾ ففيه أقوال : الأول : المراد منه الرؤيا الصالحة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه قال «البشرى هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم أوترى له» وعنه عليه الصلاة والسلام «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات» وعنه عليه الصلاة والسلام «الرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان ، فاذا حلم أحدكم حلماً يخافه فليتعوذ منه وليبصق عن شماله ثلاث مرات فانه لايضره» وعنه صلى الله عليه وسلم «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» وعن ابن مسعود ، الرؤيا ثلاثة : الهم يهم به الرجل من النهار فيراه فى الليل ، وحضور الشيطان ، والرؤيا التى هى الرؤيا الصادقة . وعن ابراهيم الرؤيا ثلاثة ، فالمبشرة من الله جزء من سبعين جزءاً من النبوة والشىء يهم به أحدكم بالنهار فلعله يراه بالليل والتخويف من الشيطان ، فاذا رأى أحدكم مايحزنه فليقل أعوذ بما عاذت به ملائكة الله من شر رؤياى التى رأيتها أن تضرنى فى دنياى أو فى آخرتى

واعلم أنا إذا حملنا قوله (لهم البشرى) على الرؤيا الصادقة فظاهر هذا النص يقتضى أن لاتحصل هذه الحالة إلا لهم والعقل أيضا يدل عليه ، وذلك لأن ولى الله هو الذى يكون مستغرق القلب

والروح بذكر الله ، ومن كان كذلك فهو عند النوم لايبقى فى روحه إلا معرفة الله . ومن المعلوم أن معرفة الله و نور جلال الله لايفيده إلا الحق والصدق ، وأما من يكون متوزع الفكر على أحوال هذا العالم الكدر المظلم ، فانه إذا نام يبقى كذلك ، فلا جرم لااعتماد على رؤياه ، فلهذا السبب . قال (لهم البشرى فى الحياة الدنيا) على سبيل الحصر والتخصيص .

﴿القول الثانى﴾ فى تفسير البشرى ، أنها عبارة عن محبة الناس له وعن ذكرهم إياه بالثناء الحسن عن أبى ذر . قال ؟ قلت يارسول الله إن الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس . فقال «تلك عاجل بشرى المؤمن»

واعلم أن المباحث العقلية تقوى هذا المعنى ، وذلك أن الكمال محبوب لذاته لالغيره ، وكل من اتصف بصفة من صفات الكمال ، صار محبوبا لكل أحد . ولا كمال للعبد أعلى وأشرف من كونه مستغرق القلب بمعرفة الله ، مستغرق اللسان بذكر الله . مستغرق الجوارح والأعضاء بعبودية الله ، فاذا ظهر عليه أمر من هذا الباب ، صارت الألسنة جارية بمدحه ، والقلوب مجبولة على حبه ، وكلما كانت هذه الصفات الشريفة أكثر ، كانت هذه المحبة أقوى . وأيضا فنور معرفة الله مخدوم بالذات ، ففى أى قلب حضر صار ذلك الانسان مخدوما بالطبع ألاترى أن البهائم والسباع قد تكون أقوى من الانسان ، ثم إنها إذا شاهدت الانسان هابته وفرت منه وما ذاك إلا لمهابة النفس الناطقة .

﴿والقول الثالث﴾ فى تفسير البشرى أنها عبارة عن حصول البشرى لهم عند الموت قال تعالى (تتنزل عليهم الملائكة أن لاتخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة) وأما البشرى فى الآخرة فسلام الملائكة عليهم كما قال تعالى (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) وسلام الله عليهم كما قال (سلام قولا من رب رحيم) ويندرج فى هذا الباب ماذكره الله فى هذا الكتاب الكريم من بياض وجوههم وإعطاء الصحائف بأيمانهم وما يلقون فيها من الأحوال السارة فكل ذلك من المبشرات .

﴿والقول الرابع﴾ إن ذلك عبارة عما بشر الله عباده المتقين فى كتابه وعلى ألسنة أنبيائه من جنته وكريم ثوابه . ودليله قوله (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان)

واعلم أن لفظ البشارة مشتق من خبر سار يظهر أثره فى بشرة الوجه ، فكل ماكان كذلك دخل فى هذه الآية ، ومجموع الأمور المذكورة مشتركة فى هذه الصفة ، فيكون الكل داخلا فيه فكل مايتعلق من هذه الوجوه بالدنيا فهو داخل تحت قوله (لهم البشرى فى الحياة الدنيا) وكل مايتعلق بالآخرة فهو داخل تحت قوله (وفى الآخرة) ثم إنه تعالى لما ذكر صفة أولياء الله وشرح أحوالهم

وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «٦٥» أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ «٦٦»

قال تعالى (لا تبديل لكلمات الله) والمراد أنه لا خلف فيها ، والكلمة والقول سواء . ونظيره قوله (ما يبدل القول لدى) وهذا أحد ما يقوى أن المراد بالبشرى وعد الله بالثواب والكرامة لمن أطاعه بقوله (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان) ثم بين تعالى أن (ذلك هو الفوز العظيم) وهو كقوله تعالى (وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا) ثم قال القاضى : قوله (لا تبديل لكلمات الله) يدل على أنها قابلة للتبديل ، وكل ما قبل العدم امتنع أن يكون قديما . ونظير هذا ، الاستدلال بحصول النسخ على أن حكم الله تعالى لا يكون قديما . وقد سبق الكلام على أمثال هذه الوجوه :

قوله تعالى ﴿ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾

اعلم أن القوم لما أوردوا أنواع الشبهات التى حكاها الله تعالى عنهم فيما تقدم من هذه السورة وأجاب الله عنها بالأجوبة التى فسرناها وقررناها ، عدلوا الى طريق آخر ، وهو أنهم هددوه وخوفوه وزعموا أنا أصحاب التبع والمال ، فنسعى فى قهرك وفى إبطال أمرك ، والله سبحانه أجاب عن هذا الطريق بقوله (ولا يحزنك قولهم ان العزة لله جميعاً)

واعلم أن الانسان انما يحزن من وعيد الغير وتهديده ومكره وكيده ، لوجوز كونه مؤثرا فى حاله ، فاذا علم من جهة علام الغيوب أن ذلك لا يؤثر ، خرج من أن يكون سببا لحزنه . ثم إنه تعالى كما أزال عن الرسول حزن الآخرة بسبب قوله (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فكذلك أزال حزن الدنيا بقوله (ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً) فاذا كان الله تعالى هو الذى أرسله الى الخلق وهو الذى أمره بدعوتهم الى هذا الدين كان لا محالة ناصراً له ومعيناً . ولما ثبت أن العزة والقهر والغلبة ليست إلا له . فقد حصل الأمن وزال الخوف .

فان قيل : فكيف آمنه من ذلك ولم يزل خائفاً حتى احتاج الى الهجرة والهرب ، ثم من بعد ذلك يخاف حالا بعد حال ؟

قلنا : إن الله تعالى وعده الظفر والنصرة مطلقاً والوقت ما كان معيناً ، فهو فى كل وقت كان يخاف من أن لا يكون هذا الوقت المعين ذلك الوقت ، فحينئذ يحصل الانكسار والانهزام فى هذا الوقت .

وأما قوله تعالى ﴿إن العزة لله جميعاً﴾ ففيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ قال القاضى : إن العزة بالألف المكسورة وفى فتحها فساد يقارب الكفر لأنه يؤدى الى أن القوم كانوا يقولون (إن العزة لله جميعاً) وأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يحزنه ذلك . أما اذا كسرت الألف كان ذلك استئنافا ، وهذا يدل على فضيلة علم الاعراب . قال صاحب الكشاف : وقرأ أبو حيوة (أن العزة) بالفتح على حذف لام العلة يعنى : لأن العزة على صريح التعليل .

﴿البحث الثانى﴾ فائدة (إن العزة لله) فى هذا المقام أمور : الأول : المراد منه أن جميع العزة والقدرة هى لله تعالى يعطى ما يشاء لعباده ، والغرض منه أنه لايعطى الكفار قدرة عليه ، بل يعطيه القدرة عليهم حتى يكون هو بذلك أعز منهم ، فآمنه الله تعالى بهذا القول من إضرار الكفار به بالقتل والايذاء ، ومثله قوله تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ـ إنا لننصر رسلنا) الثانى : قال الأصم : المراد أن المشركين يتعززون بكثرة خدمهم وأموالهم ويخوفونك بها وتلك الأشياء كلها لله تعالى . فهو القادر على أن يسلب منهم كل تلك الأشياء وأن ينصرك وينقل أموالهم وديارهم اليك .

فان قيل : قوله (إن العزة لله جميعا) كالمضادة لقوله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)

قلنا : لامضادة ، لأن عزة الرسول والمؤمنين كلها بالله فهى لله .

أما قوله ﴿هو السميع العليم﴾ أى يسمع مايقولون ويعلم مايعزمون عليه وهو يكافئهم بذلك .

وأما قوله ﴿ألا ان لله من فى السموات ومن فى الأرض﴾ ففيه وجهان : الأول : أنه تعالى ذكر فى الآيات المتقدمة (ألا إن لله مافى السموات والأرض) وهذا يدل على أن كل مالا يعقل فهو ملك لله تعالى وملك له ، وأما ههنا فكلمة (من) مختصة بمن يعقل ، فتدل على أن كل العقلاء داخلون تحت ملك الله وملكه فيكون مجموع الآيتين دالا على أن الكل ملكه وملكه . والثانى : أن المراد (من فى السموات) العقلاء المميزون وهم الملائكة والثقلان . وانما خصهم بالذكر ليدل على أن

هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ «٦٧»

هؤلاء إذا كانوا له وفى ملكه فالجمادات أولى بهذه العبودية فيكون ذلك قدحا فى جعل الأصنام شركاء لله تعالى .

ثم قال تعالى ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون الا الظن﴾ وفى كلمة (ما) قولان : الأول : أنه نفى وجحد ، والمعنى أنهم ما اتبعوا شريك الله تعالى إنما اتبعوا شيئا ظنوه شريكا لله تعالى . ومثاله أن أحدنا لو ظن أن زيدا فى الدار وما كان فيها ، فخاطب إنسانا فى الدار ظنه زيدا فانه لا يقال : إنه خاطب زيدا بل يقال خاطب من ظنه زيدا . الثانى : أن (ما) استفهام ، كأنه قيل : أى شىء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، والمقصود تقبيح فعلهم يعنى أنهم ليسوا على شىء .

ثم قال تعالى ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾ والمعنى أنهم إنما اتبعوا ظنونهم الباطلة وأوهامهم الفاسدة ، ثم بين أن هذا الظن لا حكم له (وإن هم إلا يخرصون) وذكرنا معنى الخرص فى سورة الأنعام عند قوله (إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون)

قوله تعالى ﴿هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾

إعلم أنه تعالى لما ذكر قوله (إن العزة لله جميعا) احتج عليه بهذه الآية ، والمعنى أنه تعالى جعل الليل ليزول التعب والكلال بالسكون فيه ، وجعل النهار مبصرا أى مضيئا لتهتدوا به فى حوائجكم بالأبصار . والمبصر الذى يبصر ، والنهار يبصر فيه ، وإنما جعله مبصرا على طريق نقل الاسم من السبب الى المسبب .

فان قيل : إن قوله (هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) يدل على أنه تعالى ماخلقه إلا لهذا الوجه ، وقوله (إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) يدل على أنه تعالى أراد بتخليق الليل والنهار أنواعا كثيرة من الدلائل .

قلنا : إن قوله تعالى (لتسكنوا) لا يدل على أنه لا حكمة فيه إلا ذلك ، بل ذلك يقتضى حصول تلك الحكمة .

قَالُوا اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ «٦٨»

أما قوله تعالى ﴿إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ فالمراد يتدبرون مايسمعون ويعتبرون به .

قوله تعالى ﴿قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى له مافى السموات ومافى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله مالا تعلمون﴾

اعلم أن هـذا نوع آخر من الأباطيل التى حكاها الله تعالى عن الكفار وهى قولهم (اتخذ الله ولدا) ويحتمل أن يكون المراد حكاية قول من يقول : الملائكة بنات الله ، ويحتمل أن يكون المراد قول من يقول : الأوثان أولاد الله ، ويحتمل أن يكون قد كان فيهم قوم من النصارى قالوا ذلك . ثم انه تعالى لما استنكر هذا القول قال بعده (هو الغنى له مافى السموات ومافى الأرض)

واعلم أن كونه تعالى غنياً مالكا لكل مافى السموات والأرض يدل على أنه يستحيل أن يكون له ولد ، وبيان ذلك من وجوه : الأول : أنه سبحانه غنى مطلقاً على مافى هذه الآية ، والعقل أيضاً يدل عليه، لأنه لو كان محتاجا لافتقر الى صانع آخر، وهو محال . وكل من كان غنياً فانه لا بد أن يكون فرداً منزهاً عن الأجزاء والأبعاض ، وكل من كان كذلك امتنع أن ينفصل عنه جزء من أجزائه ، والولد عبارة عن أن ينفصل جزء من أجزاء الانسان ، ثم يتولد عن ذلك الجزء مثله ، وإذا كان هذا محالا ثبت أن كونه تعالى غنياً يمنع ثبوت الولد له .

﴿الحجة الثانية﴾ أنه تعالى غنى وكل من كان غنياً كان قديماً أزلياً باقياً سرمدياً ، وكل من كان كذلك ، امتنع عليه الانقراض والانقضاء ، والولد انما يحصل للشىء الذى ينقضى ، وينقرض ، فيكون ولده قائماً مقامه ، فثبت أن كونه تعالى غنياً ، يدل على أنه يمتنع أن يكون له ولد .

﴿الحجة الثالثة﴾ أنه تعالى غنى وكل من كان غنياً فانه يمتنع أن يكون موصوفا بالشهوة واللذة واذا امتنع ذلك امتنع أن يكون له صاحبة وولد .

﴿الحجة الرابعة﴾ أنه تعالى غنى ، وكل من كان غنياً امتنع أن يكون له ولد ، لأن اتخاذ الولد انما يكون فى حق من يكون محتاجا حتى يعينه ولده على المصالح الحاصلة والمتوقعة ، فمن كان غنياً مطلقاً امتنع عليه اتخاذ الولد .

﴿الحجة الخامسة﴾ ولد الحيوان إنما يكون ولدا له بشرطين : إذا كان مساوياً له فى الطبيعة والحقيقة ، ويكون ابتداء وجوده وتكونه منه . وهذا فى حق الله تعالى محال ، لأنه تعالى غنى مطلقاً ، وكل من كان غنياً مطلقاً كان واجب الوجود لذاته ، فلو كان لواجب الوجود ولد ، لكان ولده مساوياً له . فيلزم أن يكون ولد واجب الوجود أيضاً واجب الوجود ، لكن كونه واجب الوجود يمنع من تولده من غيره . وإذا لم يكن متولداً من غيره لم يكن ولداً ، فثبت أن كونه تعالى غنياً من أقوى الدلائل على أنه تعالى لاولد له ، وهذه الثلاثة مع الثلاثة الأول فى غاية القوة .

﴿الحجة السادسة﴾ أنه تعالى غنى ، وكل من كان غنياً امتنع أن يكون له أب وأم ، وكل من تقدس عن الوالدين وجب أن يكون مقدساً عن الأولاد .

فان قيل : يشكل هذا بالوالد الأول ؟

قلنا : الوالد الأول لايمتنع كونه ولداً لغيره ، لأنه سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق الوالد الأول من أبوين يقدمانه . أما الحق سبحانه فانه يمتنع افتقاره إلى الأبوين ، وإلا لما كان غنياً مطلقاً .

﴿الحجة السابعة﴾ إنه تعالى غنى مطلقاً ، وكل من كان غنياً مطلقاً امتنع أن يفتقر فى احداث الأشياء إلى غيره .

اذا ثبت هذا فنقول : هذا الولد ، اما أن يكون قديماً أو حادثاً ، فان كان قديماً فهو واجب الوجود لذاته ، إذ لو كان ممكن الوجود لافتقر إلى المؤثر ، وافتقار القديم إلى المؤثر يقتضى إيجاد الموجود وهو محال ، وإذا كان واجب الوجود لذاته لم يكن ولداً لغيره ، بل كان موجودا مستقلا بنفسه ، وأما ان كان هذا الولد حادثاً والحق سبحانه غنى مطلقا فكان قادرا على احداثه ابتداء من غير تشريك شىء آخر ، فكان هذا عبداً مطلقاً ، ولم يكن ولداً ، فهذه جملة الوجوه المستنبطة من قوله (هو الغنى) الدالة على أنه يمتنع أن يكون له ولد .

أما قوله ﴿له مافى السموات ومافى الأرض﴾ فاعلم أنه نظير قوله (إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً) وحاصله يرجع الى أن ماسوى الواحد الأحد الحق ممكن ، وكل ممكن محتاج ، وكل محتاج محدث ، فكل ماسوى الواحد الأحد الحق محدث ، والله تعالى محدثه وخالقه وموجده . وذلك يدل على فساد القول باثبات الصاحبة والولد . ولما بين تعالى بالدليل الواضح امتناع ماأضافوا اليه ، عطف عليهم بالانكار والتوبيخ فقال (ان عندكم من سلطان بهذا) منبهاً بهذا على أنه لاحجة عندهم فى ذلك البتة . ثم بالغ فى ذلك الانكار فقال (أتقولون على الله مالاتعلمون) وقد

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ «٦٩» مَتَاعٌ فِى الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ «٧٠» وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِى

ذكرنا أن هذه الآية يحتج بها فى إبطال التقليد فى أصول الديانات . ونفاة القياس وأخبار الآحاد قد يحتجون بها فى ابطال هذين الأصلين وقد سبق الكلام فيه .

قوله تعالى ﴿قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾

اعلم أنه تعالى لما بين بالدليل القاهر أن اثبات الولد لله تعالى قول باطل . ثم بين أنه ليس لهذا القائل دليل على صحة قوله ، فقد ظهر أن ذلك المذهب افتراء على الله ونسبة لما لا يليق به اليه ، فبين أن من هذا حاله فانه لا يفلح البتة . ألا ترى أنه تعالى قال فى أول سورة المؤمنون (قد أفلح المؤمنون) وقال فى آخر هذه السورة (انه لا يفلح الكافرون)

واعلم أن قوله (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) يدخل فيه هذه الصورة ولكنه لا يختص بهذه الصورة بل كل من قال فى ذات الله تعالى وفى صفاته قولا بغير علم وبغير حجة بينة كان داخلا فى هذا الوعيد ، ومعنى قوله (لا يفلح) قد ذكرناه فى أول سورة البقره فى قوله تعالى (وأولئك هم المفلحون) وبالجملة فالفلاح عبارة عن الوصول إلى المقصود والمطلوب ، فمعنى أنه لا يفلح هو أنه لا ينجح فى سعيه ولا يفوز بمطلوبه بل خاب وخسر ، ومن الناس من إذا فاز بشىء من المطالب العاجلة والمقاصد الخسيسة ، ظن أنه قد فاز بالمقصد الأقصى ، والله سبحانه أزال هذا الخيال بأن قال : إن ذلك المقصود الخسيس متاع قليل فى الدنيا ، ثم لابد من الموت ، وعند الموت لابد من الرجوع الى الله وعند هذا الرجوع لابد من أن يذيقه العذاب الشديد بسبب ذلك الكفر المتقدم ، وهذا كلام فى غاية الانتظام ونهاية الحسن والجزالة . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الى

وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ «٧١» فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ «٧٢»

ولا تنظرون فان توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾

اعلم أنه سبحانه لما بالغ فى تقرير الدلائل والبينات ، وفى الجواب عن الشبه والسؤالات ، شرع بعد ذلك فى بيان قصص الأنبياء عليهم السلام لوجوه : أحدها : أن الكلام إذا أطال فى تقرير نوع من أنواع العلوم . فربما حصل نوع من أنواع الملالة فاذا انتقل الانسان من ذلك الفن من العلم الى فن آخر، انشرح صدره وطاب قلبه ووجد فى نفسه رغبة جديدة وقوة حادثة وميلا قوياً . وثانيها : ليكون للرسول عليه الصلاة والسلام ولأصحابه أسوة بمن سلف من الأنبياء ، فان الرسول إذا سمع أن معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ما كانت إلا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه ، كما يقال : المصيبة إذا عمت خفت . وثالثها : أن الكفار إذا سمعوا هذه القصص ، وعلموا أن الجهال وإن بالغوا فى ايذاء الأنبياء المتقدمين الا أن الله تعالى أعانهم بالآخرة ونصرهم وأيدهم وقهر أعداءهم ، كان سماع هؤلاء الكفار لأمثال هذه القصص سبباً لانكسار قلوبهم . ووقوع الخوف والوجل فى صدورهم ، وحينئذ يقللون من أنواع الايذاء والسفاهة . ورابعها : أنا قد دللنا على أن محمداً عليه الصلاة والسلام لما لم يتعلم علماً ، ولم يطالع كتاباً . ثم ذكر هذه الأقاصيص من غير تفاوت ، ومن غير زيادة ومن غير نقصان ، دل ذلك على أنه صلى الله عليه وسلم إنما عرفها بالوحى والتنزيل .

واعلم أنه تعالى ذكر فى هذه السورة من قصص الأنبياء عليهم السلام ثلاثة .

﴿فالقصة الأولى﴾ قصة نوح عليه السلام ، وهى المذكورة فى هذه الآية . وفيها وجهان من الفائدة : الأول : أن قوم نوح عليه السلام لما أصروا على الكفر والجحد عجل الله هلاكهم بالغرق . فذكر الله تعالى قصتهم لتصير تلك القصة عبرة لهؤلاء الكفار ، وداعية الى مفارقة الجحد بالتوحيد والنبوة . والثانى : أن كفار مكة كانوا يستعجلون العذاب الذى يذكره الرسول عليه

السلام لهم وكانوا يقولون له كذبت ، فانه ماجاءنا هذا العذاب ، فالله تعالى ذكرلهم قصة نوح عليه السلام لأنه عليه السلام كان يخوفهم بهذا العذاب وكانوا يكذبونه فيه ، ثم بالآخرة وقع كما أخبر فكذا ههنا .

﴿المسألة الثانية﴾ أن نوحا عليه السلام السلام قال لقومه (ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت) وهذا جملة من الشرط والجزاء ، أما الشرط ، فهو مركب من قيدين :

﴿القيد الأول﴾ قوله (ان كان كبر عليكم مقامى) قال الواحدى : فى البسيط يقال : كبر يكبر كبرا فى السن ، وكبرالأمر والشىء اذاعظم يكبر كبرا وكبارة . قال ابن عباس : ثقل عليكم وشق عليكم وعظم أمره عندكم والمقام بفتح الميم مصدر كالاقامة . يقال : أقام بين أظهرهم مقاما واقامة ، والمقام بضم الميم الموضع الذى يقام فيه ، وأراد بالمقام ههنا مكثه ولبثه فيهم وبالجملة فقوله (كبر عليكم مقامى) جار مجرى قولهم : فلان ثقيل الظل .

واعلم أن سبب هذا الثقل أمران : أحدهما : أنه عليه السلام مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما . والثانى : أن أولئك الكفار كانوا قدألفوا تلك المذاهب الفاسدة والطرائق الباطلة . والغالب أن من ألف طريقة فى الدين فانه يثقل عليه أن يدعى الى خلافها ، ويذكر له ركاكتها ، فان اقترن بذلك طول مدة الدعاء كان أثقل وأشد كراهية ، فان اقترن به إيراد الدلائل القاهرة على فساد ذلك المذهب كانت النفرة أشد فهذا هو السبب فى حصول ذلك الثقل .

﴿والقيد الثانى﴾ هو قوله (وتذكيرى بآيات الله)

واعلم أن الطباع المشغوفة بالدنيا الحريصة على طلب اللذات العاجلة تكون شديدة النفرة عن الأمر بالطاعات والنهى عن المعاصى والمنكرات ، قوية الكراهة لسماع ذكر الموت وتقبيح صورة الدنيا ومن كان كذلك فانه يستثقل الانسان الذى يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر وفى الآية وجه آخر وهو أن يكون قوله (إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله) معناه أنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم ظاهراً وكلامهم مسموعا ، كما يحكى عن عيسى عليه السلام أنه كان يعظ الحواريين قائما وهم قعود .

واعلم أن هذا هو الشرط المذكور فى هذه الآية ، أما الجزاء ففيه قولان :

﴿القول الأول﴾ أن الجزاء هو قوله (فعلى الله توكلت) يعنى أن شدة بغضكم لى تحملكم على الاقدام على ايذائى وأنا لا أقابل ذلك الشر إلا بالتوكل على الله .

واعلم أنه عليه السلام كان أبداً متوكلا على الله تعالى ، وهذا اللفظ يوهم أنه توكل على الله فى هذه الساعة ، لكن المعنى أنه انما توكل على الله فى دفع هذا الشر فى هذه الساعة .

﴿والقول الثانى﴾ وهو قول الأكثرين إن جواب الشرط هو قوله (فأجمعوا أمركم وشركاءكم) وقوله (فعلى الله توكلت) كلام اعترض به بين الشرط وجوابه كما تقول فى الكلام ان كنت أنكرت على شيئاً فالله حسبي فاعمل ماتريد ، واعلم أن جواب هذا الشرط مشتمل على قيود خمسة على الترتيب .

﴿القيد الأول﴾ قوله (فأجمعوا أمركم) وفيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ قال الفراء : الاجماع الاعداد والعزيمة على الأمر وأنشد :

يا ليت شعرى والمنى لاينفع هل اغدون يوما وأمرى مجمع

فاذا أردت جمع التفرق قلت : جمعت القوم فهم مجموعون . وقال أبو الهيثم : أجمع أمره ، أى جعله جميعاً بعد ماكان متفرقا ، قال : وتفرقه ، أى جعل يتدبره فيقول : مرة أفعل كذا ومرة أفعل كذا فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه ، أى جعله جميعاً فهذا هو الأصل فى الاجماع ، ومنه قوله تعالى (وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم) ثم صار بمعنى العزم حتى وصل بعلى فقيل : أجمعت على الأمر ، أى عزمت عليه ، والأصل أجمعت الأمر .

﴿البحث الثانى﴾ روى الأصمعى عن نافع (فاجمعوا أمركم) بوصل الألف من الجمع وفيه وجهان : الأول : قال أبو علي الفارسى : فاجمعوا ذوى الأمر منكم فحذف المضاف ، وجرى على المضاف إليه ماكان يجرى على المضاف لو ثبت . الثانى : قال ابن الأنبارى : المراد من الأمر ههنا وجوه كيدهم ومكرهم ، فالتقدير : ولاتدعوا من أمركم شيئاً إلا أحضرتموه .

﴿والقيد الثانى﴾ قوله (وشركاءكم) وفيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ الواو ههنا بمعنى مع ، والمعنى : فأجمعوا أمركم مع شركائكم . ونظيره قولهم لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها ، ولو خليت نفسك والأسد لأكلك .

﴿البحث الثانى﴾ يحتمل أن يكون المراد من الشركاء الأوثان التى سموها بالآلهة ، ويحتمل أن يكون المراد منها من كان على مثل قولهم ودينهم . فان كان المراد هو الأول فانما حث الكفار على الاستعانة بالأوثان بناء على مذهبهم من أنها تضر وتنفع ، وان كان المراد هو الثانى فوجه الاستعانة بها ظاهر .

﴿البحث الثالث﴾ قرأ الحسن وجماعة من القراء (وشركاؤكم) بالرفع عطفاً على الضمير

المرفوع ، والتقدير : فأجمعوا أنتم وشركاؤكم . قال الواحدى : وجاز ذلك من غير تأكيد الضمير كقوله (اسكن أنت وزوجك الجنة) لأن قوله (أمركم) فصل بين الضمير وبين المنسوق ، فكان كالعوض من التوكيد وكان الفراء يستقبح هذه القراءة ، لأنها توجب أن يكتب وشركاؤكم بالواو وهذا الحرف غير موجود فى المصاحف ،

﴿القيد الثالث﴾ قوله (ثم لا يكن أمركم عليكم غمة) قال أبو الهيثم : أى مبهما من قولهم غم علينا الهلال فهو مغموم إذا التبس قال طرفة :

لعمرى ما أمرى على بغمة نهارى ولا ليلى على بسرمد

وقال الليث : إنه لفى غمة من أمره إذا لم يهتد له . قال الزجاج : أى ليكن أمركم ظاهرا منكشفا

﴿القيد الرابع﴾ قوله (ثم اقضوا إلى) وفيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ قال ابن الأنبارى معناه ثم امضوا إلى بمكروهكم وما توعدوننى به ، تقول العرب : قضى فلان ، يريدون مات ومضى ، وقال بعضهم : قضاء الشىء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه . وبه يسمى القاضى ، لأنه إذا حكم فقد فرغ فقوله (ثم اقضوا إلى) أى افرغوا من أمركم وامضوا مافى أنفسكم واقطعوا مابينى وبينكم ، ومنه قوله تعالى (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب) أى أعلمناهم إعلاما قاطعا ، قال تعالى (وقضينا إليه ذلك الأمر) قال القفال رحمه الله تعالى ومجاز دخول كلمة (إلى) فى هذا الموضع من قولهم برئت اليك وخرجت اليك من العهد ، وفيه معنى الاخبار فكأنه تعالى قال : ثم اقضوا مايستقر رأيكم عليه محكما مفروغا منه .

﴿البحث الثانى﴾ قرىء ثم أفضوا الى بالفاء بمعنى ثم انتهوا الى بشركم ، وقيل : هو من أفضى الرجل اذا خرج الى الفضاء ، أى أصحروا به الى وأبرزوه إلى .

﴿القيد الخامس﴾ قوله (ولا تنظرون) معناه لا تمهلون بعد اعلامكم اياى ما اتفقتم عليه فهذا هو تفسير هذه الألفاظ ، وقد نظم القاضى هذا الكلام على أحسن الوجوه فقال انه عليه السلام قال «فى أول الأمر فعلى الله توكلت فانى واثق بوعد الله جازم بأنه لا يخلف الميعاد ولا تظنوا أن تهديدكم اياى بالقتل والايذاء يمنعنى من الدعاء الى الله تعالى» ثم انه عليه السلام أورد مايدل على صحة دعوته فقال «فأجمعوا أمركم» فكأنه يقول لهم أجمعوا كل ما تقدرون عليه من الأسباب التى توجب حصول مطلوبكم ثم لم يقتصر على ذلك بل أمرهم أن يضموا الى انفسهم شركاءهم الذين كانوا يزعمون أن حالهم يقوى بمكانهم وبالتقرب اليهم ، ثم لم يقتصر على هذين بل ضم اليهما ثالثا وهو قوله (ثم لا يكن أمركم عليكم غمة) وأراد أن يبلغوا فيه كل غاية فى المكاشفة والمجاهرة ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ «٧٣»

ضم اليها : رابعا فقال (ثم اقضوا الى) والمراد أن وجهوا كل تلك الشرور الى ، ثم ضم الى ذلك خامسا . وهو قوله (ولا تنظرون) أى عجلوا ذلك بأشد ماتقدرون عليه من غير انظار فهذا آخر هذا الكلام ومعلوم أن مثل هذا الكلام يدل على أنه عليه السلام كان قد بلغ الغاية فى التوكل على الله تعالى وأنه كان قاطعا بأن كيدهم لا يصل اليه ومكرهم لا ينفذ فيه .

وأما قوله تعالى ﴿فان توليتم فما سألتكم من أجر﴾ فقال المفسرون : هذا اشارة الى أنه ماأخذ منهم مالا على دعوتهم الى دين الله تعالى . ومتى كان الانسان فارغا من الطمع كان قوله أقوى تأثيرا فى القلب . وعندى فيه وجه آخر وهو أن يقال : إنه عليه السلام بين أنه لا يخاف منهم بوجه من الوجوه وذلك لأن الخوف إنما يحصل بأحد شيئين . إما بايصال الشر أو بقطع المنافع ، فبين فيما تقدم أنه لا يخاف شرهم وبين بهذه الآية أنه لا يخاف منهم بسبب أن يقطعوا عنه خيرا ، لأنه ماأخذ منهم شيئا فكان يخاف أن يقطعوا منه خيرا

ثم قال ﴿إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ وفيه قولان : الأول : أنكم سواء قبلتم دين الاسلام أو لم تقبلوا ، فأنا مأمور بأن أكون على دين الاسلام . والثانى : أنى مأمور بالاستسلام لكل مايصل إلى لأجل هذه الدعوة . وهذا الوجه أليق بهذه الموضع ، لأنه لما قال (ثم اقضوا إلى) بين لهم أنه مأمور بالاستسلام لكل مايصل إليه فى هذا الباب . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى الكلمات التى جرت بين نوح وبين أولئك الكفار ، ذكر ماإليه رجعت عاقبة تلك الواقعة ، أما فى حق نوح وأصحابه فأمران : أحدهما : أنه تعالى نجاهم من الكفار . الثانى : أنه جعلهم خلائف بمعنى أنهم يخلفون من هلك بالغرق ، وأما فى حق الكفار فهو أنه تعالى أغرقهم وأهلكهم . وهذه القصة إذا سمعها من صدق الرسول ومن كذب به كانت زجرا للمكلفين من حيث يخافون أن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح . وتكون داعية للمؤمنين على الثبات على الايمان . ليصلوا إلى مثل ماوصل إليه قوم نوح ، وهذه الطريقة فى الترغيب والتحذير إذا جرت على

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ «٧٤»

سبيل الحكاية عمن تقدم كانت أبلغ من الوعيد المبتدأ . وعلى هذا الوجه ذكر تعالى أقاصيص الأنبياء عليهم السلام .

وأما تفاصيل هذه القصة ، فهى مذكورة فى سائر السور .

قوله تعالى ﴿ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاؤهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾

اعلم أن المراد : ثم بعثنا من بعد نوح رسلا ولم يسمهم ، وكان منهم هود ، وصالح ، وإبراهيم ولوط ، وشعيب صلوات الله عليهم أجمعين بالبينات ، وهى المعجزات القاهرة ، فأخبر تعالى عنهم أنهم جروا على منهاج قوم نوح فى التكذيب ، ولم يزجرهم مابلغهم من إهلاك الله تعالى المكذبين من قوم نوح عن ذلك ، فلهذا قال (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) وليس المراد عين ما كذبوا به ، لأن ذلك لم يحصل فى زمانهم بل المراد بمثل ما كذبوا به من البينات ، لأن البينات الظاهرة على الأنبياء عليهم السلام أجمع كأنها واحدة .

ثم قال تعالى ﴿كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾ واحتج أصحابنا على أن الله تعالى قد يمنع المكلف عن الايمان بهذه الآية وتقريره ظاهر . قال القاضى : الطبع غير مانع من الايمان بدليل قوله تعالى (بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) ولو كان هذا الطبع مانعاً لما صح هذا الاستثناء ؟

والجواب : أن الكلام فى هذه المسألة قد سبق على الاستقصاء فى تفسير قوله تعالى (ختم الله قلوبهم وعلى سمعهم) فلا فائدة فى الاعادة .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَرُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ «٧٥» فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ «٧٦» قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ «٧٧»

القصة الثانية

قصة موسى عليه السلام

قوله تعالى ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون إلى فرعون وملائه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون﴾

اعلم أن هذا الكلام غنى عن التفسير . وفيه سؤال واحد ، وهو أن القوم لما قالوا : إن هذا لسحر مبين . فكيف حكى موسى عليه السلام أنهم قالوا (أسحر هذا) على سبيل الاستفهام ؟

وجوابه : أن موسى عليه السلام ماحكى عنهم أنهم قالوا (أسحر هذا) بل قال (أتقولون للحق لما جاءكم) ماتقولون . ثم حذف عنه مفعول (أتقولون) لدلالة الحال عليه ، ثم قال مرة أخرى (أسحر هذا) وهذا استفهام على سبيل الانكار . ثم احتج على أنه ليس بسحر . وهو قوله (ولا يفلح الساحرون) يعنى أن حاصل صنعهم تخييل وتمويه (ولا يفلح الساحرون) وأما قلب العصا حية وفلق البحر ، فمعلوم بالضرورة أنه ليس من باب التخييل والتمويه . فثبت أنه ليس بسحر .

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ «٧٨» وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ «٧٩» فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ «٨٠» فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ «٨١» وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ «٨٢»

قوله تعالى ﴿قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا قال موسى ماجئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لايصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾

وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى حكى عن فرعون وقومه أنهم لم يقبلوا دعوة موسى عليه السلام، وعللوا عدم القبول بأمرين : الأول : قوله (أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا) قال الواحدى : اللفت فى أصل اللغة الصرف عن أمر، وأصله اللى يقال : لفت عنقه اذا لواها، ومن هذا يقال : التفت إليه، أى أمال وجهه إليه. قال الأزهرى : لفت الشىء وفتله اذا لواه، وهذا من المقلوب.

واعلم أن حاصل هذا الكلام أنهم قالوا : لانترك الدين الذى نحن عليه، لأنا وجدنا آباءنا عليه، فقد تمسكوا بالتقليد. ودفعوا الحجة الظاهرة بمجرد الاصرار.

﴿والسبب الثانى﴾ فى عدم القبول قوله (وتكون لكما الكبرياء فى الأرض) قال المفسرون : المعنى ويكون لكما الملك والعز فى أرض مصر. والخطاب لموسى وهرون. قال الزجاج : سمى الملك كبرياء. لأنه أكبر مايطلب من أمر الدنيا، وأيضاً فالنبى اذا اعترف القوم بصدقه صارت مقاليد أمر أمته إليه، فصار أكبر القوم.

واعلم أن السبب الأول : إشارة إلى التمسك بالتقليد. والسبب الثانى : إشارة إلى الحرص على طلب

الدنيا ، والجد فى بقاء الرياسة . ولما ذكر القوم هذين السببين صرحوا بالحكم وقالوا (وما نحن لكما بمؤمنين)

واعلم أن القوم لما ذكروا هذه المعانى حاولوا بعد ذلك . وأرادوا أن يعارضوا معجزة موسى عليه السلام بأنواع من السحر ، ليظهروا عند الناس أن ماأتى به موسى من باب السحر ، فجمع فرعون السحرة وأحضرهم . (فقال لهم موسى ألقوا ماأنتم ملقون)

فان قيل : كيف أمرهم بالكفر والسحر ، والأمر بالكفر كفر ؟

قلنا : إنه عليه السلام أمرهم بالقاء الحبال والعصى ، ليظهر للخلق أن ماأتوا به عمل فاسد وسعى باطل ، لا على طريق أنه عليه السلام أمرهم بالسحر ، فلما ألقوا حبالهم وعصيهم قال لهم موسى ما جئتم به هو السحر الباطل ، والغرض منه أن القوم قالوا لموسى : إن ماجئت به سحر ، فذكر موسى عليه السلام أن ماذكرتموه باطل ، بل الحق أن الذى جئتم به هو السحر والتمويه الذى يظهر بطلانه ، ثم أخبرهم بأن الله تعالى يحق الحق ويبطل الباطل ، وقد أخبر الله تعالى فى سائر السور أنه كيف أبطل ذلك السحر ، وذلك بسبب أن ذلك الثعبان قد تلقف كل تلك الحبال والعصى .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (ماجئتم به السحر) ما ههنا موصولة بمعنى الذى وهى مرتفعة بالابتداء ، وخبرها السحر ، قال الفراء : وإنما قال (السحر) بالألف واللام ، لأنه جواب كلام سبق . ألا ترى أنهم قالوا : لما جاءهم موسى هـذا سحر . فقال لهم موسى : بل ماجئتم به السحر ، فوجب دخول الألف واللام ، لأن النكرة إذا عادت عادت معرفة ، يقول الرجل لغيره : لقيت رجلا فيقول له من الرجل فيعيده بالألف واللام ، ولو قال له من رجل لم يقع فى فهمه أنه سأله عن الرجل الذى ذكره له . وقرأ أبو عمرو (آلسحر) بالاستفهام ، وعلى هذه القراءة ما استفهامية مرتفع بالابتداء ، وجئتم به فى موضع الخبر كأنه قيل : أى شىء جئتم به . ثم قال على وجه التوبيخ والتقريع (آلسحر) كقوله تعالى (أأنت قلت للناس) والسحر بدل من المبتدا ، ولزم أن يلحقه الاستفهام ليساوى المبدل منه فى أنه استفهام . كما تقول كم مالك أعشرون أم ثلاثون؟ فجعلت أعشرون بدلا من كم ، ولا يلزم أن يضمر للسحر خبر ، لأنك اذا أبدلته من المبتدا صار فى موضعه وصار ماكان خبرا عن المبدل منه خبرا عنه .

ثم قال تعالى ﴿إن الله سيبطله﴾ أى سيهلكه ويظهر فضيحة صاحبه (إن الله لايصلح عمل المفسدين) أى لايقويه ولا يكمله .

ثم قال ﴿ويحق الله الحق﴾ ومعنى احقاق الحق اظهاره وتقويته . وقوله (بكلماته) أى بوعده

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ «٨٣»

موسى . وقيل بما سبق من قضائه وقدره ، وفى كلمات الله أبحاث غامضة عميقة عالية ، وقد ذكرناها فى بعض مواضع من هذا الكتاب .

قوله تعالى ﴿فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال فى الأرض وانه لمن المسرفين﴾

واعلم أنه تعالى بين فيما تقدم ما كان من موسى عليه السلام من المعجزات العظيمة . وما ظهر من تلقف العصا لكل ما أحضروه من آلات السحر ، ثم إنه تعالى بين أنهم مع مشاهدة المعجزات العظيمة ما آمن به منهم الا ذرية من قومه ، وانما ذكر تعالى ذلك تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان يغتم بسبب إعراض القوم عنه واستمرارهم على الكفر ، فبين أن له فى هذا الباب بسائر الأنبياء أسوة ، لأن الذى ظهر من موسى عليه السلام كان فى الاعجاز فى مرأى العين أعظم ، ومع ذلك فما آمن به منهم الا ذرية . واختلفوا فى المراد بالذرية على وجوه : الأول : أن الذرية ههنا معناها تقليل العدد . قال ابن عباس : لفظ الذرية يعبر به عن القوم على وجه التحقير والتصغير ، ولاسبيل إلى حمله على التقدير على وجه الاهانة فى هذا الموضع فوجب حمله على التصغير بمعنى قلة العدد . الثانى : قال بعضهم : المراد أولاد من دعاهم ، لأن الآباء استمروا على الكفر ، إما لأن قلوب الأولاد ألين أو دواعيهم على الثبات على الكفر أخف . الثالث : أن الذرية قوم كان آباؤهم من قوم فرعون وأمهاتهم من بنى إسرائيل . الرابع : الذرية من آل فرعون آسية امرأة فرعون وخازنه وامرأة خازنه وماشطتها . وأما الضمير فى قوله (من قومه) فقد اختلفوا أن المراد من قوم موسى أو من قوم فرعون ، لأن ذكرهما جميعاً قد تقدم والأظهر أنه عائد إلى موسى ، لأنه أقرب المذكورين ولأنه نقل إن الذين آمنوا به كانوا من بنى إسرائيل .

أما قوله ﴿على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم﴾ ففيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ أن أولئك الذين آمنوا بموسى كانوا خائفين من فرعون جداً ، لأنه كان شديد البطش وكان قد أظهر العداوة مع موسى ، فاذا علم ميل القوم إلى موسى كان يبالغ فى ايذائهم ، فلهذا السبب كانوا خائفين منه .

وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُسْلِمِينَ «٨٤» فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ «٨٥» وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ «٨٦»

﴿البحث الثانى﴾ إنما قال (وملئهم) مع أن فرعون واحد لوجوه: الأول: أنه قد يعبر عن الواحد بلفظ الجمع، والمراد التعظيم. قال الله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر) الثانى: أن المراد بفرعون آل فرعون. الثالث: أن هذا من باب حذف المضاف كأنه أريد بفرعون آل فرعون.

ثم قال ﴿أن يفتنهم﴾ أى يصرفهم عن دينهم بتسليط أنواع البلاء عليهم.

ثم قال ﴿وإن فرعون لعال فى الأرض﴾ أى لغالب فيها قاهر (وإنه لمن المسرفين) قيل: المراد أنه كثير القتل كثير التعذيب لمن يخالفه فى أمر من الأمور، والغرض منه بيان السبب فى كون أولئك المؤمنين خائفين، وقيل: إنما كان مسرفا لأنه كان من أخس العبيد، فادعى الالهية.

قوله تعالى ﴿وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾

فى الآية مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ أن قوله (ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) جزاء معلق على شرطين: أحدهما متقدم. والآخر متأخر، والفقهاء قالوا: المتأخر يجب أن يكون متقدما والمتقدم يجب أن يكون متأخرا. ومثاله أن يقول الرجل لامرأته: إن دخلت الدار فأنت طالق إن كلمت زيداً. وانما كان الأمر كذلك، لأن مجموع قوله: إن دخلت الدار فأنت طالق، صار مشروطا بقوله إن كلمت زيدا. والمشروط متأخر عن الشرط، وذلك يقتضى أن يكون المتأخر فى اللفظ متقدماً فى المعنى، وأن يكون المتقدم فى اللفظ متأخرا فى المعنى، والتقدير: كأنه يقول لامرأته حال ما كلمت زيداً إن دخلت الدار فأنت طالق، فلو حصل هذا التعليق قبل إن كلمت زيداً لم يقع الطلاق.

اذا عرفت هذا فنقول: قوله (إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) يقتضى أن يكون كونهم مسلمين شرطاً. لأن يصيروا مخاطبين بقوله (إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا) فكأنه

تعالى يقول للمسلم حال إسلامه إن كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل . والأمر كذلك ، لأن الاسلام عبارة عن الاستسلام ، وهو إشارة إلى الانقياد للتكاليف الصادرة عن الله تعالى وإظهار الخضوع وترك التمرد ، وأما الايمان فهو عبارة عن صيرورة القلب عارفاً بأن واجب الوجود لذاته واحد . وأن ماسواه محدث مخلوق تحت تدبيره وقهره وتصرفه ، وإذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره إلى الله تعالى . ويحصل فى القلب نور التوكل على الله فهذه الآية من لطائف الأسرار ، والتوكل على الله عبارة عن تفويض الأمور بالكلية الى الله تعالى والاعتماد فى كل الاحوال على الله تعالى .

واعلم أن من توكل على الله فى كل المهمات كفاه الله تعالى كل الملمات لقوله (ومن يتوكل على الله فهو حسبه .

﴿المسألة الثانية﴾ أن هذا الذى أمر موسى قومه به وهو التوكل على الله هو الذى حكاه الله تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال (فعلى الله توكلت) وعند هذا يظهر التفاوت بين الدرجتين لأن نوحاً عليه السلام وصف نفسه بالتوكل على الله تعالى ، وموسى عليه السلام أمر قومه بذلك فكان نوح عليه السلام تاماً ، وكان موسى عليه السلام فوق التمام .

﴿المسألة الثالثة﴾ إنما قال (فعليه توكلوا) ولم يقل توكلوا عليه ، لأن الأول يفيد الحصر كأنه عليه السلام أمرهم بالتوكل عليه ونهاهم عن التوكل على الغير ، والأمر كذلك ، لأنه لما ثبت أن كل ماسواه فهو ملكه وملكه وتحت تصرفه وتسخيره وتحت حكمه وتدبيره ، امتنع فى العقل أن يتوكل الانسان على غيره ، فلهذا السبب جاءت هذه الكلمة بهذه العبارة ، ثم بين تعالى أن موسى عليه السلام لما أمرهم بذلك قبلوا قوله (وقالوا على الله توكلنا) أى توكلنا عليه ، ولا نلتفت إلى أحد سواه ، ثم لما فعلوا ذلك اشتغلوا بالدعاء ، فطلبوا من الله تعالى شيئين : أحدهما : أن قالوا (ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين) وفيه وجوه : الأول : أن المراد لاتفتن بنا فرعون وقومه لأنك لو سلطتهم علينا لوقع فى قلوبهم أنا لو كنا على الحق لما سلطتهم علينا ، فيصير ذلك شبهة قوية فى إصرارهم على الكفر فيصير تسليطهم علينا فتنة لهم . الثانى : أنك لو سلطتهم علينا لاستوجبوا العقاب الشديد فى الآخرة وذلك يكون فتنة لهم . الثالث (لاتجعلنا فتنة لهم) أى موضع فتنة لهم ، أى موضع عذاب لهم . الرابع : أن يكون المراد من الفتنة المفتون ، لأن اطلاق لفظ المصدر على المفعول جائز ، كالخلق بمعنى المخلوق ، والتكوين بمعنى المكون ، والمعنى : لاتجعلنا مفتونين ، أى لا تمكنهم من أن يحملونا بالظلم والقهر على أن ننصرف عن هذا الدين الحق الذى قبلناه ، وهذا التأويل متأكد بما ذكره الله

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ «٨٧»

تعالى قبل هذه الآية وهو قوله (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم) وأما المطلوب الثانى فى هذا الدعاء فهو قوله تعالى (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين)

واعلم أن هـذا الترتيب يدل على أنه كان اهتمام هؤلاء بأمر دينهم فوق اهتمامهم بأمر دنياهم ، وذلك لأنا إن حملنا قولهم (ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين) على أنهم إن سلطوا على المسلمين صار ذلك شبهة لهم فى أن هذا الدين باطل فتضرعوا إلى تعالى فى أن يصون أولئك الكفار عن هذه الشبهة وقدموا هذا الدعاء على طلب النجاة لأنفسهم . وذلك يدل على أن عنايتهم بمصالح دين أعدائهم فوق عنايتهم بمصالح أنفسهم وإن حملناه على أن لايمكن الله تعالى أولئك الكفار من أن يحملوهم على ترك هذا الدين كان ذلك أيضا دليلا على أن اهتمامهم بمصالح أديانهم فوق اهتمامهم بمصالح أبدانهم وعلى جميع التقديرات فهذه لطيفة شريفة .

قوله تعالى ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين﴾

اعلم أنه لما شرح خوف المؤمنين من الكافرين وما ظهر منهم من التوكل على الله تعالى أتبعه بأن أمر موسى وهرون باتخاذ المساجد والاقبال على الصلوات يقال : تبوأ المكان ، أى اتخذه مبوأ كقوله توطنه إذا اتخذه موطناً ، والمعنى : اجعلا بمصر بيوتا لقومكما ومرجعاً ترجعون إليه للعبادة والصلاة .

ثم قال ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ وفيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ من الناس من قال : المراد من البيوت المساجد كما فى قوله تعالى (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه) ومنهم من قال : المراد مطلق البيوت ، أما الأولون فقد فسروا القبلة بالجانب الذى يستقبل فى الصلاة ، ثم قالوا : والمراد من قوله (واجعلوا بيوتكم قبلة) أى اجعلوا بيوتكم مساجد تستقبلونها لأجل الصلاة ، وقال الفراء : واجعلوا بيوتكم قبلة . أى إلى القبلة . وقال ابن الانبارى : واجعلوا بيوتكم قبلة ، أى قبلا يعنى مساجد فأطلق لفظ الوحدان ، والمراد الجمع ، واختلفوا فى أن هذه القبلة أين كانت ؟ فظاهر أن لفظ القرآن لايدل على تعيينه ، إلا أنه نقل عن

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا

ابن عباس أنه قال : كانت الكعبة قبلة موسى عليه السلام . وكان الحسن يقول : الكعبة قبلة كل الأنبياء ، وإنما وقع العدول عنها بأمر الله تعالى فى أيام الرسول عليه السلام بعد الهجرة . وقال آخرون : كانت تلك القبلة جهة بيت المقدس . وأما القائلون بأن المراد من لفظ البيوت المذكورة فى هذه الآية مطلق البيت ، فهؤلاء لهم فى تفسير قوله (قبلة) وجهان : الأول : المراد بجعل تلك البيوت قبلة أى متقابلة ، والمقصود منه حصول الجمعية واعتضاد البعض بالبعض . وقال آخرون : المراد واجعلوا دوركم قبلة ، أى صلوا فى بيوتكم .

﴿البحث الثانى﴾ أنه تعالى خص موسى وهرون فى أول هذه الآية بالخطاب فقال (أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا) ثم عمم هذا الخطاب فقال (واجعلوا بيوتكم قبلة) والسبب فيه أنه تعالى أمر موسى وهرون أن يتبوآ لقومهما بيوتاً للعبادة ، وذلك مما يفوض الى الأنبياء ، ثم جاء الخطاب بعد ذلك عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها ، لأن ذلك واجب على الكل ، ثم خص موسى عليه السلام فى آخر الكلام بالخطاب فقال (وبشر المؤمنين) وذلك لأن الغرض الأصلى من جميع العبادات حصول هذه البشارة ، فخص الله تعالى موسى بها ، ليدل بذلك على أن الأصل فى الرسالة هو موسى عليه السلام وأن هرون تبع له .

﴿البحث الثالث﴾ ذكر المفسرون فى كيفية هذه الواقعة وجوها ثلاثة : الأول : أن موسى عليه السلام ومن معه كانوا فى أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا فى بيوتهم خفية من الكفرة ، لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم ، كما كان المؤمنون على هذه الحالة فى أول الاسلام فى مكة . الثانى : قيل : إنه تعالى لما أرسل موسى إليهم أمر فرعون بتخريب مساجد بنى اسرائيل ومنعهم من الصلاة ، فأمرهم الله تعالى أن يتخذوا مساجد فى بيوتهم ويصلوا فيها خوفاً من فرعون . الثالث : أنه تعالى لما أرسل موسى إليهم وأظهر فرعون تلك العداوة الشديدة أمر الله تعالى موسى وهرون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الاعداء . وتكفل تعالى أنه يصونهم عن شر الأعداء .

قوله تعالى ﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا

يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ «٨٨» قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ «٨٩»

ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾

اعلم أن موسى لما بالغ فى إظهار المعجزات الظاهرة القاهرة ورأى القوم مصرين على الجحود والعناد والانكار . أخذ يدعو عليهم ، ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولا سبب إقدامه على تلك الجرائم ، وكان جرمهم هو أنهم لأجل حبهم الدنيا تركوا الدين ، فلهذا السبب قال موسى عليه السلام (ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا) والزينة عبارة عن الصحة والجمال واللباس والدواب ، وأثاث البيت والمال مايزيد على هذه الأشياء من الصامت والناطق .

ثم قال ﴿ليضلوا عن سبيلك﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ حمزة والكسائى وعاصم (ليضلوا) بضم الياء وقرأ الباقون بفتح الياء .

﴿المسألة الثانية﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يضل الناس ويريد اضلالهم وتقريره من وجهين : الأول : أن اللام فى قوله (ليضلوا) لام التعليل ، والمعنى : أن موسى قال يارب العزة إنك أعطيتهم هذه الزينة والأموال لأجل أن يضلوا . فدل هذا على أنه تعالى قد يريد إضلال المكلفين . الثانى : أنه قال (واشدد على قلوبهم) فقال الله تعالى (قد أجيبت دعوتكما) وذلك أيضاً يدل على المقصود . قال القاضى : لايجوز أن يكون المراد من هذه الآية ماذكرتم . ويدل عليه وجوه : الأول : أنه ثبت أنه تعالى منزه عن فعل القبيح وإرادة الكفر قبيحة . والثانى : أنه لو أراد ذلك لكان الكفار مطيعين لله تعالى بسبب كفرهم ، لأنه لامعنى للطاعة إلا الاتيان بما يوافق الارادة . ولو كانوا كذلك . لما استحقوا الدعاء عليهم بطمس الأموال وشد القلوب ، والثالث : أنا لو جوزنا أن يريد إضلال العباد ، لجوزنا أن يبعث الأنبياء عليهم السلام للدعاء الى الضلال ، ولجاز أن يقوى الكذابين الضالين المضلين باظهار المعجزات عليهم . وفيه هدم الدين وإبطال الثقة بالقرآن . والرابع : أنه لايجوز أن يقول لموسى وهرون عليهما السلام (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) وأن يقول (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) ثم انه تعالى أراد الضلالة منهم وأعطاهم النعم لكى يضلوا . لأن ذلك كالمناقضة . فلا بد من حمل أحدهما

على موافقة الآخر . الخامس : أنه لايجوز أن يقال : إن موسى عليه السلام دعا ربه بأن يطمس على أموالهم لأجل أن لايؤمنوا مع تشدده فى إرادة الايمان .

واعلم أنا بالغنا فى تكثير هذه الوجوه فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب .

وإذا ثبت هذا فنقول : وجب تأويل هذه الكلمة وذلك من وجوه : الأول : أن اللام فى قوله (ليضلوا) لام العاقبة كقوله تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) ولما كانت عاقبة قوم فرعون هو الضلال ، وقد أعلمه الله تعالى ، لاجرم عبر عن هذا المعنى بهذا اللفظ . الثانى : أن قوله (ربنا ليضلوا عن سبيلك) أى لئلا يضلوا عن سبيلك ، فحذف لا لدلالة المعقول عليه كقوله (يبين الله لكم أن تضلوا) والمراد أن لاتضلوا ، وكقوله تعالى (قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة) والمراد لئلا تقولوا ، ومثل هذا الحذف كثير فى الكلام . الثالث : أن يكون موسى عليه السلام ذكر ذلك على سبيل التعجب المقرون بالانكار . والتقدير كأنك آتيتهم ذلك الغرض فانهم لاينفقون هذه الأموال إلا فيه وكأنه قال : آتيتهم زينة وأموالا لأجل أن يضلوا عن سبيل الله ثم حذف حرف الاستفهام كما فى قول الشاعر :

كذبتك عينك أم رايت بواسط   غلس الظلام من الرباب خيالا

أراد أكذبتك فكذا ههنا . الرابع : قال بعضهم : هذه اللام لام الدعاء وهى لام مكسورة تجزم المستقبل ويفتتح بها الكلام ، فيقال ليغفر الله المؤمنين وليعذب الله الكافرين ، والمعنى ربنا ابتلهم بالضلال عن سبيلك . الخامس : أن هذه اللام لام التعليل لكن بحسب ظاهر الأمر لا فى نفس الحقيقة وتقريره أنه تعالى لما أعطاهم هذه الأموال وصارت تلك الأموال سببا لمزيد البغى والكفر ، أشبهت هذه الحالة حالة من أعطى المال لأجل الاضلال فورد هذا الكلام بلفظ التعليل لأجل هذا المعنى . السادس : بينا فى تفسير قوله تعالى (يضل به كثيرا) فى أول سورة البقرة إن الضلال قد جاء فى القرآن بمعنى الهلاك يقال : الماء فى اللبن أى هلك فيه .

إذا ثبت هذا فنقول : قوله (ربنا ليضلوا عن سبيلك) معناه : ليهلكون ويموتوا ، ونظيره قوله تعالى (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا) فهذا جملة ماقيل فى هذا الباب .

واعلم أنا قد أجبنا عن هذه الوجوه مراراً كثيرة فى هذا الكتاب . ولا بأس بأن نعيد بعضها فى هذا المقام فنقول : الذى يدل على أن حصول الاضلال من الله تعالى وجوه : الأول : أن العبد لايقصد إلا حصول الهداية ، فلما لم تحصل الهداية بل حصل الضلال الذى لايريده ؛ علمنا أن حصوله ليس من العبد بل من الله تعالى .

فان قالوا : إنه ظن بهذا الضلال أنه هدى ؟ فلا جرم قد أوقعه وأدخله فى الوجود فنقول : فعلى هذا يكون إقدامه على تحصيل هذا الجهل بسبب الجهل السابق . فلو كان حصول ذلك الجهل السابق بسبب جهل آخر لزم التسلسل وهو محال ، فثبت أن هذه الجهالات والضلالات لابد من انتهائها إلى جهل أول وضلال أول ، وذلك لايمكن أن يكون باحداث العبد وتكوينه لأنه كرهه وإنما أراد ضده ، فوجب أن يكون من الله تعالى . الثانى : أنه تعالى لما خلق الخلق بحيث يحبون المال والجاه حباً شديدا لايمكنه إزالة هذا الحب عن نفسه البتة . وكان حصول هذا الحب يوجب الاعراض عمن يستخدمه ويوجب التكبر عليه وترك الالتفات إلى قوله وذلك يوجب الكفر . فهذه الأشياء بعضها يتأدى الى البعض تأديا على سبيل اللزوم وجب أن يكون فاعل هذا الكفر هو الذى خلق الانسان مجبولا على حب المال والجاه . الثالث : وهو الحجة الكبرى أن القدرة بالنسبة الى الضدين على السوية . فلا يترجح أحد الطرفين على الثانى الا لمرجح . وذلك المرجح ليس من العبد والا لعاد الكلام فيه ، فلابد وأن يكون من الله تعالى ، واذا كان كذلك كانت الهداية والاضلال من الله تعالى . الرابع : أنه تعالى أعطى فرعون وقومه زينة وأموالا وقوى حب ذلك المال والجاه فى قلوبهم . وأودع فى طباعهم نفرة شديدة عن خدمة موسى عليه السلام والانقياد له ، لاسيما وكان فرعون كالمنعم فى حقه والمربى له والنفرة عن خدمة من هذا شأنه راسخة فى القلوب ، وكل ذلك يوجب اعراضهم عن قبول دعوة موسى عليه السلام وإصرارهم على انكار صدقه . فثبت بالدليل العقلى أن إعطاء الله تعالى فرعون وقومه زينة الدنيا وأموال الدنيا لابد وأن يكون موجباً لضلالهم فثبت أن ما أشعر به ظاهر اللفظ فقد ثبت صحته بالعقل الصريح فكيف يمكن ترك ظاهر اللفظ فى مثل هذا المقام وكيف يحسن حمل الكلام على الوجوه المتكلفة الضعيفة جداً .

اذا عرفت هذا فنقول :

﴿أما الوجه الأول﴾ وهو حمل اللام على لام العاقبة فضعيف ، لأن موسى عليه السلام ما كان عالماً بالعواقب .

فان قالوا : إن الله تعالى أخبره بذلك ؟

قلنا : فلما أخبر الله عنهم أنهم لايؤمنون كان صدور الايمان منهم محالا ، لأن ذلك يستلزم انقلاب خبر الله كذبا وهو محال والمفضى الى المحال محال .

﴿وأما الوجه الثانى﴾ وهو قولهم يحمل قوله (ليضلوا عن سبيلك) على أن المراد لئلا يضلوا عن سبيلك فنقول : إن هذا التأويل ذكره أبو على الجبائى فى تفسيره . وأقول : إنه لما شرع فى تفسيره

قوله تعالى (ماأصابك من حسنة فمن الله وماأصابك من سيئة فمن نفسك) ثم نقل عن بعض أصحابنا أنه قرأ (فمن نفسك) على سبيل الاستفهام بمعنى الانكار . ثم إنه استبعد هذه القراءة وقال إنها تقتضى تحريف القرآن وتغييره . وتفتح باب تأويلات الباطنية وبالغ فى إنكار تلك القراءة وهذا الوجه الذى ذكره ههنا شر من ذلك ، لأنه قلب النفى إثباتا . والاثبات نفيا . وتجويزه يفتح باب أن لايبقى الاعتماد على القرآن لافى نفيه ولافى اثباته وحينئذ يبطل القرآن بالكلية وهذا بعينه هو الجواب عن قوله المراد منه الاستفهام بمعنى الانكار ، فان تجويزه يوجب تجويز مثله فى سائر المواطن ، فلعله تعالى إنما قال (أقيموا الصلاة وآتوا الزكاه) على سبيل الانكار والتعجب . وأما بقية الجوابات فلا يخفى ضعفها .

ثم انه تعالى حكى عن موسى عليه السلام أنه قال ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ وذكرنا معنى الطمس عند قوله تعالى (من قبل أن نطمس وجوها) والطمس هو المسخ . قال ابن عباس رضى الله عنهما : بلغنا أن الدراهم والدنانير ، صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا ، وجعل سكرهم حجارة .

ثم قال ﴿واشدد على قلوبهم﴾ ومعنى الشد على القلوب الاستيثاق منها حتى لايدخلها الايمان . قال الواحدى : وهذا دليل على ان الله تعالى يفعل ذلك بمن يشاء ، ولولا ذلك لما حسن من موسى عليه السلام هذا السؤال .

ثم قال ﴿فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ وفيه وجهان : أحدهما : أنه يجوز أن يكون معطوفا على قوله (ليضلوا) والتقدير : ربنا ليضلوا عن سبيلك فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم وقوله (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم) يكون اعتراضا . والثانى : يجوز أن يكون جواباً لقوله (واشدد) والتقدير : اطبع على قلوبهم وقسها حتى لايؤمنوا ، فانها تستحق ذلك .

ثم قال تعالى ﴿قد أجيبت دعوتكما﴾ وفيه وجهان : الأول : قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أن موسى كان يدعو وهرون كان يؤمن ، فلذلك قال (قد أجيبت دعوتكما) وذلك لأن من يقول عند دعاء الداعى آمين فهو أيضا داع ، لأن قوله آمين تأويله استجب فهو سائل كما أن الداعى سائل أيضاً . الثانى : لايبعد أن يكون كل واحد منهما ، ذكر هذا الدعاء غاية مافى الباب أن يقال : إنه تعالى حكى هذا الدعاء عن موسى بقوله (وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا) إلا أن هذا لاينافى أن يكون هرون قد ذكر ذلك الدعاء أيضا .

وأما قوله ﴿فاستقيما﴾ يعنى فاستقيما على الدعوة والرسالة ، والزيادة فى إلزام الحجة فقد لبث

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ «٩٠» آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ «٩١» فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ «٩٢»

نوح فى قومه ألف سنة إلا قليلا فلا تستعجلا ، قال ابن جريج : إن فرعون لبث بعد هذا الدعاء أربعين سنة .

وأما قوله ﴿ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾ ففيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ المعنى : لاتتبعان سبيل الجاهلين الذين يظنون أنه متى كان الدعاء مجاباً كان المقصود حاصلا فى الحال ، فربما أجاب الله تعالى دعاء انسان فى مطلوبه ، إلا أنه إنما يوصله إليه فى وقته المقدر ، والاستعجال لايصدر إلامن الجهال ، وهذا كما قال لنوح عليه السلام (إنى أعظك أن تكون من الجاهلين)

واعلم أن هذا النهى لايدل على أن ذلك قد صدر من موسى عليه السلام كما أن قوله (لئن أشركت ليحبطن عملك) لايدل على صدور الشرك منه .

﴿البحث الثانى﴾ قال الزجاج : قوله (ولا تتبعان) موضعه جزم ، والتقدير : ولا تتبعا ، إلا أن النون الشديدة دخلت على النهى مؤكدة وكسرت لسكونها ، وسكون النون التى قبلها فاختير لها الكسرة ، لأنها بعد الألف تشبه نون التثنية . وقرأ ابن عامر (ولا تتبعان) بتخفيف النون .

قوله تعالى ﴿وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾

اعلم أن تفسير اللفظ فى قوله (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر) مذكور فى سورة الأعراف، والمعنى: أنه تعالى لما أجاب دعاءهما أمر بنى إسرائيل بالخروج من مصر فى الوقت المعلوم ويسر لهم أسبابه، وفرعون كان غافلا عن ذلك، فلما سمع أنهم خرجوا وعزموا على مفارقة مملكته خرج على عقبهم وقوله (فاتبعهم) أى لحقهم. يقال: أتبعه حتى لحقه، وقوله (بغياً وعدواً) البغى طلب الاستعلاء بغير حق، والعدو الظلم، روى أن موسى عليه السلام لما خرج مع قومه وصلوا إلى طرف البحر. وقرب فرعون مع عسكره منهم، فوقعوا فى خوف شديد، لأنهم صاروا بين بحر مغرق وجند مهلك، فأنعم الله عليهم بأن أظهر لهم طريقاً فى البحر على ماذكر الله تعالى هذه القصة بتمامها فى سائر السور، ثم إن موسى عليه السلام مع أصحابه دخلوا وخرجوا وأبقى الله تعالى ذلك الطريق يبساً، ليطمع فرعون وجنوده فى التمكن من العبور، فلما دخل مع جمعه أغرقه الله تعالى بأن أوصل أجزاء الماء بعضها وأزال الفلق، فهو معنى قوله (فاتبعهم فرعون وجنوده) وبين ما كان فى قلوبهم من البغى وهى محبة الافراط فى قتلهم وظلمهم، والعدو وهو تجاوز الحد، ثم ذكر تعالى أنه لما أدركه الغرق أظهر كلمة الاخلاص ظنا منه أنه ينجيه من تلك الآفة وههنا سؤلان:

﴿السؤال الأول﴾ أن الانسان إذا وقع فى الغرق لا يمكنه أن يتلفظ بهذا اللفظ فكيف حكى الله تعالى عنه أنه ذكر ذلك؟

والجواب: من وجهين: الأول: أن مذهبنا أن الكلام الحقيقى هو كلام النفس لا كلام اللسان فهو إنما ذكر هذا الكلام بالنفس، لا بكلام اللسان. ويمكن أن يستدل بهذه الآية على إثبات كلام النفس لأنه تعالى حكى عنه أنه قال هذا الكلام. وثبت بالدليل أنه ماقاله باللسان، فوجب الاعتراف بثبوت كلام غير كلام اللسان وهو المطلوب. الثانى: أن يكون المراد من الغرق مقدماته

﴿السؤال الثانى﴾ أنه آمن ثلاث مرات أولها قوله (آمنت) وثانيها قوله (لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل) وثالثها قوله (وأنا من المسلمين) فما السبب فى عدم القبول والله تعالى متعال عن أن يلحقه غيظ وحقد حتى يقال: إنه لأجل ذلك الحقد لم يقبل منه هذا الاقرار؟

والجواب: العلماء ذكروا فيه وجوها:

﴿الوجه الأول﴾ أنه إنما آمن عند نزول العذاب. والايمان فى هذا الوقت غير مقبول، لأن عند نزول العذاب يصير الحال وقت الالجاء، وفى هذا الحال لاتكون التوبة مقبولة، ولهذا السبب قال تعالى (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا)

﴿الوجه الثانى﴾ هو أنه إنما ذكر هذه الكلمة ليتوسل بها إلى دفع تلك البلية الحاضرة والمحنة الناجزة، فما كان مقصوده من هذه الكلمة الاقرار بوحدانية الله تعالى. والاعتراف بعزة الربوبية

وذلة العبودية ، وعلى هـذا التقدير فما كان ذكر هـذه الكلمة مقروناً بالاخلاص . فلهذا السبب ما كان مقبولا .

﴿الوجه الثالث﴾ هو أن ذلك الاقرار كان مبنياً على محض التقليد . ألاترى أنه قال (لاإله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل) فكأنه اعترف بأنه لايعرف الله . إلا أنه سمع من بنى إسرائيل أن للعالم إلهـا ، فهو أقر بذلك الاله الذى سمع من بنى إسرائيل أنهـم أقروا بوجوده . فكان هـذا محض التقليد ، فلهذا السبب لم تصر الكلمة مقبولة منـه ، ومزيد التحقيق فيـــه أن فرعون على مابيناه فى سـورة (طه) كان من الدهرية ، وكان من المنـكرين لوجود الصانع تعـالى ، ومثل هـذا الاعتقاد الفاحش لا تزول ظلمته ، إلا بنور الحجج القطعية ، والدلائل اليقينيـة ، وأما بالتقليد المحض فهو لايفيد . لأنه يكون ضماً لظلمة التقليد إلى ظلمة الجهل السابق .

﴿الوجه الرابع﴾ رأيت فى بعض الـكتب أن بعض أقوام من بنى إسرائيل لمـا جاوزوا البحر اشتغلوا بعبادة العجل ، فلمـا قال فرعون (آمنت أنه لاإله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل) انصرف ذلك الى العجل الذى آمنوا بعبادته فى ذلك الوقت . فكانت هـذه الكلمة فى حقه سـبباً لزيادة الـكفر .

﴿الوجه الخامس﴾ أن اليهود كانت قلوبهم مائلة الى التشبيه والتجسيم . ولهذا السبب اشتغلوا بعبادة العجل لظنهم أنه تعالى حل فى جسد ذلك العجل ونزل فيه . فلمـا كان الأمر كذلك وقال فرعون (آمنت أنه لاإله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل) فكأنه آمن بالاله الموصوف بالجسمية والحلول والنزول ، وكل من اعتقد ذلك كان كافرا . فلهذا السبب ماصح إيمـان فرعون .

﴿الوجه السادس﴾ لعل الايمـان إنمـا كان يتم بالاقرار بوحدانية الله تعالى ، والاقرار بنبوة موسى عليه السلام . فههنا لمـا أقر فرعون بالوحدانية ولم يقر بالنبوة لاجرم لم يصح إيمـانه . ونظيره أن الواحد من الـكفار لو قال ألف مرة أشهد أن لاإله إلا الله فانه لايصح إيمـان إلا اذا قال معه وأشهد أن محمداً رسول الله . فـكذا ههنا .

﴿الوجه السابع﴾ روى صاحب الـكشاف أن جبريل عليه السلام أتى فرعون بفتيا فيها ماقول الأمير فى عبد نشأ فى مال مولاه ونعمته ، فـكفر نعمته وجحد حقه ، وادعى السيادة دونه . فـكتب فرعون فيها يقول أبو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج على سيده الكافر بنعمته أن يغرق فى البحر ، ثم إن فرعون لمـا غرق رفع جبريل عليه السلام فتياه اليه .

أما قوله تعالى ﴿آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾ ففيه سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ من القائل له (آلآن وقد عصيت قبل)

الجواب : الأخبار دالة على أن قائل هـذا القول هو جبريل . وإنما ذكر قوله (وكنت من المفسدين) فى مقابلة قوله (وأنا من المسلمين) ومن الناس من قال : إن قائل هذا القول هو الله تعالى ، لأنه ذكر بعـده (فاليوم ننجيك ببدنك) الى قوله (وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) وهـذا الكلام ليس إلا كلام الله تعالى .

﴿السؤال الثانى﴾ ظاهر اللفظ يدل على أنه إنما لم تقبل توبته للمعصية المتقدمة والفساد السابق ، وصحة هذا التعليل لا تمنع من قبول التوبة .

والجواب : مذهب أصحابنا أن قبول التوبة غير واجب عقلا ، وأحد دلائلهم على صحة ذلك هذه الآية . وأيضا فالتعليل ماوقع بمجرد المعصية السابقة ، بل بتلك المعصية مع كونه من المفسدين .

﴿السؤال الثالث﴾ هل يصح أن جبريل عليه السلام أخذ يملأ فمه من الطين لئلا يتوب غضباً عليه .

والجواب : الأقرب أنه لا يصح ، لأن فى تلك الحالة إما أن يقال التكليف كان ثابتا أو ماكان ثابتا ، فان كان ثابتا لم يجز على جبريل عليه السلام أن يمنعه من التوبة ، بل يجب عليه أن يعينه على التوبة وعلى كل طاعة ، لقوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) وأيضا فلو منعه بما ذكروه لكانت التوبة ممكنة ، لأن الأخرس قد يتوب بأن يندم بقلبه ويعزم على ترك معاودة القبيح ، وحينئذ لا يبقى لما فعله جبريل عليه السـلام فائدة ، وأيضاً لو منعه من التوبة لكان قد رضى ببقائه على الكفر ، والرضا بالكفر كفر ، وأيضاً فكيف يليق بالله تعالى أن يقول لموسى وهرون عليهما السلام (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) ثم يأمر جبريل عليه السلام بأن يمنعه من الايمـان ، ولو قيل : إن جبريل عليه السلام إنما فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله تعـالى ، فهذا يبطله قول جبريل (وما نتنزل إلا بأمر ربك) وقوله تعـالى فى صفتهم (وهم من خشيته مشفقون) وقوله (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) وأما إن قيل : إن التكليف كان زائلا عن فرعون فى ذلك الوقت . فحينئذ لا يبقى لهذا الفعل الذى نسب جبريل اليه فائدة أصلا .

ثم قال تعالى ﴿فاليوم ننجيك ببدنك﴾ وفيه وجوه : الأول (ننجيك ببدنك) أى نلقيك بنجوة من الأرض وهى المكان المرتفع . الثانى : نخرجك من البحر ونخلصك مما وقع فيـه قومك من قعر البحر ، ولكن بعد أن تغرق . وقوله (ببدنك) فى موضع الحال ، أى فى الحال التى أنت فيه حينئذ لاروح فيك . الثالث : أن هذا وعد له بالنجاة على سبيل التهكم ، كما فى قوله (فبشرهم بعذاب أليم) كأنه قيل له ننجيك لكن هـذه النجاة إنما تحصـل لبدنك لا لروحك ، ومثل هـذا الكلام قد

يذكر على سبيل الاستهزاء. كما يقال: نعتقك ولكن بعد الموت، ونخلصك من السجن ولكن بعد أن تموت. الرابع: قرأ بعضهم (ننحيك) بالحاء المهملة، أى نلقيك بناحية مما يلي البحر، وذلك أنه طرح بعد الغرق بجانب من جوانب البحر. قال كعب: رماه الماء الى الساحل كأنه ثور.

وأما قوله ﴿ببدنك﴾ ففيه وجوه: الأول: ماذكرنا أنه فى موضع الحال. أى فى الحال التى كنت بدنا محضا من غير روح. الثانى: المراد ننجيك ببدنك كاملا سوياً لم تتغير. الثالث (ننجيك ببدنك) أى نخرجك من البحر عريانا من غير لباس. الرابع (ننجيك ببدنك) أى بدرعك. قال الليث: البدن هو الدرع الذى يكون قصير الكمين. فقوله (ببدنك) أى بدرعك. وهذا منقول عن ابن عباس قال: كان عليه درع من ذهب يعرف بها. فأخرجه الله من الماء مع ذلك الدرع ليعرف. أقول: إن صح هذا فقد كان ذلك معجزة لموسى عليه السلام.

وأما قوله ﴿لتكون لمن خلفك آية﴾ ففيه وجوه: الأول: أن قوما ممن اعتقدوا فيه الالهية لما لم يشاهدوا غرقه كذبوا بذلك وزعموا أن مثله لايموت. فأظهر الله تعالى أمره بأن أخرجه من الماء بصورته حتى شاهدوه وزالت الشبهة عن قلوبهم. وقيل كان مطرحه على ممر بنى إسرائيل. الثانى: لايبعد أنه تعالى أراد أن يشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة بعد ماسمعوا منه قوله أنا ربكم الأعلى ليكون ذلك زجراً للخلق عن مثل طريقته. ويعرفوا أنه كان بالأمس فى نهاية الجلالة والعظمة ثم آل أمره إلى ما يرون. الثالث: قرأ بعضهم (لمن خلقك) بالقاف أى لتكون لخالقك آية كسائر آياته. الرابع: أنه تعالى لما أغرقه مع جميع قومه ثم إنه تعالى ما أخرج أحداً منهم من قعر البحر، بل خصه بالاخراج كان تخصيصه بهذه الحالة العجيبة دالا على كمال قدرة الله تعالى وعلى صدق موسى عليه السلام فى دعوى النبوة.

وأما قوله ﴿وان كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾ فالأظهر أنه تعالى لما ذكر قصة موسى وفرعون وذكر حال عاقبة فرعون وختم ذلك بهذا الكلام. وخاطب به محمداً عليه الصلاة والسلام فيكون ذلك زاجرا لأمته عن الاعراض عن الدلائل، وباعثاً لهم على التأمل فيها والاعتبار بها، فان المقصود من ذكر هذه القصص حصول الاعتبار. كما قال تعالى (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب)

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ «٩٣»

قوله تعالى ﴿ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر ماوقع عليه الختم فى واقعة فرعون وجنوده، ذكر أيضاً فى هذه الآية ماوقع عليه الختم فى أمر بنى إسرائيل، وههنا بحثان :

﴿البحث الأول﴾ أن قوله (بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق) أى أسكناهم مكان صدق أى مكانا محموداً، وقوله (مبوأ صدق) فيه وجهان : الأول : يجوز أن يكون مبوأ صدق مصدراً، أى بوأناهم تبوأ صدق . الثانى : أن يكون المعنى منزلا صالحاً مرضياً، وإنما وصف المبوأ بكونه صدقا، لأن عادة العرب أنها إذا مدحت شيئاً أضافته إلى الصدق تقول : رجل صدق، وقدم صدق . قال تعالى (وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق) والسبب فيه أن ذلك الشىء إذا كان كاملا فى وقته صالحاً للغرض المطلوب منه، فكل ما يظن فيه من الخير، فانه لابد وأن يصدق ذلك الظن .

﴿البحث الثانى﴾ اختلفوا فى أن المراد ببنى اسرائيل فى هذه الآية أهم اليهود الذين كانوا فى زمن موسى عليه السلام أم الذين كانوا فى زمن محمد عليه السلام .

﴿أما القول الأول﴾ فقد قال به قوم ودليلهم أنه تعالى لما ذكر هذه الآية عقيب قصة موسى عليه السلام كان حمل هذه الآية على أحوالهم أولى، وعلى هذا التقدير : كان المراد بقوله (ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق) الشام، ومصر، وتلك البلاد فانها بلاد كثيرة الخصب . قال تعالى (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله) والمراد من قوله (ورزقناهم من الطيبات) تلك المنافع، وأيضاً المراد منها أنه تعالى أورث بنى اسرائيل جميع ما كان تحت أيدى قوم فرعون من الناطق والصامت والحرث والنسل، كما قال (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها)

ثم قال تعالى ﴿فما اختلفوا حتى جاءهم العلم﴾ والمراد أن قوم موسى عليه السلام بقوا على ملة واحدة ومقالة واحدة من غير اختلاف حتى قرؤا التوراة، فحينئذ تنبهوا للمسائل والمطالب ووقع

فَانْ كُنتَ فِى شَكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ «٩٤» وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ «٩٥» إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ «٩٦» وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ «٩٧»

الاختلاف بينهم . ثم بين تعالى أن هذا النوع من الاختلاف لابد وأن يبقى فى دار الدنيا ، وأنه تعالى يقضى بينهم يوم القيامة .

﴿وأما القول الثانى﴾ وهو أن المراد ببنى إسرائيل فى هذه الآية اليهود الذين كانوا فى زمان محمد عليه الصلاة والسلام فهذا قال به قوم عظيم من المفسرين . قال ابن عباس : وهم قريظة والنضير وبنو قينقاع أنزلناهم منزل صدق مابين المدينة والشام ورزقناهم من الطيبات ، والمراد مافى تلك البلاد من الرطب والتمر التى ليس مثلها طيباً فى البلاد . ثم إنهم بقوا على دينهم ، ولم يظهر فيهم الاختلاف حتى جاءهم العلم . والمراد من العلم القرآن النازل على محمد عليه الصلاة والسلام . وإنما سماه علماً ، لأنه سبب العلم وتسمية السبب باسم المسبب مجاز مشهور . وفى كون القرآن سبباً لحدوث الاختلاف وجهان : الأول : أن اليهود كانوا يخبرون بمبعث محمد عليه الصلاة والسلام ويفتخرون به على سائر الناس . فلما بعثه الله تعالى كذبوه حسداً وبغياً وإيثاراً لبقاء الرياسة وآمن به طائفة منهم ، فبهذا الطريق صار نزول القرآن سبباً لحدوث الاختلاف فيهم . الثانى : أن يقال : إن هذه الطائفة من بنى إسرائيل كانوا قبل نزول القرآن كفاراً محضاً بالكلية . وبقوا على هذه الحالة حتى جاءهم العلم ، فعند ذلك اختلفوا فآمن قوم وبقى أقوام آخرون على كفرهم .

وأما قوله تعالى ﴿إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ فالمراد منه أن هذا النوع من الاختلاف لاحيلة فى إزالته فى دار الدنيا ، وأنه تعالى فى الآخرة يقضى بينهم ، فيتميز المحق من المبطل والصديق من الزنديق .

قوله تعالى ﴿فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك لقد

جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم .

اعلم أنه تعالى لما ذكر من قبل اختلافهم عند ماجاءهم العلم أورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية مايقوى قلبه فى صحة القرآن والنبوة ، فقال تعالى (فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك) وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال الواحدى الشك فى وضع اللغة ، ضم بعض الشىء إلى بعض ، يقال : شك الجواهر فى العقد إذا ضم بعضها إلى بعض . ويقال شككت الصيد إذا رميته فضممت يده أورجله إلى رجله والشكائك من الهوادج ماشك بعضها ببعض والشكاك البيوت المصطفة والشكائك الأدعياء ، لأنهم يشكون أنفسهم إلى قوم ليسوا منهم ، أى يضمون ، وشك الرجل فى السلاح . إذا دخل فيه وضمه إلى نفسه وألزمه اياها ، فاذا قالوا : شك فلان فى الأمور أرادوا أنه وقف نفسه بين شيئين ، فيجوز هذا ، ويجوز هذا فهو يضم إلى مايتوهمه شيئا آخر خلافه .

﴿المسألة الثانية﴾ اختلف المفسرون : فى أن المخاطب بهذا الخطاب من هو ؟ فقيل النبى عليه الصلاة والسلام . وقيل غيره . أما من قال بالأول : فاختلفوا على وجوه .

﴿الوجه الأول﴾ أن الخطاب مع النبى عليه الصلاة والسلام فى الظاهر ، والمراد غيره كقوله تعالى (ياأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين) وكقوله (لئن أشركت ليحبطن عملك) وكقوله (ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس) ومن الأمثلة المشهورة : اياك أعنى واسمعى ياجاره .

والذى يدل على صحة ماذكرناه وجوه : الأول : قوله تعالى فى آخر السورة (ياأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى) فبين ان المذكور فى أول الآية على سبيل الرمز ، هم المذكورون فى هذه الآية على سبيل التصريح . الثانى : أن الرسول لو كان شاكا فى نبوة نفسه لكان شك غيره فى نبوته أولى وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية . والثالث : أن بتقدير أن يكون شاكا فى نبوة نفسه ، فكيف يزول ذلك الشك باخبار أهل الكتاب عن نبوته مع أنهم فى الأكثر كفار ، وإن حصل فيهم من كان مؤمنا إلا أن قوله ليس بحجة لاسيما وقد تقرر أن مافى أيديهم من التوراة والانجيل ، فالكل مصحف محرف ، فثبت أن الحق هو أن هذا الخطاب ، وإن كان فى الظاهر مع الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن المراد هو الأمة ، ومثل هذا معتاد . فان السلطان الكبير إذا كان له أمير ،

وكان تحت راية ذلك الأمير جمع ، فاذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص ، فانه لا يوجه خطابه عليهم ، بل يوجه ذلك الخطاب على ذلك الأمير الذى جعله أميراً عليهم ، ليكون ذلك أقوى تأثيراً فى قلوبهم .

﴿الوجه الثانى﴾ أنه تعالى علم أن الرسول لم يشك فى ذلك . إلا أن المقصود أنه متى سمع هذا الكلام ، فانه يصرح ويقول «يارب لا أشك ولا أطلب الحجة من قول أهل الكتاب بل يكفينى ما أنزلته على من الدلائل الظاهرة» ونظيره قوله تعالى للملائكة (أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) والمقصود أن يصرحوا بالجواب الحق ويقولوا (سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن) وكما قال لعيسى عليه السلام (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله) والمقصود منه أن يصرح عيسى عليه السلام بالبراءة عن ذلك فكذا ههنا .

﴿الوجه الثالث﴾ هو أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان من البشر . وكان حصول الخواطر المشوشة والأفكار المضطربة فى قلبه من الجائزات . وتلك الخواطر لا تندفع إلا بايراد الدلائل وتقرير البينات ، فهو تعالى أنزل هذا النوع من التقريرات حتى أن بسببها تزول عن خاطره تلك الوساوس . ونظيره قوله تعالى (فلعلك تارك بعض مايوحى إليك وضائق به صدرك) وأقول تمام التقرير فى هذا الباب إن قوله (فان كنت فى شك) فافعل كذا وكذا قضية شرطية والقضية الشرطية لا إشعار فيها البتة بأن الشرط وقع أولم يقع . ولا بأن الجزاء وقع أولم يقع ، بل ليس فيها إلا بيان أن ماهية ذلك الشرط مستلزمة لماهية ذلك الجزاء فقط ، والدليل عليه أنك إذا قلت إن كانت الخمسة زوجا كانت منقسمة بمتساويين . فهو كلام حق ، لأن معناه ان كون الخمسة زوجا يستلزم كونها منقسمة بمتساويين ، ثم لا يدل هذا الكلام على أن الخمسة زوج ولا على أنها منقسمة بمتساويين فكذا ههنا هذه الآية ، تدل على أنه لو حصل هذا الشك لكان الواجب فيه هو فعل كذا وكذا ، فأما إن هذا الشك وقع أولم يقع ، فليس فى الآية دلالة عليه . والفائدة فى إنزال هذه الآية على الرسول أن تكثير الدلائل وتقويتها مما يزيد فى قوة اليقين وطمأنينة النفس وسكون الصدر ، ولهذا السبب أكثر الله فى كتابه من تقرير دلائل التوحيد والنبوة .

﴿والوجه الرابع﴾ فى تقرير هذا المعنى أن تقول : المقصود من ذكر هذا الكلام استمالة قلوب الكفار وتقريبهم من قبول الايمان ، وذلك لأنهم طالبوه مرة بعد أخرى ، بما يدل على صحة نبوته وكأنهم استحيوا من تلك المعاودات والمطالبات ، وذلك الاستحياء صار مانعا لهم عن قبول الايمان فقال تعالى (فان كنت فى شك) من نبوتك فتمسك بالدلائل القلائل ، يعنى أولى الناس بأن لا يشك

فى نبوته هو نفسه ، ثم مع هذا إن طلب هو من نفسه دليلا على نبوة نفسه بعد ماسبق من الدلائل الباهرة والبينات القاهرة فانه ليس فيه عيب . ولا يحصل بسببه نقصان ، فاذا لم يستقبح منه ذلك فى حق نفسه فلأن لا يستقبح من غيره طلب الدلائل كان أولى ، فثبت أن المقصود بهذا الكلام استمالة القوم وإزالة الحياء عنهم فى تكثير المناظرات .

﴿الوجه الخامس﴾ أن يكون التقدير أنك لست شاكا البتة . ولو كنت شاكا لكان لك طرق كثيرة فى إزالة ذلك الشك كقوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) والمعنى أنه لو فرض ذلك الممتنع واقعاً ، لزم منه المحال الفلانى فكذا ههنا . ولو فرضنا وقوع هذا الشك فارجع إلى التوراة والانجيل لتعرف بهما أن هذا الشك زائل وهذه الشبهة باطلة .

﴿الوجه السادس﴾ قال الزجاج : إن الله خاطب الرسول فى قوله (فان كنت فى شك) وهو شامل للخلق وهو كقوله (يا أيها النبى إذا طلقتم النساء) قال : وهذا أحسن الأقاويل ، قال القاضى : هذا بعيد لأنه متى كان الرسول داخلا تحت هذا الخطاب فقد عاد السؤال ، سواء أريد معه غيره أو لم يرد وإن جاز أن يراد هو مع غيره ، فما الذى يمنع أن يراد بانفراده كما يقتضيه الظاهر ، ثم قال : ومثل هذا التأويل يدل على قلة التحصيل .

﴿الوجه السابع﴾ هو أن لفظ (إن) فى قوله (إن كنت فى شك) للنفى أى ما كنت فى شك قبل يعنى لا نأمرك بالسؤال لأنك شاك لكن لتزداد يقيناً كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمعاينة إحياء الموتى يقيناً .

﴿وأما الوجه الثانى﴾ وهو أن يقال هذا الخطاب ليس مع الرسول فتقريره أن الناس فى زمانه كانوا فرقاً ثلاثة، المصدقون به . والمكذبون له . والمتوقفون فى أمره الشاكون فيه ، فخاطبهم الله تعالى بهذا الخطاب فقال : إن كنت أيها الانسان فى شك مما أنزلنا اليك من الهدى على لسان محمد فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته ، وإنما وحد الله تعالى ذلك وهو يريد الجمع ، كما فى قوله (يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك) و (ياأيها الانسان إنك كادح) وقوله (فاذا مس الانسان ضر) ولم يرد فى جميع هذه الآيات إنسانا بعينه ، بل المراد هو الجماعة فكذا ههنا ولما ذكر الله تعالى لهم مايزيل ذلك الشك عنهم حذرهم من أن يلحقوا بالقسم الثانى وهم المكذبون فقال (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين)

﴿المسألة الثالثة﴾ اختلفوا فى أن المسئول منه فى قوله (فاسأل الذين يقرؤن الكتاب) من هم ؟ فقال المحققون هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ، وعبد الله بن صوريا ، وتميم

الدارى ، وكعب الأحبار لأنهم هم الذين يوثق بخبرهم ، ومنهم من قال : الكل سواء كانوا من المسلمين أومن الكفار، لأنهم إذا بلغوا عددالتواترثم قرؤا آية من التوراة والانجيل ، وتلكالآية دالة على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم فقد حصل الغرض .

فان قيل : إذا كان مذهبكم أن هـذه الكتب قد دخلها التحريف والتغيير ، فكيف يمكن التعويل عليها .

قلنا : إنهم إنما حرفوها بسبب اخفاء الآيات الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام . فان بقيت فيها آيات دالة على نبوته كان ذلك من أقوى الدلائل على صحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، لأنها لما بقيت مع توفر دواعيهم على إزالتها دل ذلك على أنها كانت فى غاية الظهور . وأما أن المقصود من ذلك السؤال معرفة أى الأشياء ، ففيه قولان : الأول : أنه القرآن ومعرفة نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم . والثانى : أنه رجع ذلك إلى قوله تعالى (فما اختلفوا حتى جاءهم العلم) والأول أولى ، لأنه هوالأهم والحاجة إلىمعرفتهأتم . واعلم أنه تعالى لمابين هذا الطريق قال بعده (لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله) أى فأثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك ، وانتفاء التكذيب بآيات الله ، ويجوز أن يكون ذلك علىطريقالتهييج واظهارالتشدد . ولذلك قال عليه الصلاة والسلام عندنزوله «لاأشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق»

ثم قال ﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين﴾

واعلم أن فرق المكلفين ثلاثة . إما أن يكون من المصدقين بالرسول . أو من المتوقفين فى صدقه ، أومن المكذبين ، ولا شك أن أمر المتوقف أسهل من أمرالمكذب . لاجرم قد ذكر المتوقف بقوله (ولاتكونن من الممترين) ثم أتبعه بذكرالمكذب ، وبين أنه من الخاسرين ، ثم إنه تعالى لما فصل هذا التفصيل ، بين أن له عبادا قضى عليهم بالشقاء فلا يتغيرون . وعبادا قضى لهم بالكرامة ، فلايتغيرون . فقال (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ نافع وابن عامر : كلمات على الجمع ، وقرأ الباقون : كلمة على لفظ الواحد ، وأقول إنها كلمات بحسب الكثرة النوعية أو الصنفية وكلمة واحدة بحسب الواحدة الجنسية .

﴿المسألة الثانية﴾ المراد من هذه الكلمة حكم الله بذلك واخباره عنه ، وخلقه فى العبد مجموع القدرة والداعية ، الذى هوموجب لحصولذلك الأثر. أما الحكم والاخبار والعلمفظاهر، وأمامجموع

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ «٩٨»

القدرة والداعى فظاهر أيضاً ، لأن القدرة لما كانت صالحة للطرفين لم يترجح أحد الجانبين على الآخر إلا لمرجح ، وذلك المرجح من الله تعالى قطعاً للتسلسل ، وعند حصول هذا المجموع يجب الفعل ، وقد احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم فى إثبات القضاء اللازم والقدر الواجب وهو حق وصدق ولا محيص عنه .

ثم قال تعالى ﴿ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ والمراد أنهم لايؤمنون البتة ، ولو جاءتهم الدلائل التى لاحد لها ولاحصر ، وذلك لأن الدليل لايهدى إلا باعانة الله تعالى فاذا لم تحصل تلك الاعانة ضاعت تلك الدلائل .

القصـــة الثالثة

من القصص المذكورة فى هذه السورة ، قصة يونس عليه السلام

قوله تعالى ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين﴾

اعلم أنه تعالى لما بين من قبل (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) أتبعه بهذه الآية ، لانها دالة على أن قوم يونس آمنوا بعد كفرهم وانتفعوا بذلك الايمان . وذلك يدل على أن الكفار فريقان : منهم من حكم عليه بخاتمة الكفر ، ومنهم من حكم عليه بخاتمة الايمان . وكل ماقضى الله به فهو واقع . وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ فى كلمة (لولا) فى هذه الآية طريقان :

﴿الطريق الأول﴾ أن معناه النفى ، روى الواحدى فى البسيط قال : قال أبو مالك صاحب ابن عباس كل مافى كتاب الله تعالى من ذكر لولا ، فمعناه هلا ، إلا حرفين ، فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ، معناه فما كانت قرية آمنت . فنفعها إيمانها . وكذلك فلولا كانت من القرون من قبلكم معناه ، فما كان من القرون ، فعلى هذا تقدير الآية ، فما كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها إلا قوم يونس . وانتصب قوله (إلا قوم يونس) على أنه استثناء منقطع عن الأول ، لأن أول الكلام جرى على القرية ، وان كان المراد أهلها ووقع استثناء القول من القرية . فكان كقوله :

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِى الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى

وما بالربع من أحد الا أوارى

وقرىء أيضا بالرفع على البدل .

﴿الطريق الثانى﴾ أن (لولا) معناه هلا . والمعنى هلا كانت قرية واحدة من القرى التى أهلكناها تابت عن الكفر وأخلصت فى الايمان قبل معاينة العذاب إلا قوم يونس . وظاهر اللفظ يقتضى استثناء قوم يونس من القرى ، إلا أن المعنى استثناء قوم يونس من أهل القرى . وهو استثناء منقطع بمعنى ولكن قوم يونس لما آمنوا فعلنا بهم كذا وكذا .

﴿المسألة الثانية﴾ روى أن يونس عليه السلام بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضباً ، فلما فقدوه خافوا نزول العقاب ، فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة . وكان يونس . قال لهم إن أجلكم أربعون ليلة . فقالوا : إن رأينا أسباب الهلاك آمنا بك . فلما مضت خمس وثلاثون ليلة ظهر فى السماء غيم أسود شديد السواد ، فظهر منه دخان شديد وهبط ذلك الدخان حتى وقع فى المدينة وسود سطوحهم فخرجوا الى الصحراء . وفرقوا بين النساء والصبيان وبين الدواب وأولادها فحن بعضها إلى بعض فعلت الأصوات ، وكثرت التضرعات وأظهروا الايمان والتوبة وتضرعوا إلى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم . وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء يوم الجمعة وعن ابن مسعود بلغ من توبتهم أن يردوا المظالم حتى أن الرجل كان يقلع الحجر بعد أن وضع عليه بناء أساسه فيرده إلى مالكه ، وقيل خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى ؟ فقال لهم قولوا ياحى حين لاحى . وياحى يامحيي الموتى . وياحى لا إله إلا أنت ، فقالوا فكشف الله العذاب عنهم ، وعن الفضل ابن عباس أنهم قالوا : اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله .

﴿المسألة الثالثة﴾ إن قال قائل إنه تعالى حكى عن فرعون أنه تاب فى آخر الأمر ولم يقبل توبته وحكى عن قوم يونس أنهم تابوا وقبل توبتهم فما الفرق ؟

والجواب : أن فرعون إنما تاب بعد أن شاهد العذاب ، وأما قوم يونس فانهم تابوا قبل ذلك فانهم لما ظهرت لهم أمارات دلت على قرب العذاب تابوا قبل أن شاهدوا فظهر الفرق

قوله تعالى ﴿ولوشاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا

يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ «٩٩» وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ «١٠٠»

مؤمنين وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لايعقلون﴾

اعلم أن هـذه السورة من أولها إلى هـذا الموضع فى بيان حكاية شبهات الكفار فى إنكار النبوة مع الجواب عنها ، وكانت إحدى شبهاتهم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يهددهم بنزول العذاب على الكافرين . وبعد اتباعه إن الله ينصرهم ويعلى شأنهم ويقوى جانبهم ، ثم إن الكفار ماراأوا ذلك فجعلوا ذلك شبهة فى الطعن فى نبوته ، وكانوا يبالغون فى استعجال ذلك العذاب على سبيل السخرية ، ثم إن الله سبحانه وتعالى بين أن تأخير الموعود به لا يقدح فى صحة الوعد ، ثم ضرب لهـذا أمثلة وهى واقعة نوح وواقعة موسى عليهما السلام مع فرعون وامتدت هذه البيانات إلى هذه المقامات ، ثم فى هذه الآية بين أن جد الرسول فى دخولهم فى الايمـان لاينفع ومبالغته فى تقرير الدلائل ، وفى الجواب عن الشبهات لاتفيد ، لأن الايمـان لايحصل إلا بتخليق الله تعالى ومشيئته وإرشاده وهدايته ، فاذا لم يحصل هذا المعنى لم يحصل الايمـان ، وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ احتج أصحابنا على صحة قولهم بأن جميع الكائنات بمشيئة الله تعالى ، فقالوا كلمة لو تفيد انتفاء الشىء لانتفاء غيره ، فقوله (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم) يقتضى أنه ماحصلت تلك المشيئة وماحصل إيمـان أهل الأرض بالكلية فدل هذا على أنه تعالى ماأراد إيمان الكل ، أجاب الجبائى والقاضى وغيرهما بأن المراد مشيئة الالجاء ، أى لو شاء الله أن يلجئهم الى الايمان لقدر عليه ولصح ذلك منه . ولكنه مافعل ذلك . لأن الايمـان الصادر من العبد على سبيل الالجاء لاينفعه ولا يفيده فائدة ، ثم قال الجبائى : ومعنى إلجاء الله تعالى إياهم إلى ذلك ، أن يعرفهم اضطراراً أنهم لو حاولوا تركه ، حال الله بينهم وبين ذلك وعند هذا لابد وأن يفعلوا ما ألجئوا اليه كما أن من علم منا أنه إن حاول قتل ملك فانه يمنعه منه قهراً لم يكن تركه لذلك الفعل سبباً لاستحقاق المدح والثواب فكذا ههنا .

واعلم أن هذا الكلام ضعيف وبيانه من وجوه : الأول : أن الكافر كان قادراً على الكفر فهل كان قادراً على الايمان ، أو ماكان قادراً عليه ؟ فان قدر على الكفر ولم يقدر على الايمان فحينئذ تكون القدرة على الكفر مستلزمة للكفر ، فاذا كان خالق تلك القدرة هو الله تعالى لزم

أن يقال إنه تعالى خلق فيه قدرة مستلزمة للكفر فوجب أن يقال إنه أراد منه الكفر وأما ان كانت القدرة صالحة للضدين كما هو مذهب القوم ، فرجحان أحد الطرفين على الآخر إن لم يتوقف على المرجح فقد حصل الرجحان لا لمرجح وهذا باطل، وإن توقف على مرجح فذلك المرجح إما أن يكون من العبد أو من الله فان كان من العبد عاد التقسيم فيه ولزم التسلسل وهو محال ، وإن كان من الله تعالى فحينئذ يكون مجموع تلك القدرة مع تلك الداعية موجباً لذلك الكفر فاذا كان خالق القدرة والداعية هو الله تعالى فحينئذ عاد الالزام . الثانى : أن قوله (ولو شاء ربك) لا يجوز حمله على مشيئة الالجاء . لأن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يطلب أن يحصل لهم إيمان لا يفيدهم فى الآخرة ، فبين تعالى أنه لا قدرة للرسول على تحصيل هذا الايمان ، ثم قال (ولو شاء ربك) لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً) فوجب أن يكون المراد من الايمان المذكور فى هذه الآية هو هذا الايمان النافع حتى يكون الكلام منتظماً ، فأما حمل اللفظ على مشيئة القهر والالجاء فانه لا يليق بهذا الموضع . الثالث : المراد بهذا الالجاء ، إما أن يكون هو أن يظهر له آيات هائلة يعظم خوفه عند رؤيتها ، ثم يأتى بالايمان عندها . وإما أن يكون المراد خلق الايمان فيهم . والأول باطل ، لأنه تعالى بين فيما قبل هذه الآية أن إنزال هذه الآيات لا يفيد وهو قوله (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) وقال أيضاً (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) وإن كان المراد هو الثانى لم يكن هذا الالجاء إلى الايمان . بل كان ذلك عبارة عن خلق الايمان فيهم . ثم يقال لكنه ما خلق الايمان فيهم . فدل على أنه ما أراد حصول الايمان لهم وهذا عين مذهبنا .

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذا الكلام قال (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) والمعنى أنه لا قدرة لك على التصرف فى أحد ، والمقصود منه بيان أن القدرة القاهرة والمشيئة النافذة ليست إلا للحق سبحانه وتعالى

﴿المسألة الثانية﴾ احتج أصحابنا على صحة قولهم أنه لا حكم للأشياء قبل ورود الشرع بقوله (وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله) قالوا وجه الاستدلال به أن الاذن عبارة عن الاطلاق فى الفعل ورفع الحرج وصريح هذه الآية يدل على أنه قبل حصول هذا المعنى ليس له أن يقدم على هذا الايمان ، ثم قالوا : والذى يدل عليه من جهة العقل وجوه : الأول : أن معرفة الله تعالى والاشتغال بشكره والثناء عليه لا يدل العقل على حصول نفع فيه . فوجب أن لا يجب ذلك بحسب العقل . بيان الأول أن ذلك النفع إما أن يكون عائداً إلى المشكور أو إلى الشاكر . والأول باطل لأن

فى الشاهد المشكور ينتفع بالشكر فيسره الشكر ويسوءه الكفران ، فلاجرم كان الشكر حسناً والكفران قبيحاً ، أما الله سبحانه فانه لايسره الشكر ولا يسوءه الكفران ، فلاينتفع بهذا الشكر أصلا . والثانى : أيضاً باطل لأن الشاكر يتعب فى الحال بذلك الشكر ويبذل الخدمة مع أن المشكور لاينتفع به البتة ولا يمكن أن يقال ان ذلك الشكر علة الثواب ، لأن الاستحقاق على الله تعالى محال فان الاستحقاق على الغير إنما يعقل إذا كان ذلك الغير بحيث لولم يعط لأوجب امتناعه من إعطاء ذلك الحق حصول نقصان فى حقه ، ولما كان الحق سبحانه منزهاً عن النقصان والزيادة لم يعقل ذلك فى حقه ، فثبت أن الاشتغال بالايمان وبالشكر، لايفيد نفعاً بحسب العقل المحض وما كان كذلك امتنع أن يكون العقل موجباً له ، فثبت بهذا البرهان القاطع صحة قوله تعالى (وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله) قال القاضى : المراد أن الايمان لايصدر عنه إلا بعلم الله أو بتكليفه أو باقداره عليه .

وجوابنا : أن حمل الاذن على ماذكرتم ترك للظاهر وذلك لايجوز ، لاسيما وقد بينا أن الدليل القاطع العقلى يقوى قولنا .

﴿المسألة الثالثة﴾ قرأ أبوبكر عن عاصم (ونجعل) بالنون وقرأ الباقون بالياء كناية عن اسم الله تعالى .

﴿المسألة الرابعة﴾ احتج أصحابنا على صحة قولهم بأن خالق الكفر والايمان هو الله تعالى بقوله تعالى (ويجعل الرجس على الذين لايعقلون) وتقريره أن الرجس قد يراد به العمل القبيح قال تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) والمراد من الرجس ههنا العمل القبيح ، سواء كان كفراً أو معصية ، وبالتطهير نقل العبد من رجس الكفر والمعصية إلى طهارة الايمان والطاعة ، فلما ذكر الله تعالى فيما قبل هذه الآية أن الايمان لايحصل إلا بمشيئة الله تعالى وتخليقه ، ذكر بعده أن الرجس لايحصل إلا بتخليقه وتكوينه . والرجس الذى يقابل الايمان ليس إلا الكفر ، فثبت دلالة هذه الآية على أن الكفر والايمان من الله تعالى .

أجاب : أبو على الفارسى النحوى عنه . فقال : الرجس ، يحتمل وجهين آخرين : أحدهما : أن يكون المراد منه العذاب ، فقوله (ويجعل الرجس على الذين لايعقلون) أى يلحق العذاب بهم كما قال (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) والثانى : أنه تعالى يحكم عليهم بأنهم رجس كما قال (إنما المشركون نجس) والمعنى أن الطهارة الثابتة للمسلمين لم تحصل لهم .

والجواب : أنا قد بينا بالدليل العقلى أن الجهل لايمكن أن يكون فعلا للعبد لأنه لايريده ولا يقصد

قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ «١٠١»

إلى تكوينه . وإنما يريد ضده ، وإنما قصد إلى تحصيل ضده ، فلو كان به لما حصل إلا ماقصده وأوردنا السؤالات على هذه الحجة وأجبنا عنها فيما سلف من هذا الكتاب . وأما حمل الرجس على العذاب ، فهو باطل ، لأن الرجس عبارة عن الفاسد المستقذر المستكره ، فحمل هذا اللفظ على جهلهم وكفرهم أولى من حمله على عذاب الله مع كونه حقاً صدقاً صواباً . وأما حمل لفظ الرجس على حكم الله برجاستهم ، فهو فى غاية البعد . لأن حكم الله تعالى بذلك صفته ، فكيف يجوز أن يقال إن صفة الله رجس ، فثبت أن الحجة التى ذكرناها ظاهرة .

قوله تعالى ﴿قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ عاصم وحمزة (قل انظروا) بكسر اللام لالتقاء الساكنين والأصل فيه الكسر ، والباقون بضمها نقلوا حركة الهمزة إلى اللام .

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم انه تعالى لما بين فى الآيات السالفة أن الايمان لا يحصل إلا بتخليق الله تعالى ومشيئته ، أمر بالنظر والاستدلال فى الدلائل حتى لا يتوهم أن الحق هو الجبر المحض . فقال (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض)

واعلم ان هذا يدل على مطلوبين : الأول : انه لا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بالتدبر فى الدلائل كما قال عليه الصلاة والسلام «تفكروا فى الخلق ولا تتفكروا فى الخالق» والثانى : وهو أن الدلائل إما أن تكون من عالم السموات أو من عالم الأرض ، أما الدلائل السماوية ، فهى حركات الافلاك ومقاديرها وأوضاعها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب ، وما يختص به كل واحد منها من المنافع والفوائد ، وأما الدلائل الأرضية ، فهى النظر فى أحوال العناصر العلوية . وفى أحوال المعادن وأحوال النبات وأحوال الانسان خاصة ، ثم ينقسم كل واحد من هذه الأجناس إلى أنواع لانهاية لها . ولو أن الانسان أخذ يتفكر فى كيفية حكمة الله سبحانه فى تخليق جناح بعوضة لانقطع عقله قبل أن يصل إلى أقل مرتبة من مراتب تلك الحكم والفوائد . ولا شك أن الله سبحانه أكثر من ذكر هذه الدلائل فى القرآن المجيد ، فلهذا السبب ذكر قوله (قل انظروا ماذا فى السموات

فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ «١٠٢» ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ «١٠٣»

والأرض) ولم يذكر التفصيل . فكأنه تعالى نبه على القاعدة الكلية ، حتى أن العاقل يتنبه لأقسامها وحينئذ يشرع فى تفصيل حكمة كل واحد منها بقدر القوة العقلية والبشرية ، ثم انه تعالى لما أمر بهذا التفكر والتأمل بين بعد ذلك أن هذا التفكر والتدبر فى هذه الآيات لاينفع فى حق من حكم الله تعالى عليه فى الأزل بالشقاء والضلال ، فقال (وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال النحويون (ما) فى هذا الموضع تحتمل وجهين : الأول : أن تكون نفياً بمعنى أن هذه الآيات والنذر لاتفيد الفائدة فى حق من حكم الله عليه بأنه لايؤمن ، كقولك : ما يغنى عنك المال إذا لم تنفق . والثانى : أن تكون استفهاماً كقولك : أى شىء يغنى عنهم ، وهو استفهام بمعنى الانكار .

﴿المسألة الثانية﴾ الآيات هى الدلائل والنذر الرسل المنذرون أو الانذارات .

﴿المسألة الثالثة﴾ قرىء (وما يغنى) بالياء من تحت .

قوله تعالى ﴿فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننجى المؤمنين﴾

واعلم أن المعنى هل ينتظرون إلا أياماً مثل أيام الأمم الماضية ، والمراد أن الأنبياء المتقدمين عليهم السلام كانوا يتوعدون كفار زمانهم بمجىء أيام مشتملة على أنواع العذاب ، وهم كانوا يكذبون بها ويستعجلونها على سبيل السخرية ، وكذلك الكفار الذين كانوا فى زمان الرسول عليه الصلاة والسلام هكذا كانوا يفعلون . ثم إنه تعالى أمره بأن يقول لهم (فانتظروا إنى معكم من المنتظرين) ثم إنه تعالى قال (ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ الكسائى فى رواية نصير (ننجى) خفيفة ، وقرأ الباقون : مشددة وهما لغتان وكذلك فى قوله (ننجى المؤمنين) .

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ «١٠٤» وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ «١٠٥» وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ «١٠٦»

﴿المسألة الثانية﴾ ثم حرف عطف ، وتقدير الكلام كانت عادتنا فيما مضى أن نهلكهم سريعاً ثم ننجى رسلنا .

﴿المسألة الثالثة﴾ لما أمر الرسول فى الآية الأولى أن يوافق الكفار فى انتظار العذاب ذكر التفصيل . فقال : العذاب لاينزل إلا على الكفار . وأما الرسول وأتباعه فهم أهل النجاة .

ثم قال ﴿كذلك حقاً علينا ننجى المؤمنين﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قال صاحب الكشاف : أى مثل ذلك الانجاء ننصر المؤمنين ونهلك المشركين وحقاً علينا اعتراض ، يعنى حق ذلك علينا حقاً

﴿المسألة الثانية﴾ قال القاضى قوله (حقاً علينا) المراد به الوجوب ، لأن تخليص الرسول والمؤمنين من العذاب إلى الثواب واجب ولولاه لما حسن من الله تعالى أن يلزمهم الافعال الشاقة وإذا ثبت وجوبه لهذا السبب جرى مجرى قضاء الدين للسبب المتقدم .

والجواب : أنا نقول إنه حق بسبب الوعد والحكم ، ولانقول إنه حق بسبب الاستحقاق ، لما ثبت أن العبد لايستحق على خالقه شيئا .

قوله تعالى ﴿قل ياأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين ولا تدع من دون الله مالاينفعك ولا يضرك فان فعلت فانك إذا من الظالمين﴾

واعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل على أقصى الغايات وأبلغ النهايات ، أمر رسوله باظهار دينه وباظهار المباينة عن المشركين ، لكى تزول الشكوك والشبهات فى أمره وتخرج عبادة الله من طريقة السر إلى الاظهارفقال (قل ياأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى) واعلم أن ظاهرهذه الآية يدل على أن هؤلاء الكفار ما كانوا يعرفون دين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى الخبر إنهم كانوا يقولون فيه قد صبأ وهو صابئ فأمر الله تعالى أن يبين لهم أنه على دين ابراهيم حنيفاً مسلماً لقوله تعالى (إن ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً) ولقوله(وجهت وجهى للذى فطرالسموات والأرض حنيفا) ولقوله (لا أعبد ماتعبدون) والمعنى : أنكم إن كنتم لاتعرفون دينى فأنا أبينه لكم على سبيل التفصيل ثم ذكر فيه أموراً

﴿فالقيد الأول﴾ قوله (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) وانما وجب تقديم هذا النفى لما ذكرنا أن إزالة النقوش الفاسدة عن اللوح لابد وأن تكون مقدمة على اثبات النقوش الصحيحة فى ذلك اللوح ، وانما وجب هذا النفى لأن العبادة غاية التعظيم وهى لاتليق إلا بمن حصلت له غاية الجلال والاكرام ، وأما الأوثان فانها أحجار. والانسان أشرف حالا منها ، وكيف يليق بالأشرف أن يشتغل بعبادة الأخس .

﴿القيد الثانى﴾ قوله (ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم) والمقصود أنه لما بين أنه يجب ترك عبادة غيرالله ، بين أنه يجب الاشتغال بعبادة الله .

فان قيل : ما الحكمة فى ذكر المعبود الحق فى هذا المقام بهذه الصفة وهى قوله (الذى يتوفاكم) قلنا : فيه وجوه : الأول : يحتمل أن يكون المراد أنى أعبد الله الذى خلقكم أولا ثم يتوفاكم ثانيا ثم يعيدكم ثالثا ، وهذه المراتب الثلاثة قدقررناها فى القرآن مراراً وأطواراً فههنا أكتفى بذكر التوفى منها لكونه منبها على البواقى . الثانى : أن الموت أشد الأشياء مهابة ، فخص هذا الوصف بالذكر فى هذا المقام . ليكون أقوى فى الزجر والردع . الثالث : أنهم لما استعجلوا نزول العذاب قال تعالى (فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا) فهذه الآية تدل على أنه تعالى يهلك أولئك الكفار ويبقى المؤمنين ويقوى دولتهم . فلما كان قريب العهد بذكر هذا الكلام لاجرم قال ههنا (ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم) وهو إشارة إلى ما قرره وبينه فى تلك الآية كأنه يقول : أعبد ذلك الذى وعدنى باهلاكهم وبابقائى .

﴿والقيد الثالث﴾ من الأمور المذكورة فى هذه الآية قوله (وأمرت أن أكون من المؤمنين)

واعلم أنه لما ذكر العبادة وهى من جنس أعمال الجوارح انتقل منها إلى الايمان والمعرفة ، وهذا يدل على أنه مالم يصر الظاهر مزينا بالأعمال الصالحة ، فانه لايحصل فى القلب نور الايمان والمعرفة

﴿والقيد الرابع﴾ قوله (وأن أقم وجهك للدين حنيفا) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ الواو فى قوله (وأن أقم وجهك) حرف عطف وفى المعطوف عليه وجهان : الأول : أن قوله (وأمرت أن أكون) قائم مقام قوله وقيل لى كن من المؤمنين ثم عطف عليه (وأن أقم وجهك) الثانى : أن قوله (وأن أقم وجهك) قائم مقام قوله (وأمرت) باقامة الوجه ، فصار التقدير وأمرت بأن أكون من المؤمنين وباقامة الوجه للدين حنيفا .

﴿المسألة الثانية﴾ إقامة الوجه كناية عن توجيه العقل بالكلية إلى طلب الدين ، لأن من يريد أن ينظر إلى شىء نظراً بالاستقصاء ، فانه يقيم وجهه فى مقابلته بحيث لا يصرفه عنه لا بالقليل ولا بالكثير ، لأنه لو صرفه عنه ، ولو بالقليل فقد بطلت تلك المقابلة ، وإذا بطلت تلك المقابلة ، فقد اختل الابصار ، فلهذا السبب حسن جعل إقامة الوجه للدين كناية عن صرف العقل بالكلية إلى طلب الدين ، وقوله (حنيفاً) أى مائلا اليه ميلا كلياً معرضا عما سواه إعراضا كلياً ، وحاصل هذا الكلام هو الاخلاص التام ، وترك الالتفات إلى غيره ، فقوله أولا (وأمرت أن أكون من المؤمنين) إشارة إلى تحصيل أصل الايمان ، وقوله (وأن أقم وجهك للدين حنيفاً) إشارة الاستغراق فى نور الايمان والاعراض بالكلية عما سواه .

﴿والقيد الخامس﴾ قوله (ولا تكونن من المشركين)

واعلم أنه لايمكن أن يكون هذا نهياً عن عبادة الأوثان ، لأن ذلك صار مذكوراً بقوله تعالى فى هذه الآية (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) فوجب حمل هذا الكلام على فائدة زائدة وهو أن من عرف مولاه ، فلو التفت بعد ذلك إلى غيره كان ذلك شركا ، وهذا هو الذى تسميه أصحاب القلوب بالشرك الخفى .

﴿والقيد السادس﴾ قوله تعالى (ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك) والممكن لذاته معدوم بالنظر إلى ذاته وموجود بايجاد الحق ، واذا كان كذلك فما سوى الحق فلا وجود له الا بايجاد الحق . وعلى هذا التقدير فلانافع الا الحق ولاضار الاالحق ، فكل شىء هالك الا وجهه واذا كان كذلك ، فلاحكم الاالله ولارجوع فى الدارين الا الى الله .

ثم قال فى آخر الآية ﴿فان فعلت فانك اذاً من الظالمين﴾ يعنى لو اشتغلت بطلب المنفعة والمضرة من غير الله فأنت من الظالمين ، لأن الظلم عبارة عن وضع الشىء فى غير موضعه ، فاذا كان ما سوى

وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ «١٠٧»

الحق معزولا عن التصرف ، كانت إضافة التصرف إلى ماسوى الحق وضعاً للشىء فى غير موضعه فيكون ظالما .

فان قيل : فطلب الشبع من الأكل والرى من الشرب هل يقدح فى ذلك الاخلاص ؟

قلنا : لا . لأن وجود الخبز وصفاته كلها بايجاد الله وتكوينه ، وطلب الانتفاع بشىء خلقه الله للانتفاع به لا يكون منافيا للرجوع بالكلية إلى الله ، الاأن شرط هـذا الاخلاص أن لايقع بصر عقله على شىء من هذه الموجودات إلا ويشاهد بعين عقله أنها معدومة بذواتها . وموجودة بايجاد الحق وهالكة بأنفسها وباقية بابقاء الحق ، فحينئذ يرى ماسوى الحق عدماً محضا بحسب أنفسها . ويرى نور وجوده وفيض إحسانه عاليا على الكل .

قوله تعالى ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلاهو وإن يردك بخير فلاراد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم﴾

وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه سبحانه وتعالى قرر فى آخر هذه السورة أن جميع الممكنات مستندة اليه وجميع الكائنات محتاجة اليه ، والعقول والهة فيه ، والرحمة والجود والوجود فائض منه

واعلم أن الشىء إما أن يكون ضاراً وإما أن يكون نافعا ، وإما أن يكون لا ضاراً ولانافعا ، وهذان القسمان مشتركان فى اسم الخير ، ولما كان الضر أمراً وجوديا لاجرم قال فيه (وان يمسسك الله بضر) ولما كان الخير قد يكون وجوديا وقد يكون عدميا ، لاجرم لم يذكر لفظ الامساس فيه بل قال (وإن يردك بخير) والآية دالة على أن الضر والخير واقعان بقدرة الله تعالى وبقضائه فيدخل فيه الكفر والايمان والطاعة والعصيان والسرور والآفات والخيرات والآلام واللذات والراحات والجراحات . فبين سبحانه وتعالى أنه ان قضى لأحد شراً فلا كاشف له إلا هو ، وإن قضى لأحد خيراً فلا راد لفضله البتة ثم فى الآية دقيقة أخرى ، وهى أنه تعالى رجح جانب الخير على جانب الشر من ثلاثة أوجه : الأول : أنه تعالى لما ذكر إمساس الضر بين أنه لا كاشف له إلا هو ، وذلك يدل على أنه تعالى يزيل المضار . لأن الاستثناء من النفى إثبات ، ولما ذكر الخير لم

قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ «١٠٨»

يقل بأنه يدفعه بل قال إنه لاراد لفضله ، وذلك يدل على أن الخير مطلوب بالذات ، وأن الشر مطلوب بالعرض كما قال النبي صلى الله عليه وسلم رواية عن رب العزة أنه قال «سبقت رحمتى غضبى» الثانى : أنه تعالى قال فى صفة الخير (يصيب به من يشاء من عباده) وذلك يدل على أن جانب الخير والرحمة أقوى وأغلب . والثالث : أنه قال (وهو الغفور الرحيم) وهذا أيضاً يدل على قوة جانب الرحمة وحاصل الكلام فى هذه الآية أنه سبحانه وتعالى بين أنه منفرد بالخلق والايجاد والتكوين والابداع . وأنه لاموجد سواه ولامعبود الا إياه . ثم نبه على أن الخير مراد بالذات . والشر مراد بالعرض وتحت هذا الباب أسرار عميقة . فهذا مانقوله فى هذه الآية .

﴿المسألة الثانية﴾ قال المفسرون : إنه تعالى لما بين فى الآية الأولى فى صفة الأصنام أنها لا تضر ولاتنفع ، بين فى هذه الآية أنها لاتقدر أيضاً على دفع الضرر الواصل من الغير ، وعلى الخير الواصل من الغير . قال ابن عباس رضى الله عنهما (إن يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو) يعنى بمرض وفقر فلا دافع له الا هو

وأما قوله ﴿وإن يردك بخير﴾ فقال الواحدى : هو من المقلوب معناه وإن يرد بك الخير ولكنه لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز إبدال كل واحد منهما بالآخر ، وأقول التقديم فى اللفظ يدل على زيادة العناية فقوله (وإن يردك بخير) يدل على أن المقصود هو الانسان وسائر الخيرات مخلوقة لأجله . فهذه الدقيقة لاتستفاد الا من هذا التركيب .

قوله تعالى ﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل﴾

واعلم أنه تعالى لما قرر الدلائل المذكورة فى التوحيد والنبوة والمعاد وزين آخر هذه السورة بهذه البيانات الدالة على كونه تعالى مستبداً بالخلق والابداع والتكوين والاختراع ، ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية ، وفى تفسيرها وجهان : الاول : أنه من حكم له فى الأزل بالاهتداء . فسيقع له ذلك ، ومن حكم له بالضلال ، فكذلك . ولا حيلة فى دفعه . الثانى : وهو الكلام اللائق بالمعتزلة قال القاضى : إنه تعالى بين أنه أكمل الشريعة وأزاح العلة وقطع المعذرة (فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ «١٠٩»

ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل) فلا يجب على من السعى فى إيصالكم الى الثواب العظيم، وفى تخليصكم من العذاب الاليم أزيد مما فعلت . قال ابن عباس : هذه الآية منسوخة بآية القتال .

ثم إنه تعالى ختم هذه الخاتمة بخاتمة أخرى لطيفة . فقال ﴿واتبع مايوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾

والمعنى أنه تعالى أمره باتباع الوحى والتنزيل، فان وصل إليه بسبب ذلك الاتباع مكروه فليصبر عليه إلى أن يحكم الله فيه . وهو خير الحاكمين . وأنشد بعضهم فى الصبر شعراً فقال :

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبرى وأصبر حتى يحكم الله فى أمرى
سأصبر حتى يعلم الصـــبر أننى صبرت على شىء أمر من الصبر

تم تفسير هذه السورة والله أعلم بمراده وبأسرار كتابه بعون الله وحسن توفيقه . يقول جامع هذا الكتاب : ختمت تفسير هذه السورة يوم السبت من شهر الله الأصم رجب سنة إحدى وستمائة وكنت ضيق الصدر كثير الحزن بسبب وفاة الوالد الصالح محمد أفاض الله على روحه وجسده أنواع المغفرة والرحمة ، وأنا ألتمس من كل من يقرأ هذا الكتاب وينتفع به من المسلمين أن يخص ذلك المسكين . وهذا المسكين بالدعاء والرحمة والغفران . والحمد لله رب العالمين . وصلاته على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين .

ســـورة هود

مكية، إلا الآيات: ١٢ و١٧ و١١٤ فمدنية

وآياتها ١٢٣ نزلت بعد سورة يونس

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ «١»

ســورة هود

عليه السلام مائة وثلاث وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾

فى الآية مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن قوله (الر) اسم للسورة وهو مبتدأ. وقوله (كتاب) خبره، وقوله (أحكمت آياته ثم فصلت) صفة للكتاب. قال الزجاج: لايجوز أن يقال (الر) مبتدأ، وقوله (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت) خبر، لأن (الر) ليس هو الموصوف بهذه الصفة وحده، وهذا الاعتراض فاسد، لأنه ليس من شرط كون الشيء مبتدأ أن يكون خبره محصورا فيه، ولا أدرى كيف وقع للزجاج هذا السؤال، ثم إن الزجاج اختار قولا آخر وهو أن يكون التقدير: الر هذا كتاب أحكمت آياته، وعندى أن هذا القول ضعيف لوجهين: الأول: أن على هذا التقدير يقع قوله (الر) كلاما باطلا لافائدة فيه. والثانى: أنك اذا قلت هذا كتاب، فقولك «هذا» يكون إشارة إلى أقرب المذكورات. وذلك هو قوله (الر) فيصير حينئذ (الر) مخبرا عنه بأنه كتاب أحكمت

آياته ، فيلزمه على هذا القول مالم يرض به فى القول الأول ، فثبت أن الصواب ماذكرناه .

﴿المسألة الثانية﴾ فى قوله (أحكمت آياته) وجوه : الأول (أحكمت آياته) نظمت نظما رصيفا محكما لايقع فيه نقص ولا خلل ، كالبناء المحكم المرصف . الثانى : أن الأحكام عبارة عن منع الفساد من الشيء . فقوله (أحكمت آياته) أى لم تنسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع بها .

واعلم أن على هذا الوجه لايكون كل الكتاب محكما ، لأنه حصل فيه آيات منسوخة ، إلا أنه لما كان الغالب كذلك صح إطلاق هذا الوصف عليه إجراء للحكم الثابت فى الغالب مجرى الحكم الثابت فى الكل . الثالث : قال صاحب الكشاف (أحكمت) يجوز أن يكون نقلا بالهمزة من حكم بضم الكاف اذا صار حكيما ، أى جعلت حكيمة ، كقوله (آيات الكتاب الحكيم) الرابع : جعلت آياته محكمة فى أمور : أحدها : أن معانى هذا الكتاب هى التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والمعاد ، وهذه المعانى لاتقبل النسخ . فهى فى غاية الاحكام ، وثانيها : أن الآيات الواردة فيه غير متناقضة ، والتناقض ضد الاحكام فاذا خلت آياته عن التناقض فقد حصل الاحكام . وثالثها : أن ألفاظ هذه الآيات بلغت فى الفصاحة والجزالة إلى حيث لاتقبل المعارضة ، وهذا أيضاً مشعر بالقوة والاحكام . ورابعها : أن العلوم الدينية إما نظرية وإما عملية . أما النظرية فهى معرفة الاله تعالى ومعرفة الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر ، وهذا الكتاب مشتمل على شرائف هذه العلوم ولطائفها ، وأما العملية فهى إما أن تكون عبارة عن تهذيب الأعمال الظاهرة وهو الفقه ، أو عن تهذيب الأحوال الباطنة وهى علم التصفية ورياضة النفس ، ولا نجد كتاباً فى العالم يساوى هذا الكتاب فى هذه المطالب ، فثبت أن هذا الكتاب مشتمل على أشرف المطالب الروحانية وأعلى المباحث الالهية ، فكان كتاباً محكما غير قابل للنقض والهدم . وتمام الكلام فى تفسير المحكم ذكرناه فى تفسير قوله تعالى (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات)

﴿المسألة الثالثة﴾ فى قوله (فصلت) وجوه : أحدها : أن هذا الكتاب فصل كما تفصل الدلائل بالفوائد الروحانية ، وهى دلائل التوحيد والنبوة والأحكام والمواعظ والقصص . والثانى : أنها جعلت فصولا سورة سورة ، وآية آية . الثالث (فصلت) بمعنى أنها فرقت فى التنزيل وما نزلت جملة واحدة ، ونظيره قوله تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات) والمعنى مجيء هذه الآيات متفرقة متعاقبة . الرابع : فصل مايحتاج اليه العباد أى جعلت مبينة ملخصة . الخامس : جعلت فصولا حلالا وحراماً . وأمثالا وترغيباً ، وترهيباً ومواعظ ، وأمراً ونهياً لكل معنى فيها فصل ، قد أفرد به غير مختلط بغيره حتى تستكمل فوائد كل واحد منها ،

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ «٢» وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ

ويحصل الوقوف على كل باب واحد منها على الوجه الأكمل .

﴿المسألة الرابعة﴾ معنى (ثم) فى قوله (ثم فصلت) ليس للتراخى فى الوقت ، لكن فى الحال كما تقول : هى محكمة أحسن الاحكام ، ثم مفصلة أحسن التفصيل ، وكما تقول : فلان كريم الأصل ثم كريم الفعل .

﴿المسألة الخامسة﴾ قال صاحب الكشاف : قرئ (أحكمت آياته ثم فصلت) أى أحكمتها أنا ثم فصلتها ، وعن عكرمة والضحاك (ثم فصلت) أى فرقت بين الحق والباطل .

﴿المسألة السادسة﴾ احتج الجبائى بهذه الآية على أن القرآن محدث مخلوق من ثلاثة أوجه : الأول : قال المحكم : هو الذى أتقنه فاعله ، ولولا أن الله تعالى يحدث هذا القرآن وإلا لم يصح ذلك لأن الاحكام لا يكون إلا فى الأفعال ، ولا يجوز أن يقال : كان موجوداً غير محكم ثم جعله الله محكما . لأن هذا يقتضى فى بعضه الذى جعله محكما أن يكون محدثاً ، ولم يقل أحد بأن القرآن بعضه قديم وبعضه محدث . الثانى : أن قوله (ثم فصلت) يدل على أنه حصل فيه انفصال وافتراق ، ويدل على أن ذلك الانفصال والافتراق إنما حصل بجعل جاعل ، وتكوين مكون ، وذلك أيضا يدل على المطلوب . الثالث : قوله (من لدن حكيم خبير) والمراد من عنده ، والقديم لا يجوز أن يقال : إنه حصل من عند قديم آخر ، لأنهما لو كانا قديمين لم يكن القول بأن أحدهما حصل من عند الآخر أولى من العكس .

أجاب أصحابنا بأن هذه النعوت عائدة إلى هذه الحروف والأصوات . ونحن معترفون بأنها محدثة مخلوقة ، وإنما الذى ندعى قدمه أمر آخر سوى هذه الحروف والأصوات .

﴿المسألة السابعة﴾ قال صاحب الكشاف قوله (من لدن حكيم خبير) يحتمل وجوهاً : الأول : أنا ذكرنا أن قوله (كتاب) خبر و (أحكمت) صفة لهذا الخبر ، وقوله (من لدن حكيم خبير) صفة ثانية والتقدير : الر . كتاب من لدن حكيم خبير . والثانى : أن يكون خبراً بعد خبر والتقدير : الر . من لدن حكيم خبير . والثالث : أن يكون ذلك صفة لقوله (أحكمت . وفصلت) أى أحكمت وفصلت من لدن حكيم خبير ، وعلى هذا التقدير فقد حصل بين أول هذه الآية وبين آخرها نكتة لطيفة كأنه يقول أحكمت آياته من لدن حكيم وفصلت من لدن خبير عالم بكيفيات الأمور .

قوله تعالى ﴿ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه

ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ «٣» إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «٤»

يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله وإن تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير﴾

اعلم أن فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن فى قوله (ألا تعبدوا إلا الله) وجوهاً : الأول : أن يكون مفعولا له والتقدير: كتاب أحكمت آياته ثم فصلت . لأجل ألا تعبدوا إلا الله وأقول هذا التأويل يدل على أنه لامقصود من هذا الكتاب الشريف إلاهذا الحرف الواحد ، فكل من صرف عمره إلى سائر المطالب ، فقد خاب وخسر . الثانى : أن تكون (أن) مفسرة لأن فى تفصيل الآيات معنى القول والحمل على هذا أولى ، لأن قوله (وأن استغفروا) معطوف على قوله (ألا تعبدوا) فيجب أن يكون معناه : أى لا تعبدوا ليكون الأمر معطوفا على النهى ، فان كونه بمعنى لئلا تعبدوا يمنع عطف الأمر عليه . والثالث : أن يكون التقدير : الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ليأمر الناس أن لايعبدوا إلا الله ويقول لهم ، إننى لكم منه نذير وبشير والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أن هذه الآية مشتملة على التكليف من وجوه : الأول : أنه تعالى أمر بأن لايعبدوا إلا الله ، وإذا قلنا : الاستثناء من النفى اثبات ، كان معنى هذا الكلام النهى عن عبادة غير الله تعالى ، والأمر بعبادة الله تعالى ، وذلك هو الحق ، لانا بينا أن ماسوى الله فهو محدث مخلوق مربوب ، وانما حصل بتكوين الله وإيجاده ، والعبادة عبارة عن اظهار الخضوع والخشوع ونهاية التواضع والتذلل وهذا لايليق إلا بالخالق المدبر الرحيم المحسن ، فثبت أن عبادة غير الله منكرة ، والاعراض عن عبادة الله منكر .

واعلم أن عبادة الله مشروطة بتحصيل معرفة الله تعالى قبل العبادة ، لأن من لايعرف معبوده لاينتفع بعبادته فكان الأمر بعبادة الله أمراً بتحصيل المعرفة أولا . ونظيره قوله تعالى فى أول سورة البقرة (ياأيها الناس اعبدوا ربكم) ثم أتبعه بالدلائل الدالة على وجود الصانع وهو قوله (الذى

خلقكم والذين من قبلكم) وإنما حسن ذلك لأن الأمر بالعبادة يتضمن الأمر بتحصيل المعرفة . فلا جرم ذكر مايدل على تحصيل المعرفة .

ثم قال ﴿إننى لكم منه نذير وبشير﴾ وفيه مباحث :

﴿البحث الأول﴾ أن الضمير فى قوله (منه) عائد إلى الحكيم الخبير ، والمعنى : اننى لكم نذير وبشير من جهته .

﴿البحث الثانى﴾ أن قوله (ألا تعبدوا إلا الله) مشتمل على المنع عن عبادة غير الله . وعلى الترغيب فى عبادة الله تعالى ، فهوعليه الصلاة والسلام نذير على الأول بالحاق العذاب الشديد لمن لم يأت بها . وبشير على الثانى بالحاق الثواب العظيم لمن أتى بها .

واعلم أنه صلى الله عليه وسلم ما بعث إلا لهذين الأمرين ، وهو الانذار على فعل مالا ينبغى ، والبشارة على فعل ما ينبغى .

﴿المرتبة الثانية﴾ من الأمور المذكورة فى هذه الآية قوله (وأن استغفروا ربكم)

﴿والمرتبة الثالثة﴾ قوله (ثم توبوا إليه) واختلفوا فى بيان الفرق بين هاتين المرتبتين على وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أن معنى قوله (وأن استغفروا) اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ، ثم بين الشىء الذى يطلب به ذلك وهو التوبة ، فقال (ثم توبوا اليه) لأن الداعى إلى التوبة والمحرض عليها هو الاستغفار الذى هو عبارة عن طلب المغفرة . وهذا يدل على أنه لاسبيل إلى طلب المغفرة من عند الله إلا باظهار التوبة ، والأمر فى الحقيقة كذلك ، لأن المذنب معرض عن طريق الحق ، والمعرض المتمادى فى التباعد مالم يرجع عن ذلك الاعراض لايمكنه التوجه إلى المقصود بالذات ، فالمقصود بالذات هو التوجه إلى المطلوب إلا أن ذلك لايمكن إلا بالاعراض عما يضاده . فثبت أن الاستغفار مطلوب بالذات ، وأن التوبة مطلوبة لكونها من متممات الاستغفار ، وماكان آخرا فى الحصول كان أولا فى الطلب ، فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة .

﴿الوجه الثانى﴾ فى فائدة هذا الترتيب أن المراد : استغفروا من سالف الذنوب ثم توبوا إليه فى المستأنف .

﴿الوجه الثالث﴾ وأن استغفروا من الشرك والمعاصى، ثم توبوا من الأعمال الباطلة .

﴿الوجه الرابع﴾ الاستغفار طلب من الله لازالة مالا ينبغى . والتوبة سعى من الانسان فى إزالة مالا ينبغى ، فقدم الاستغفار ليدل على أن المرء يجب أن لا يطلب الشىء إلا من مولاه فانه هو الذى

يقدر على تحصيله ، ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لأنها عمل يأتى به الانسان ويتوسل به إلى دفع المكروه والاستعانة بفضل الله تعالى مقدمة على الاستعانة بسعى النفس .

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه المراتب الثلاثة ذكر بعدها مايترتب عليها من الآثار النافعة والنتائج المطلوبة ، ومن المعلوم أن المطالب محصورة فى نوعين ، لأنه إما أن يكون حصولها فى الدنيا أو فى الآخرة ، أما المنافع الدنيوية : فهى المراد من قوله (يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى) وهذا يدل على أن المقبل على عبادة الله والمشتغل بها يبقى فى الدنيا منتظم الحال مرفه البال ، وفى الآية سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ أليس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» وقال أيضا «خص البلاء بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل» وقال تعالى (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة) فهذه النصوص دالة على أن نصيب المشتغل بالطاعات فى الدنيا هو الشدة والبلية . ومقتضى هذه الآية أن نصيب المشتغل بالطاعات الراحة فى الدنيا فكيف الجمع بينهما ؟

الجواب : من وجوه . الأول : المراد أنه تعالى لايعذبهم بعذاب الاستئصال كما استأصل أهل القرى الذين كفروا . الثانى : أنه تعالى يوصل اليهم الرزق كيف كان ، واليه الاشارة بقوله (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسألك رزقا نحن نرزقك) الثالث : وهو الأقوى عندى أن يقال إن المشتغل بعبادة الله وبمحبة الله مشتغل بحب شىء يمتنع تغيره وزواله وفناؤه . فكل من كان إمعانه فى ذلك الطريق أكثر وتوغله فيه أتم كان انقطاعه عن الخلق أتم وأكمل ، وكلما كان الكمال فى هذا الباب أكثر، كان الابتهاج والسرور أتم ، لأنه أمن من تغير مطلوبه ، وأمن من زوال محبوبه ، فاما من كان مشتغلا بحب غير الله ، كان أبداً فى ألم الخوف من فوات المحبوب وزواله ، فكان عيشه منغصا وقلبه مضطربا ، ولذلك قال الله تعالى فى صفة المشتغلين بخدمته (فلنحيينه حياة طيبة)

﴿السؤال الثانى﴾ هل يدل قوله (إلى أجل مسمى) على أن للعبد أجلين ، وأنه يقع فى ذلك التقديم والتأخير ؟

والجواب : لا . ومعنى الآية أنه تعالى حكم بأن هذا العبد لو اشتغل بالعبادة لكان أجله فى الوقت الفلانى . ولو أعرض عنها لكان أجله فى وقت آخر ، لكنه تعالى عالم بأنه لو اشتغل بالعبادة أم لا فان أجله ليس إلا فى ذلك الوقت المعين ، فثبت أن لكل إنسان أجلا واحداً فقط .

﴿السؤال الثالث﴾ لم سمى منافع الدنيا بالمتاع ؟

الجواب : لأجل التنبيه على حقارتها وقلتها ، ونبه على كونها منقضية بقوله تعالى (إلى أجل مسمى) فصارت هذه الآية دالة على كونها حقيرة خسيسة منقضية ، ثم لما بين تعالى ذلك قال (ويؤت كل ذى فضل فضله) والمراد منه السعادات الأخروية ، وفيها لطائف وفوائد .

﴿الفائدة الأولى﴾ أن قوله (ويؤت كل ذى فضل فضله) معناه ويؤت كل ذى فضل موجب فضله ومعلوله والأمر كذلك . وذلك لأن الانسان إذا كان فى نهاية البعد عن الاشتغال بغير الله وكان فى غاية الرغبة فى تحصيل أسباب معرفة الله تعالى فحينئذ يصير قلبه فصا لنقش الملكوت ومرآة يتجلى بها قدس اللاهوت ، إلا أن العلائق الجسدانية الظلمانية تكدر تلك الأنوار الروحانية . فاذا زالت هذه العلائق أشرقت تلك الأنوار وتلألأت تلك الأضواء وتوالت موجبات السعادات ، فهذا هو المراد من قوله (ويؤت كل ذى فضل فضله)

﴿الفائدة الثانية﴾ أن هذا تنبيه على أن مراتب السعادات فى الآخرة مختلفة وذلك لأنها مقدرة بمقدار الدرجات الحاصلة فى الدنيا . فلما كان الاعراض عن غير الحق والاقبال على عبودية الحق درجات غير متناهية ، فكذلك مراتب السعادات الأخروية غير متناهية . فلهذا السبب قال (ويؤت كل ذى فضل فضله)

﴿الفائدة الثالثة﴾ أنه تعالى قال فى منافع الدنيا (يمتعكم متاعا حسنا) وقال فى سعادات الآخرة (ويؤت كل ذى فضل فضله) وذلك يدل على أن جميع خيرات الدنيا والآخرة ليس إلا منه وليس إلا بايجاده وتكوينه وإعطائه وجوده . وكان الشيخ الامام الوالد رحمه الله تعالى يقول : لولا الأسباب لما ارتاب مرتاب . فأكثر الناس عقولهم ضعيفة واشتغال عقولهم بهذه الوسائط الفانية يعميها عن مشاهدة أن الكل منه . فأما الذين توغلوا فى المعارف الالهية وخاضوا فى بحار أنوار الحقيقة علموا أن ما سواه ممكن لذاته موجود بايجاده ، فانقطع نظرهم عما سواه وعلموا أنه سبحانه وتعالى هو الضار والنافع ، والمعطى والمانع .

ثم إنه تعالى لما بين هذه الأحوال قال ﴿وإن تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ والأمر كذلك ، لأن من اشتغل بعبادة غير الله صار فى الدنيا أعمى ، ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا . والذى يبين ذلك أن من أقبل على طلب الدنيا ولذاتها وطيباتها قوى حبه لها ومال طبعه إليها وعظمت رغبته فيها . فاذا مات بقى معه ذلك الحب الشديد والميل التام وصار عاجزاً عن الوصول إلى محبوبه ، فحينئذ يعظم البلاء ويتكامل الشقاء ، فهذا القدر المعلوم عندنا من عذاب ذلك اليوم ، وأما تفاصيل تلك الأحوال فهى غائبة عنا مادمنا فى هذه الحياة الدنيوية . ثم

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ «٥»

بين أنه لابد من الرجوع إلى الله تعالى بقوله (إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير)

واعلم أن قوله (إلى الله مرجعكم) فيه دقيقة ، وهي : أن هذا اللفظ يفيد الحصر ، يعني أن مرجعنا إلى الله لا إلى غيره ، فيدل هذا على أنه لامدبر ولامتصرف هناك إلاهو . والأمر كذلك أيضاً في هذه الحياة الدنيوية ، إلا أن أقواماً اشتغلوا بالنظر إلى الوسائط فعجزوا عن الوصول إلى مسبب الأسباب . فظنوا أنهم في دار الدنيا قادرون على شيء ، وأما في دار الآخرة ، فهذا الحال الفاسد زائل أيضاً ، فلهذا المعنى بين هذا الحصر بقوله (إلى الله مرجعكم)

ثم قال ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ وأقول إن هذا تهديد عظيم من بعض الوجوه وبشارة عظيمة من سائر الوجوه . أما إنه تهديد عظيم فلأن قوله تعالى (الى الله مرجعكم) يدل على أنه ليس مرجعنا إلا اليه ، وقوله (وهو على كل شيء قدير) يدل على أنه قادر على جميع المقدورات لادافع لقضائه ولامانع لمشيئته والرجوع إلى الحاكم الموصوف بهذه الصفة مع العيوب الكثيرة والذنوب العظيمة مشكل وأما أنه بشارة عظيمة فلأن ذلك يدل على قدرة غالبة وجلالة عظيمة لهذا الحاكم وعلى ضعف تام وعجز عظيم لهذا العبد ، والملك القاهر العالي الغالب إذا رأى عاجزاً مشرفا على الهلاك فانه يخلصه من الهلاك . ومنه المثل المشهور : ملكت فاسجح .

يقول مصنف هذا الكتاب : قد أفنيت عمري في خدمة العلم والمطالعة للكتب ولارجاء لي في شيء إلا أني في غاية الذلة والقصور والكريم إذاقدرغفر ، وأسألك ياأكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين وساتر عيوب المعيوبين ومجيب دعوة المضطرين أن تفيض سجال رحمتك على ولدي وفلذة كبدي وأن تخلصنا بالفضل والتجاوز والجود والكرم .

قوله تعالى ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم مايسرون ومايعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾

اعلم أنه تعالى لما قال (وإن تولوا) يعني عن عبادته وطاعته (فاني أخاف عليكم عذاب يوم كبير) بين بعده أن التولي عن ذلك باطناً كالتولي عنه ظاهراً فقال (ألا إنهم) يعني الكفار من قوم محمد صلى الله عليه وسلم يثنون صدورهم ليستخفوا منه .

وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ «٦»

واعلم أنه تعالى حكى عن هؤلاء الكفار شيئين : الأول : أنهم يثنون صدورهم يقال : ثنيت الشىء إذا عطفته وطويته ، وفى الآية وجهان :

﴿الوجه الأول﴾ روى أن طائفة من المشركين قالوا : إذا أغلقنا أبوابنا وأسلنا ستورنا ، واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد . فكيف يعلم بنا ؟ وعلى هذا التقدير : كان قوله (يثنون صدورهم) كناية عن النفاق . فكأنه قيل : يضمرون خلاف مايظهرون ليستخفوا من الله تعالى ، ثم نبه بقوله (ألا حين يستغشون ثيابهم) على أنهم يستخفون منه حين يستغشون ثيابهم .

﴿الوجه الثانى﴾ روى أن بعض الكفار كان إذا مر به رسول الله ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه ، والتقدير كأنه قيل : إنهم يتصرفون عنه ليستخفوا منه حين يستغشون ثيابهم ، لئلا يسمعوا كلام رسول الله وما يتلو من القرآن ، وليقولوا فى أنفسهم مايشتهون من الطعن . وقوله (ألا) للتنبيه ، فنبه أولا على أنهم ينصرفوا عنه ليستخفوا ثم كرر كلمة (ألا) للتنبيه على ذكر الاستخفاء لينبه على وقت استخفائهم ، وهو حين يستغشون ثيابهم . كأنه قيل : ألا إنهم ينصرفون عنه ليستخفوا من الله ، ألا إنهم يستخون حين يستغشون ثيابهم . ثم ذكر أنه لافائدة لهم فى استخفائهم بقوله (يعلم مايسرون وما يعلنون)

قوله تعالى ﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر فى الآية الأولى أنه (يعلم مايسرون وما يعلنون) أردفه بما يدل على كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات ، فثبت أن رزق كل حيوان إنما يصل اليه من الله تعالى ، فلو لم يكن عالماً بجميع المعلومات لما حصلت هذه المهمات ، وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال الزجاج : الدابة اسم لكل حيوان . لأن الدابة اسم مأخوذ من الدبيب ، وبينت هذه اللفظة على هاء التأنيث ، وأطلق على كل حيوان ذى روح ذكرا كان أو أنثى ، إلا أنه بحسب عرف العرب اختص بالفرس ، والمراد بهذا اللفظ فى هذه الآية الموضوع الأصلى اللغوى ، فيدخل فيه جميع الحيوانات ، وهذا متفق عليه بين المفسرين ، ولا شك أن أقسام الحيوانات

وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ

وأنواعها كثيرة ، وهى الأجناس التى تكون فى البر والبحر والجبال ، والله يحصيها دون غيره ، وهو تعالى عالم بكيفية طبائعها وأعضائها وأحوالها وأغذيتها وسمومها ومساكنها ، وما يوافقها وما يخالفها ، فالإله المدبر لأطباق السموات والأرضين ؛ وطبائع الحيوان والنبات ، كيف لا يكون عالماً بأحوالها ؟ روى أن موسى عليه السلام عندنزول الوحى اليه تعلق قلبه بأحوال أهله ، فأمره الله تعالى أن يضرب بعصاه على صخرة فانشقت وخرجت صخرة ثانية : ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت وخرجت صخرة ثالثة ، ثم ضربها بعصاه فانشقت فخرجت منها دودة كالذرة وفى فمها شىء يجرى مجرى الغذاء لها ، ورفع الحجاب عن سمع موسى عليه السلام فسمع الدودة تقول : سبحان من يرانى ، ويسمع كلامى ، ويعرف مكانى ، ويذكرنى ولا ينسانى .

﴿المسألة الثانية﴾ تعلق بعضهم بأنه يجب على الله تعالى بعض الأشياء بهذه الآية وقال : إن كلمة (على) للوجوب ، وهذا يدل على أن إيصال الرزق الى الدابة واجب على الله .

وجوابه : أنه واجب بحسب الوعد والفضل والاحسان ،

﴿المسألة الثالثة﴾ تعلق أصحابنا بهذه الآية فى إثبات أن الرزق قد يكون حراماً ، قالوا لأنه ثبت أن إيصال الرزق الى كل حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد وبحسب الاستحقاق ، والله تعالى لا يخل بالواجب ، ثم قد نرى إنسانا لا يأكل من الحلال طول عمره ، فلولم يكن الحرام رزقا لكان الله تعالى ماأوصل رزقه إليه ، فيكون تعالى قد أخل بالواجب وذلك محال ، فعلمنا أن الحرام قد يكون رزقا ، وأما قوله (ويعلم مستقرها ومستودعها) فالمستقر هو مكانه من الأرض والمستودع حيث كان مودعاً قبل الاستقرار فى صلب أو رحم أو بيضة ، وقال الفراء : مستقرها حيث تأوى اليه ليلا أونهاراً . ومستودعها موضعها الذى تموت فيه . وقد مضى استقصاء تفسير المستقر والمستودع فى سورة الأنعام ، ثم قال (كل فى كتاب مبين) قال الزجاج : المعنى أن ذلك ثابت فى علم الله تعالى ، ومنهم من قال : فى اللوح المحفوظ ، وقدذكرنا فائدة ذلك فى قوله (ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين)

قوله تعالى ﴿وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء

الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ «٧»

ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾

واعلم أنه تعالى لما أثبت بالدليل المتقدم كونه عالما بالمعلومات، أثبت بهذا الدليل كونه تعالى قادراً على كل المقدورات وفى الحقيقة فكل واحد من هذين الدليلين يدل على كمال علم الله وعلى كمال قدرته.

واعلم أن قوله تعالى ﴿وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام﴾ قد مضى تفسيره فى سورة يونس على سبيل الاستقصاء. بقى ههنا أن نذكر (وكان عرشه على الماء) قال كعب خلق الله تعالى ياقوتة خضراء، ثم نظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد، ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء، قال أبوبكر الأصم: معنى قوله (وكان عرشه على الماء) كقولهم: السماء على الأرض. وليس ذلك على سبيل كون أحدهما ملتصقاً بالآخر وكيف كانت الواقعة فذلك يدل على أن العرش والماء كانا قبل السموات والأرض. وقالت المعتزلة: فى الآية دلالة على وجود الملائكة قبل خلقهما. لأنه لايجوز أن يخلق ذلك ولا أحد ينتفع بالعرش والماء، لأنه تعالى لما خلقهما فاما أن يكون قد خلقهما لمنفعة أو لا لمنفعة والثانى عبث، فبقى الأول وهو أنه خلقهما لمنفعة، وتلك المنفعة إما أن تكون عائدة إلى الله وهو محال لكونه متعالياً عن النفع والضرر أو إلى الغير فوجب أن يكون ذلك الغير حياً. لأن غير الحى لاينتفع. وكل من قال بذلك قال ذلك الحى كان من جنس الملائكة، وأما أبومسلم الأصفهانى فقال معنى قوله (وكان عرشه على الماء) أى بناؤه السموات كان على الماء، وقد مضى تفسير ذلك فى سورة يونس، وبين أنه تعالى إذا بنى السموات على الماء كانت أبدع وأعجب، فان البناء الضعيف إذا لم يؤسس على أرض صلبة لم يثبت، فكيف بهذا الأمر العظيم إذا بسط على الماء؟ وههنا سؤالات:

﴿السؤال الأول﴾ ما الفائدة فى ذكر أن عرشه كان على الماء قبل خلق السموات والأرض؟

والجواب: فيه دلالة على كمال القدرة من وجوه: الأول: أن العرش مع كونه أعظم من السموات والأرض كان على الماء فلولا أنه تعالى قادر على إمساك الثقيل بغير عمد لما صح ذلك، والثانى: أنه تعالى أمسك الماء لاعلى قرار وإلا لزم أن يكون أقسام العالم غير متناهية، وذلك يدل على ماذكرناه. والثالث: أن العرش الذى هو أعظم المخلوقات قد أمسكه الله تعالى فوق سبع

سموات من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه ، وذلك يدل أيضاً على ما ذكرنا .

﴿السؤال الثانى﴾ هل يصح مايروى أنه قيل يارسول الله ، أين كان ربنا قبل خلق السموات والأرض ؟ فقال كان فى عماء فوقه هواء وتحته هواء .

والجواب : أن هذه الرواية ضعيفة ، والأولى أن يكون الخبر المشهور أولى بالقبول وهو قوله صلى الله عليه وسلم كان الله وما كان معه شيء ، ثم كان عرشه على الماء .

﴿السؤال الثالث﴾ اللام فى قوله (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) يقتضى أنه تعالى خلق السموات والأرض لابتلاء المكلف فكيف الحال فيه ؟ والجواب ظاهر هذا الكلام يقتضى أن الله تعالى خلق هذا العالم الكثير لمصلحة المكلفين ، وقد قال بهذا القول طوائف من العقلاء ، ولكل طائفة فيه وجه آخر سوى الوجه الذى قال به الآخرون ، وشرح تلك المقالات لايليق بهذا الكتاب . والذين قالوا إن أفعاله وأحكامه غير معللة بالمصالح قالوا : لام التعليل وردت على ظاهر الأمر ، ومعناه أنه تعالى فعل فعلا لو كان يفعله من تجوز عليه رعاية المصالح لما فعله إلا لهذا الغرض .

﴿السؤال الرابع﴾ الابتلاء إنما يصح على الجاهل بعواقب الأمور وذلك عليه تعالى محال ، فكيف يعقل حصول معنى الابتلاء فى حقه ؟

والجواب : أن هذا الكلام على سبيل الاستقصاء ذكرناه فى تفسير قوله تعالى فى أول سورة البقرة (لعلكم تتقون)

واعلم أنه تعالى لما بين أنه خلق هذا العالم لأجل ابتلاء المكلفين وامتحانهم فهذا يوجب القطع بحصول الحشر والنشر ، لأن الابتلاء والامتحان يوجب تخصيص المحسن بالرحمة والثواب وتخصيص المسيء بالعقاب ، وذلك لايتم إلا مع الاعتراف بالمعاد والقيامة . فعندهذا خاطب محمداً عليه الصلاة والسلام وقال (ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) ومعناه أنهم ينكرون هذا الكلام ويحكمون بفساد القول بالبعث .

فان قيل : الذى يمكن وصفه بأنه سحر مايكون فعلا مخصوصاً ، وكيف يمكن وصف هذا القول بأنه سحر ؟

قلنا : الجواب عنه من وجوه : الأول : قال القفال : معناه أن هذا القول خديعة منكم وضعتموها لمنع الناس عن لذات الدنيا وإحرازاً لهم إلى الانقياد لكم والدخول تحت طاعتكم . الثانى : أن معنى قوله (إن هذا إلا سحر مبين) هو أن السحر أمر باطل ، قال تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام (ماجئتم به السحر إن الله سيبطله) فقوله (إن هــذا إلا سحر مبين) أى باطل مبين . الثالث : أن

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ «٨» وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ

القرآن هو الحاكم بحصول البعث وطعنوا فى القرآن بكونه سحراً لأن الطعن فى الأصل يفيد الطعن فى الفرع . الرابع : قرأ حمزة والكسائى (إن هـذا إلا ساحر) يريدون النبي صلى الله عليه وسلم والساحر كاذب .

قوله تعالى ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن مايحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ماكانوا به يستهزؤن﴾

اعلم أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم يكذبون الرسول صلى الله عليه وسلم بقولهم (إن هـذا إلا سحر مبين) فحكى عنهم فى هذه الآية نوعا آخر من أباطيلهم وهو أنه متى تأخر عنهم العذاب الذى توعدهم الرسول صلى الله عليه وسلم به أخذوا فى الاستهزاء ويقولون : ما السبب الذى حبسه عنا ؟

فأجاب الله تعالى بأنه إذا جاء الوقت الذى عينه الله لنزول ذلك العذاب الذى كانوا يستهزؤن به لم ينصرف ذلك العذاب عنهم وأحاط بهم ذلك العذاب . بقى ههنا سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ المراد من هذا العذاب هو عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة ؟

الجواب : للمفسرين فيه وجوه : الأول : قال الحسن : معنى حكم الله فى هذه الآية أنه لا يعذب أحداً منهم بعذاب الاستئصال وأخر ذلك إلى يوم القيامة ، فلما أخر الله عنهم ذلك العذاب قالوا على سبيل الاستهزاء ما الذى حبسه عنا ؟ والثانى : أن المراد الأمر بالجهاد وما نزل بهم يوم بدر ، وعلى هذا الوجه تأولوا قوله (وحاق بهم) أى نزل بهم هذا العذاب يوم بدر .

﴿السؤال الثانى﴾ ما المراد بقوله (إلى أمة معدودة)

الجواب من وجهين : الأول : أن الأصل فى الأمة هم الناس والفرقة . فاذا قلت : جاءنى أمة من الناس ، فالمراد طائفة مجتمعة قال تعالى (وجد عليه أمة من الناس يسقون) وقوله (وادكر بعد أمة) أى بعد انقضاء أمة وفنائها فكذا ههنا قوله (ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة) أى إلى حين تنقضى أمة من الناس ، انقرضت بعد هذا الوعيد بالقول ، لقالوا ماذا يحبسه عنا وقد انقرض من الناس الذين كانوا متوعدين بهذا الوعيد ؟ وتسمية الشىء باسم مايحصل فيه كقولك : كنت عند فلان صلاة العصر ، أى فى ذلك الحين . الثانى : أن اشتقاق الأمة من الأم ، وهو القصد ، كأنه يعنى الوقت المقصود بايقاع هذا الموعود فيه .

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ «١٢»

حصولها إنما كان على سبيل الاتفاق أو بسبب أن الانسان حصلها بسبب جده وجهده ، فحينئذ لا يشتغل بشكر الله تعالى على تلك النعمة . فالحاصل أن الكافر يكون عند زوال تلك النعمة يؤوساً وعند حصولها يكون كفوراً .

﴿وأما القسم الثانى﴾ وهو أن ينتقل الانسان من المكروه إلى المحبوب ، ومن المحنة إلى النعمة ، فههنا الكافر يكون فرحا فخورا . أما قوة الفرح فلان منتهى طمع الكافر هو الفوز بهذه السعادات الدنيوية وهو منكر للسعادات الأخروية الروحانية ، فاذا وجد الدنيا فكأنه قد فاز بغاية السعادات فلا جرم يعظم فرحه بها ، وأما كونه فخوراً فلأنه لما كان الفوز بسائر المطلوب نهاية السعادة لا جرم يفتخر به ، فحاصل الكلام أنه تعالى بين أن الكافر عند البلاء لا يكون من الصابرين ، وعند الفوز بالنعماء لا يكون من الشاكرين . ثم لما قرر ذلك قال (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) والمراد منه ضد ما تقدم فقوله (إلا الذين صبروا) المراد منه أن يكون عند البلاء من الصابرين ، وقوله (وعملوا الصالحات) المراد منه أن يكون عند الراحة والخير من الشاكرين . ثم بين حالهم فقال (أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) فجمع لهم بين هذين المطلوبين . أحدهما : زوال العقاب والخلاص منه وهو المراد من قوله (لهم مغفرة) والثانى : الفوز بالثواب وهو المراد من قوله (وأجر كبير) ومن وقف على هذا التفصيل الذى ذكرناه علم أن هذا الكتاب الكريم كما أنه معجز بحسب ألفاظه فهو أيضا معجز بحسب معانيه .

قوله تعالى ﴿فلعلك تارك بعض مايوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من كلمات الكفار ، والله تعالى بين أن قلب الرسول ضاق بسببه ، ثم إنه تعالى قواه وأيده بالاكرام والتأييد ، وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رؤساء مكة قالوا : يامحمد اجعل لنا

جبال مكة ذهبا إن كنت رسولا ، وقال آخرون : ائتنا بالملائكة يشهدون بنبوتك . فقال : لا أقدر على ذلك فنزلت هذه الآية . واختلفوا فى المراد بقوله (تارك بعض مايوحى إليك) قال ابن عباس: رضى الله تعالى عنهما قال المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم «ائتنا بكتاب ليس فيه شتم آلهتنا حتى نتبعك ونؤمن بك ، وقال الحسن : طلبوا منه لا يقول (إن الساعة آتية) وقال بعضهم : المراد نسبتهم إلى الجهل والتقليد والاصرار على الباطل .

﴿المسألة الثانية﴾ أجمع المسلمون على أنه لا يجوز على الرسول عليه الصلاة والسلام أن يخون فى الوحى والتنزيل وأن يترك بعض مايوحى إليه . لأن تجويزه يؤدى إلى الشك فى كل الشرائع والتكاليف وذلك يقدح فى النبوة وأيضا فالمقصود من الرسالة تبليغ تكاليف الله تعالى وأحكامه فاذا لم تحصل هذه الفائدة فقد خرجت الرسالة عن أن تفيد فائدتها المطلوبة منها ، وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من قوله (فلعلك تارك بعض مايوحى إليك) شيئا آخر سوى أنه عليه السلام فعل ذلك وللناس فيه وجوه : الأول : لا يمتنع أن يكون فى معلوم الله تعالى أنه إنما يترك التقصير فى أداء الوحى والتنزيل لسبب يرد عليه من الله تعالى . أمثال هذه التهديدات . البليغة الثانى : أنهم كانوا لا يعتقدون بالقرآن ويتهاونون به ، فكان يضيق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يلقى إليهم مالا يقبلونه ويضحكون منه ، فهيجه الله تعالى لأداء الرسالة وطرح المبالاة بكلماتهم الفاسدة وترك الالتفات إلى استهزائهم ، والغرض منه التنبيه على أنه إن أدى ذلك الوحى وقع فى سخريتهم وسفاهتهم وإن لم يؤد ذلك الوحى إليهم وقع فى ترك وحى الله تعالى وفى إيقاع الخيانة فيه ، فاذا لا بد من تحمل أحد الضررين وتحمل سفاهتهم أسهل من تحمل إيقاع الخيانة فى وحى الله تعالى ، والغرض من ذكر هذا الكلام التنبيه على هذه الدقيقة ، لأن الانسان إذا علم أن كل واحد من طرفى الفعل والترك يشتمل على ضرر عظيم ، ثم علم أن الضرر فى جانب الترك أعظم وأقوى سهل عليه ذلك الفعل وخف ، فالمقصود من ذكر هذا الكلام ماذكرناه .

فان قيل : قوله (فلعلك) كلمة شك فما الفائدة فيها ؟

قلنا : المراد منه الزجر ، والعرب تقول للرجل إذا أرادوا إبعاده عن أمر : لعلك تقدر أن تفعل كذا مع أنه لاشك فيه . ويقول لولده لو أمره لعلك تقصر فيما أمرتك به . ويريد توكيد الأمر فمعناه لا تترك .

وأما قوله ﴿وضائق به صدرك﴾ فالضائق بمعنى الضيق . قال الواحدى : الفرق بينهما أن الضائق يكون بضيق عارض غير لازم ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفسح الناس صدرا ، ومثله قولك : زيد سيد جواد تريد السيادة والجود الثابتين المستقرين ، فاذا أردت الحدوث قلت : سائد

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ «١٣»

وجائد ، والمعنى : ضائق صدرك لأجل أن يقولوا (لولا أنزل عليه)

فان قيل : الكنز كيف ينزل ؟

قلنا : المراد ما يكنز وجرت العادة على أنه يسمى المال الكثير بهذا الاسم ، فكأن القوم قالوا : إن كنت صادقا فى أنك رسول الاله الذى تصفه بالقدرة على كل شىء وإنك عزيز عنده فهلا أنزل عليك ماتستغنى به وتغنى أحبابك من الكد والعناء وتستعين به على مهماتك وتعين أنصارك وإن كنت صادقاً فهلا أنزل الله معك ملكا يشهد لك على صدق قولك ويعينك على تحصيل مقصودك فتزول الشبهة فى أمرك ، فلما لم يفعل إلهك ذلك فأنت غير صادق . فبين تعالى أنه رسول منذر بالعقاب ومبشر بالثواب ولا قدرة له على ايجاد هذه الاشياء . والذى أرسله هو القادر على ذلك فان شاء فعل وإن شاء لم يفعل ولا اعتراض لأحد عليه فى فعله وفى حكمه . ومعنى (وكيل) حفيظ أى يحفظ عليهم أعمالهم ، أى يجازيهم بها ونظير هذه الآية ، قوله تعالى (تبارك الذى إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا) وقوله : (قالوا لن نؤمن لك) إلى قوله (قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا)

قوله تعالى ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾

اعلم أن القوم لما طلبوا منه المعجز قال معجزى هذا القرآن ولما حصل المعجز الواحد كان طلب الزيادة بغياً وجهلا ، ثم قرر كونه معجزاً بأن تحداهم بالمعارضة ، وتقرير هذا الكلام بالاستقصاء قد تقدم فى البقرة وفى سورة يونس وفى الآية مسائل

﴿المسئلة الأولى﴾ الضمير فى قوله (افتراه) عائد إلى ماسبق من قوله (يوحى إليك) أى إن قالوا إن هذا الذى يوحى اليك مفترى فقل لهم حتى يأتوا بعشر سور مثله مفتريات وقوله مثله بمعنى أمثاله حملا على كل واحد من تلك السور ولا يبعد أيضاً أن يكون المراد هو المجموع ، لأن مجموع السور العشرة شىء واحد ،

﴿المسألة الثانية﴾ قال ابن عباس : هذه السورة التى وقع بها هذا التحدى معينة ، وهى سورة

البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والاعراف والأنفال والتوبة ويونس وهود عليهما السلام ، وقوله (فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) إشارة إلى السور المتقدمة على هذه السورة ، وهذا فيه إشكال ، لأن هذه السورة مكية . وبعض السور المتقدمة على هذه السورة مدنية . فكيف يمكن أن يكون المراد من هذه العشر سور التى ما نزلت عند هذا الكلام ، فالأولى أن يقال التحدى وقع بمطلق السور التى يظهر فيها قوة تركيب الكلام وتأليفه .

واعلم أن التحدى بعشر سور لابد وأن يكون سابقا على التحدى بسورة واحدة ، وهو مثل أن يقول الرجل لغيره أكتب عشرة أسطر مثل ما أكتب ، فاذا ظهر عجزه عنه قال : قد اقتصرت منها على سطر واحد مثله .

إذا عرفت هذا فنقول : التحدى بالسورة الواحدة ورد فى سورة البقرة ، وفى سورة يونس كما تقدم ، أما تقدم هذه السورة على سورة البقرة فظاهر ، لأن هذه السورة مكية وسورة البقرة مدنية . وأما فى سورة يونس فالاشكال زائل أيضا ، لأن كل واحدة من هاتين السورتين مكية ، والدليل الذى ذكرناه يقتضى أن تكون سورة هود متقدمة فى النزول على سورة يونس حتى يستقيم الكلام الذى ذكرناه .

﴿المسألة الثالثة﴾ اختلف الناس فى الوجه الذى لأجله كان القرآن معجزا ، فقال بعضهم : هو الفصاحة . وقال بعضهم : هو الأسلوب . وقال ثالث : هو عدم التناقض ، وقال رابع : هو اشتماله على العلوم الكثيرة ، وقال خامس : هو الصرف . وقال سادس : هو اشتماله على الأخبار عن الغيوب ، والمختار عندى وعند الأكثرين أنه معجز بسبب الفصاحة ، واحتجوا على صحة قولهم بهذه الآية لأنه لو كان وجه الاعجاز هو كثرة العلوم أو الاخبار عن الغيوب أو عدم التناقض لم يكن لقوله (مفتريات) معنى أما إذا كان وجه الاعجاز هو الفصاحة صح ذلك لأن فصاحة الفصيح تظهر بالكلام ، سواء كان الكلام صدقا أو كذبا ، وأيضاً لو كان الوجه فى كونه معجزاً هو الصرف لكان دلالة الكلام الركيك النازل فى الفصاحة على هذا المطلوب أوكد من دلالة الكلام العالى فى الفصاحة ثم انه تعالى لما قرر وجه التحدى قال (وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) والمراد إن كنتم صادقين فى ادعاء كونه مفترى كما قال (أم يقولون افتراه)

واعلم أن هذا الكلام يدل على أنه لابد فى إثبات الدين من تقرير الدلائل والبراهين ، وذلك لأنه تعالى أورد فى إثبات نبوة محمد عليه السلام هذا الدليل وهذه الحجة ، ولولا أن الدين لا يتم إلا بالدليل لم يكن فى ذكره فائدة .

فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ «١٤»

قوله تعالى ﴿فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾ اعلم أن الآية المتقدمة اشتملت على خطابين : أحدهما : خطاب الرسول ، وهو قوله (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) والثانى : خطاب الكفار وهو قوله (وادعوا من استطعتم من دون الله) فلما أتبعه بقوله (فان لم يستجيبوا لكم) احتمل أن يكون المراد أن الكفار لم يستجيبوا فى المعارضة لتعذرها عليهم ، واحتمل أن من يدعونه من دون الله لم يستجيبوا ، فلهذا السبب اختلف المفسرون على قولين : فبعضهم قال : هذا خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، والمراد أن الكفار إن لم يستجيبوا لكم فى الاتيان بالمعارضة ، فاعلموا أنما أنزل بعلم الله . والمعنى : فاثبتوا على العلم الذى أنتم عليه . وازدادوا يقينا وثبات قدم على أنه منزل من عند الله ، ومعنى قوله (فهل أنتم مسلمون) أى فهل أنتم مخلصون ، ومنهم من قال فيه إضمار ، والتقدير : فقولوا أيها المسلمون للكفار اعلموا أنما أنزل بعلم الله .

﴿والقول الثانى﴾ أن هذا خطاب مع الكفار ، والمعنى أن الذين تدعونهم من دون الله إذا لم يستجيبوا لكم فى الاعانة على المعارضة ، فاعلموا أيها الكفار أن هذا القرآن إنما أنزل بعلم الله فهل أنتم مسلمون بعد لزوم الحجة عليكم ، والقائلون بهذا القول قالوا هذا أولى من القول الأول ، لأنكم فى القول الأول احتجتم إلى أن حملتم قوله (فاعلموا) على الأمر بالثبات أو على إضمار القول ، وعلى هذا الاحتمال لا حاجة فيه إلى اضمار ، فكان هذا أولى ، وأيضا فعود الضمير إلى أقرب المذكورين واجب ، وأقرب المذكورين فى هذه الآية هو هذا الاحتمال الثانى ، وأيضا أن الخطاب الأول كان مع الرسول عليه الصلاة والسلام وحده بقوله (قل فأتوا بعشر سور) والخطاب الثانى كان مع جماعة الكفار بقوله (وادعوا من استطعتم من دون الله) وقوله (فان لم يستجيبوا لكم) خطاب مع الجماعة فكان حمله على هذا الذى قلناه أولى . بقى فى الآية سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ ما الشىء الذى لم يستجيبوا فيه ؟

الجواب : المعنى فان لم يستجيبوا لكم فى معارضة القرآن ، وقال بعضهم فان لم يستجيبوا لكم فى جملة الايمان وهو بعيد .

﴿السؤال الثانى﴾ من المشار اليه بقوله (لكم) ؟

والجواب : إن حملنا قوله (فان لم يستجيبوا لكم) على المؤمنين فذلك ظاهر ، وان حملناه على الرسول فعنه جوابان : الأول : المراد فان لم يستجيبوا لك وللمؤمنين ، لأن الرسول عليه السلام والمؤمنين كانوا يتحدونهم ، وقال فى موضع آخر فان لم يستجيبوا لك فاعلم . والثانى : يجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿السؤال الثالث﴾ أى تعلق بين الشرط المذكور فى هذه الآية وبين ما فيها من الجزاء

والجواب : أن القوم ادعوا كون القرآن مفترى على الله تعالى . فقال : لو كان مفترى على الله لوجب أن يقدر الخلق على مثله ولما لم يقدروا عليه ، ثبت أنه من عند الله ، فقوله (إنما أنزل بعلم الله) كناية عن كونه من عند الله ومن قبله ، كما يقول الحاكم هذا الحكم جرى بعلمى

﴿السؤال الرابع﴾ أى تعلق لقوله (وأن لا إله إلا هو) بعجزهم عن المعارضة

والجواب فيه من وجوه : الأول : أنه تعالى لما أمر محمدا صلى الله عليه وسلم حتى يطلب من الكفار أن يستعينوا بالأصنام فى تحقيق المعارضة ثم ظهر عجزهم عنها فحينئذ ظهر أنها لا تنفع ولا تضر فى شىء من المطالب البتة ، ومتى كان كذلك ، فقد بطل القول باثبات كونهم آلهة ، فصار عجز القوم المعارضة بعد الاستعانة بالأصنام مبطلا لالهية الأصنام . ودليلا على ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان قوله (وأن لا إله إلا هو) إشارة إلى ما ظهر من فساد القول بآلهية الأصنام : الثانى : أنه ثبت فى علم الأصول أن القول بنفى الشريك عن الله من المسائل التى يمكن اثباتها بقول الرسول عليه السلام ، وعلى هذا فكأنه قيل : لما ثبت عجز الخصوم عن المعارضة ثبت كون القرآن حقاً . وثبت كون محمد صلى الله عليه وسلم صادقا فى دعوى الرسالة ، ثم إنه كان يخبر عن أنه لا إله إلا الله . فلما ثبت كونه محقاً فى دعوى النبوة ثبت قوله (أن لا إله إلا هو) الثالث : أن ذكر قوله (وأن لا إله إلا هو) جار مجرى التهديد ، كأنه قيل : لما ثبت بهذا الدليل كون محمد عليه السلام صادقا فى دعوى الرسالة وعلمتم أنه لا إله الا الله . فكونوا خائفين من قهره وعذابه واتركوا الاصرار على الكفر واقبلوا الاسلام ونظيره قوله تعالى فى سورة البقرة عند ذكر آية التحدى (فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)

وأما قوله ﴿فهل أنتم مسلمون﴾

فان قلنا : إنه خطاب مع المؤمنين كان معناه الترغيب فى زيادة الاخلاص . وإن قلنا : إنه خطاب مع الكفار كان معناه الترغيب فى أصل الاسلام .

مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ «١٥» أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ «١٦»

قوله تعالى ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾

اعلم أن الكفار كانوا ينازعون محمدا صلى الله عليه وسلم فى أكثر الأحوال . فكانوا يظهرون من أنفسهم أن محمدا مبطل ونحن محقون ، وإنما نبالغ فى منازعته لتحقيق الحق وإبطال الباطل ، وكانوا كاذبين فيه . بل كان غرضهم محض الحسد والاستنكاف من المتابعة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية لتقرير هذا المعنى . ونظير هذه الآية قوله تعالى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد) وقوله (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب) وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن فى الآية قولين :

﴿القول الأول﴾ أنها مختصة بالكفار ، لأن قوله (من كان يريد الحياة الدنيا) يندرج فيه المؤمن والكافر والصديق والزنديق . لأن كل أحد يريد التمتع بلذات الدنيا وطيباتها والانتفاع بخيراتها وشهواتها ، إلا أن آخر الآية يدل على أن المراد من هذا العام الخاص وهو الكافر ، لأن قوله تعالى (أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) لا يليق إلا بالكفار ، فصار تقدير الاية : من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فقط ، أى تكون إرادته مقصورة على حب الدنيا وزينتها ولم يكن طالباً لسعادات الآخرة ، كان حكمه كذا وكذا ، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فيه ، فمنهم من قال : المراد منهم منكرو البعث فانهم ينكرون الآخرة ولا يرغبون إلا فى سعادات الدنيا . وهذا قول الأصم وكلامه ظاهر .

﴿والقول الثانى﴾ أن الآية نزلت فى المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع الرسول عليه السلام الغنائم من دون أن يؤمنوا بالآخرة وثوابها .

﴿والقول الثالث﴾ أن المراد : اليهود والنصارى ؛ وهو منقول عن أنس .

﴿والقول الرابع﴾ وهو الذى اختاره القاضى أن المراد : من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا

وزينتها . وعمل الخير قسمان : العبادات . وإيصال المنفعة الى الحيوان . ويدخل فى هذا القسم الثانى البر وصلة الرحم والصدقة وبناء القناطر وتسوية الطرق والسعى فى دفع الشرور وإجراء الأنهار . فهذه الأشياء اذا أتى بها الكافر لأجل الثناء فى الدنيا . فان بسببها تصل الخيرات والمنافع الى المحتاجين . فكلها تكون من أعمال الخير . فلا جرم هذه الأعمال تكون طاعات سواء صدرت من الكافر أو المسلم . وأما العبادات : فهى إنما تكون طاعات بنيات مخصوصة . فاذا لم يؤت بتلك النية ، وإنما أتى فاعلها بها على طلب زينة الدنيا ، وتحصيل الرياء والسمعة فيها صار وجودها كعدمها فلا تكون من باب الطاعات .

واذا عرفت هذا فنقول : قوله (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) المراد منه الطاعات التى يصح صدورها من الكافر .

(القول الثانى) وهو أن تجرى الآية على ظاهرها فى العموم . ونقول : إنه يندرج فيه المؤمن الذى يأتى بالطاعات على سبيل الرياء والسمعة ، ويندرج فيه الكافر الذى هذا صفته . وهذا القول مشكل ، لأن قوله (أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار) لا يليق المؤمن . إلا إذا قلنا : المراد (أولئك الذين ليس فى الآخرة إلا النار) بسبب هذه الأعمال الفاسدة والأفعال الباطلة المقرونة بالرياء ، ثم القائلون بهذا القول ذكروا أخباراً كثيرة فى هذا الباب . روى أن الرسول عليه السلام قال «تعوذوا بالله من جب الحزن قيل وما جب الحزن ؟ قال عليه الصلاة والسلام «واد فى جهنم يلقى فيه القراء المراؤن» وقال عليه الصلاة والسلام «أشد الناس عذاباً يوم القيامة من يرى الناس أن فيه خيراً ولا خير فيه » وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «إذا كان يوم القيامة يدعى برجل جمع القرآن . فيقال له ماعملت فيه ؟ فيقول يارب قمت به آناء الليل والنهار فيقول الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال : فلان قاوىء ، وقد قيل ذلك . ويؤت بصاحب المال فيقول الله له ألم أوسع عليك فماذا عملت فيما آتينك فيقول : وصلت الرحم وتصدقت ، فيقول الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ، وقد قيل ذلك ويؤتى بمن قتل فى سبيل الله فيقول قاتلت فى الجهاد حتى قتلت فيقول الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان جرىء» وقد قيل ذلك قال أبو هريرة رضى الله عنه ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ركبتى وقال ياأباهريرة أولئك الثلاثة أول خلق تسعر بهم النار يوم القيامة وروى أن أبا هريرة رضى الله عنه ذكر هذا الحديث عند معاوية قال الراوى فبكى حتى ظننا أنه هالك ثم أفاق وقال صدق الله ورسوله (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها)

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ «١٧»

﴿المسألة الثانية﴾ المراد من توفية أجور تلك الأعمال هو أن كل مايستحقون بها من الثواب فانه يصل اليهم حال كونهم فى دار الدنيا ، فاذا خرجوا من الدنيا لم يبق معهم من تلك الأعمال أثر من آثار الخيرات . بل ليس لهم منها إلا النار .

واعلم أن العقل يدل عليه قطعا ، وذلك لأن من أتى بالأعمال لأجل طلب الثناء فى الدنيا ، ولأجل الرياء ، فذلك لأجل أنه غلب على قلبه حب الدنيا ، ولم يحصل فى قلبه حب الاخرة . اذ لو عرف حقيقة الآخرة وما فيها من السعادات لامتنع أن يأتى بالخيرات لأجل الدنيا وينسى أمر الآخرة ، فثبت أن الآتى بأعمال البر لأجل الدنيا لابد وأن يكون عظيم الرغبة فى الدنيا عديم الطلب للآخرة ومن كان كذلك فاذا مات فانه يفوته جميع منافع الدنيا ويبقى عاجزاً عن وجدانها غير قادر على تحصيلها . ومن أحب شيئا ثم حيل بينه وبين المطلوب فانه لابد وأن تشتعل فى قلبه نيران الحسرات فثبت بهذا البرهان العقلى ، أن كل من أتى بعمل من الأعمال لطلب الاحوال الدنيوية فانه يجد تلك المنفعة الدنيوية اللائقة بذلك العمل ، ثم اذا مات فانه لايحصل له منه إلا النار ويصير ذلك العمل فى الدار الآخرة محبطا باطلا عديم الأثر .

قوله تعالى ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده فلاتك فى مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لايؤمنون﴾

اعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها ظاهر ، والتقدير : أفمن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم فى الآخرة إلا النار ، إلا أنه حذف الجواب لظهورة ومثله فى القرآن كثير كقوله تعالى (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء) وقوله (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما) وقوله (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون)

واعلم أن أول هذه الآية مشتمل على ألفاظ أربعة كل واحد مجمل . فالأول : أن هذا الذى

وصفه الله تعالى بأنه على بينة من ربه من هو . والثانى : أنه ماالمرادبهذه البينة . والثالث : أن المراد بقوله (يتلوه) القرآن أو كونه حاصلا عقيب غيره . والرابع : أن هـذا الشاهد ما هو ؟ فهذه الألفاظ الأربعة مجملة . فلهذا كثر اختلاف المفسرين فى هذه الآية .

﴿أما الأول﴾ وهوأن هذا الذى وصفه الله تعالى بأنه على بينة من ربه من هو ؟ فقيل : المراد به النبيعليه الصلاة والسلام ، وقيل : المراد به من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره ، وهو الأظهرلقوله تعالى فى آخر الآية (أولئك يؤمنون به) وهذا صيغة جمع . فلا يجوز رجوعه إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالبينة هو البيان والبرهان الذى عرف به صحة الدين الحق والضمير فى (يتلوه) يرجع إلى معنىالبينة ، وهوالبيان والبرهان والمراد بالشاهد هوالقرآن ، ومنه أى من الله ومن قبله كتاب موسى ، أى ويتلو ذلك البرهان من قبل مجىء القرآن كتاب موسى .

واعلم أن كون كتاب موسى تابعاً للقرآن ليس فى الوجود بل فى دلالته على هـذا المطلوب و(إماما) نصب على الحال ، فالحاصل أنه يقول اجتمع فى تقريرصحة هذا الدين أمور ثلاثة : أولها : دلالة البينات العقلية على صحته . وثانيها : شهادة القرآن بصحته . وثالثها : شهادة التوراة بصحته ، فعند اجتماع هـذه الثلاثة لايبقى فى صحته شك ولا ارتياب . فهذا القول أحسن الأقاويل فى هذه الآية وأقربها إلى مطابقة اللفظ وفيها أقوال أخر .

﴿فالقول الأول﴾ إن الذى وصفه الله تعالى بأنه على بينة من ربه هو محمد عليه السلام والبينة هوالقرآن ، والمراد بقوله (يتلوه) هوالتلاوة بمعنىالقراءة وعلىهذا التقديرفذكروا فى تفسيرالشاهد وجوها : أحدها : أنه جبريل عليه السلام ، والمعنى : أن جبريل عليه السلام يقرأ القرآن على محمد عليه السلام . وثانيها : أن ذلك الشاهد هو لسان محمد عليه السلام وهو قول الحسن ، ورواية عن محمد بن الحنفية عن على رضى الله عنهما قال : قلت لأبى أنت التالى قال : وما معنى التالى قلت قوله (ويتلوه شاهد منـه) قال وددت أنى هو ولكنه لسان رسول الله صلى الله عليـه وسلم ولما كان الانسان إنما يقرأ القرآن ويتلوه بلسانه لاجرم جعل اللسان تاليا على سبيل المجاز كما يقال : عين باصرة وأذن سامعة ولسان ناطق . وثالثها : أن المراد هوعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، والمعنى أنه يتلو تلك البينة وقوله (منه) أى هـذا الشاهد من محمد وبعض منه ، والمراد منه تشريف هـذا الشاهد بأنه بعض من محمد عليـه السلام . ورابعها : أن لايكون المراد بقوله (ويتلوه) القرآن بل حصول هـذا الشاهد عقيب تلك البينة ، وعلى هذا الوجه قالوا إن المراد : أن صورة النبى عليـه السلام ووجهه ومخايله كل ذلك يشهد بصدقه ، لأن من نظر إليه بعقله علم أنه ليس بمجنون

ولا كاهن ، ولاساحر ، ولا كذاب ، والمراد بكون هذا الشاهد منه كون هـذه الأحوال متعلقة بذات النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿القول الثانى﴾ أن الذى وصفه الله تعالى بأنه على بينة هم المؤمنون وهم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالبينة القرآن (ويتلوه) أى ويتلو الكتاب الذى هو الحجة يعنى ويعقبه شاهد من الله تعالى ، وعلى هذا القول اختلفوا فى ذلك الشاهد . فقال بعضهم : إنه محمد عليه السلام ، وقال آخرون : بل ذلك الشاهد هو كون القرآن واقعاً على وجه يعرف كل من نظر فيـه أنه معجزة وذلك الوجه هو اشتماله على الفصاحة التامة والبلاغة الكاملة وكونه بحيث لا يقدر البشر على الاتيان بمثله ، وقوله (شاهد منه) أى من تلك البينة لأن أحوال القرآن وصفاته من القراآت متعلقة به . وثالثها : قال الفراء : (ويتلوه شاهد منه) يعنى الانجيل يتـلو القرآن وإن كان قد أنزل قبله ، والمعنى : أنه يتلوه فى التصديق ، وتقريره : أنه تعالى ذكر محمـداً صلى الله عليه وسلم فى الانجيل ، وأمر بالايمـان به .

واعلم أن هذين القولين وإن كانا محتملين إلا أن القول الأول أقوى وأتم .

واعلم أنه تعالى وصف كتاب موسى عليه السلام بكونه إماماً ورحمة ، ومعنى كونه إماما أنه كان مقتدى العالمين ، وإماما لهم يرجعون اليه فى معرفة الدين والشرائع ، وأما كونه رحمة فلأنه يهدى الى الحق فى الدنيا والدين ، وذلك سبب لحصول الرحمة والثواب . فلما كان سبباً للرحمة أطلق اسم الرحمة عليه اطلاقا لاسم المسبب على السبب .

ثم قال تعالى ﴿أولئك يؤمنون به﴾ والمعنى : أن الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم فى صحة هذا الدين يؤمنون .

واعلم أن المطالب على قسمين : منها مايعلم صحتها بالبديهة ، ومنها مايحتاج فى تحصيل العلم بها الى طلب واجتهاد ، وهذا القسم الثانى على قسمين ، لأن طريق تحصيل المعارف اما الحجة والبرهان المستنبط بالعقل وأما الاستفادة من الوحى والالهام . فهذان الطريقان هما الطريقان اللذان يمكن الرجوع اليهما فى تعريف المجهولات ، فاذا اجتمعا واعتضد كل واحد منهما بالآخر بلغا الغاية فى القوة والوثوق ، ثم إن فى أنبياء الله تعـالى كثرة ، فاذا توافقت كلمات الأنبياء على صحته ، وكان البرهان اليقينى قائمـاً على صحته ، فهذه المرتبة قد بلغت فى القوة الى حيث لا يمكن الزيادة فقوله (أفمن كان على بينة من ربه) المراد بالبينة الدلائل العقلية اليقينية ، وقوله (ويتلوه شاهد منه) اشارة الى الوحى الذى حصل لمحمد عليـه السلام ، وقوله (ومن قبله كتاب موسى اماماً ورحمة)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ «١٨» الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ «١٩»

اشارة الى الوحى الذى حصل لموسى عليه السلام ، وعند اجتماع هذه الثلاثة قد بلغ هـذا اليقين فى القوة والظهور والجلاء الى حيث لا يمكن الزيادة عليه .

ثم قال تعالى ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ والمراد من الأحزاب أصناف الكفار ، فيدخل فيهم اليهود والنصارى والمجوس . روى سعيد بن جبير عن أبى موسى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لا يسمع بى يهودى ولا نصرانى فلا يؤمن بى إلا كان من أهل النار» قال أبو موسى : فقلت فى نفسى إن النبى صلى الله عليه وسلم لا يقول مثل هذا إلا عن القرآن . فوجدت الله تعالى يقول (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) وقال بعضهم : لما دلت الآية على أن من يكفر به فالنار موعده ، دلت على أن من لا يكفر به لم تكن النار موعده .

ثم قال تعالى ﴿فلا تك فى مرية منه إنه الحق من ربك﴾ ففيه قولان : الأول : فلا تك فى مرية من صحة هـذا الدين ، ومن كون القرآن نازلا من عند الله تعالى ، فكان متعلقا بما تقدم من قوله تعالى (أم يقولون افتراه) الثانى : فلا تك فى مرية من أن موعد الكافر النار . وقرىء (مرية) بضم الميم .

ثم قال ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ والتقدير : لما ظهر الحق ظهوراً فى الغاية ، فكن أنت متابعاً له ولا تبال بالجهال سواء آمنوا أولم يؤمنوا . والأقرب أن يكون المراد لا يؤمنون بما تقدم ذكره من وصف القرآن .

قوله تعالى ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون﴾

اعلم أن الكفار كانت لهم عادات كثيرة وطرق مختلفة . فمنها شدة حرصهم على الدنيا ، ورغبتهم فى تحصيلها ، وقد أبطل الله هذه الطريقة بقوله (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) الى آخر الآية

ومنها أنهم كانوا ينكرون نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويقدحون فى معجزاته ، وقد أبطل الله تعالى ذلك بقوله (أفمن كان على بينة من ربه) ومنها أنهم كانوا يزعمون فى الأصنام أنها شفعاؤهم عند الله ، وقد أبطل الله تعالى ذلك بهذه الآية ، وذلك لأن هذا الكلام افتراء على الله تعالى ، فلما بين وعيد المفترين على الله ، فقد دخل فيه هذا الكلام .

واعلم أن قوله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) إنما يورد فى معرض المبالغة . وفيه دلالة على أن الافتراء على الله تعالى أعظم أنواع الظلم .

ثم إنه تعالى بين وعيد هؤلاء بقوله ﴿أولئك يعرضون على ربهم﴾ وما وصفهم بذلك لأنهم مختصون بذلك العرض ، لأن العرض عام فى كل العباد كما قال (وعرضوا على ربك صفا) وإنما أراد به أنهم يعرضون فيفتضحون بأن يقول الأشهاد عند عرضهم (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) فحصل لهم من الخزى والنكال مالامزيد عليه ، وفيه سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ إذا لم يجز أن يكون الله تعالى فى مكان . فكيف قال (يعرضون على ربهم) والجواب : أنهم يعرضون على الأماكن المعدة للحساب والسؤال ، ويجوز أيضاً أن يكون ذلك عرضاً على من شاء الله من الخلق بأمر الله من الملائكة والأنبياء والمؤمنين .

﴿السؤال الثانى﴾ من الأشهاد الذين أضيف اليهم هذا القول ؟

الجواب : قال مجاهد : هم الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم فى الدنيا . وقال قتادة ومقاتل (الأشهاد) الناس كما يقال على رؤس الأشهاد ، يعنى على رؤس الناس . وقال الآخرون : هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . قال الله تعالى (فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين) والفائدة فى اعتبار قول الأشهاد المبالغة فى إظهار الفضيحة .

﴿السؤال الثالث﴾ الأشهاد جمع فما واحده ؟

والجواب : يجوز أن يكون جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب . وناصر وأنصار ، ويجوز أن يكون جمع شهيد مثل شريف وأشراف . قال أبو على الفارسى : وهذا كأنه أرجح ، لأن ماجاء من ذلك فى التنزيل جاء على فعيل ، كقوله (ويكون الرسول عليكم شهيداً . وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) ثم لما أخبر عن حالهم فى عذاب القيامة أخبر عن حالهم فى الحال فقال (ألا لعنة الله على الظالمين) وبين أنهم فى الحال لملعونون من عند الله . ثم ذكر من صفاتهم أنهم يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا يعنى أنهم كما ظلموا أنفسهم بالتزام الكفر والضلال ، فقد أضافوا إليه المنع من الدين الحق ، وإلقاء الشبهات ، وتعويج الدلائل المستقيمة ، لأنه لايقال فى العاصي : يبغى

أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ «٢٠» أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ «٢١» لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ «٢٢»

عوجا . وإنما يقال ذلك فيمن يعرف كيفية الاستقامة . وكيفية العوج بسبب إلقاء الشبهات . وتقرير الضلالات .

ثم قال ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ قال الزجاج : كلمة «هم» كررت على جهة التوكيد لثبتهم فى الكفر .

قوله عز وجل ﴿أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ماكانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون لاجرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون﴾

اعلم أن الله تعالى وصف هؤلاء المنكرين الجاحدين بصفات كثيرة فى معرض الذم .

﴿الصفة الأولى﴾ كونهم مفترين على الله ، وهى قوله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً)

﴿والصفة الثانية﴾ أنهم يعرضون على الله فى موقف الذل والهوان والخزى والنكال . وهى قوله (أولئك يعرضون على ربهم)

﴿والصفة الثالثة﴾ حصول الخزى والنكال والفضيحة العظيمة . وهى قوله (ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم)

﴿والصفة الرابعة﴾ كونهم ملعونين من عند الله ، وهى قوله (ألا لعنة الله على الظالمين)

﴿والصفة الخامسة﴾ كونهم صادين عن سبيل الله مانعين عن متابعة الحق . وهى قوله (الذين يصدون عن سبيل الله)

﴿والصفة السادسة﴾ سعيهم فى إلقاء الشبهات . وتعويج الدلائل المستقيمة ، وهى قوله (ويبغونها عوجا)

﴿والصفة السابعة﴾ كونهم كافرين ، وهى قوله (وهم بالآخرة هم كافرون)

﴿والصفة الثامنة﴾ كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب الله ، وهى قوله (أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض) قال الواحدى : معنى الاعجاز المنع من تحصيل المراد . يقال أعجزنى فلان أى منعنى عن مرادى ، ومعنى معجزين فى الأرض أى لا يمكنهم أن يهربوا من عذابنا فان هرب العبد من عذاب الله محال ، لأنه سبحانه وتعالى قادر على جميع الممكنات ، ولا تتفاوت قدرته بالبعد والقرب والقوة والضعف .

﴿والصفة التاسعة﴾ أنهم ليس لهم أولياء يدفعون عذاب الله عنهم ، والمراد منه الرد عليهم فى وصفهم الأصنام بأنها شفعاؤهم عند الله والمقصود أن قوله (أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض) دل على أنهم لا قدرة لهم على الفرار وقوله (وما كان لهم من دون الله من أولياء) هو أن أحداً لا يقدر على تخليصهم من ذلك العذاب ، فجمع تعالى بين مايرجع إليهم وبين مايرجع إلى غيرهم وبين بذلك انقطاع حيلهم فى الخلاص من عذاب الدنيا والآخرة ، ثم اختلفوا فقال قوم المراد إن عدم نزول العذاب ليس لأجل أنهم قدروا على منع الله من إنزال العذاب ولا لأجل أن لهم ناصراً يمنع ذلك العذاب عنهم ، بل إنما حصل ذلك الامهال لأنه تعالى أمهلهم كى يتوبوا فيزولوا عن كفرهم فاذا أبوا إلا الثبات عليه فلابد من مضاعفة العذاب فى الآخرة ، وقال بعضهم : بل المراد أن يكونوا معجزين لله عما يريد إنزاله عليهم من العذاب فى الآخرة أو فى الدنيا ولا يجدون ولياً ينصرهم ويدفع ذلك عنهم .

﴿والصفة العاشرة﴾ قوله تعالى (يضاعف لهم العذاب) قيل سبب تضعيف العذاب فى حقهم أنهم كفروا بالله وبالبعث وبالنشور . فكفرهم بالمبدأ والمعاد صار سبباً لتضعيف العذاب ، والأصوب أن يقال إنهم مع ضلالهم الشديد ، سعوا فى الاضلال ومنع الناس عن الدين الحق . فلهذا المعنى حصل هذا التضعيف عليهم .

﴿الصفة الحادية عشرة﴾ قوله (ماكانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) والمراد ماهم عليه فى الدنيا من صمم القلب وعمى النفس ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى قد يخلق فى المكلف مايمنعه الايمان ، روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال إنه تعالى منع الكافر من الايمان فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا ففى قوله تعالى (ماكانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) وأما فى الآخرة فهو قوله (يدعون إلى السجود فلا يستطيعون) وحاصل الكلام فى هذا الاستدلال أنه تعالى أخبر عنهم أنهم لا يستطيعون السمع ، فاما أن يكون المراد أنهم ماكانوا يستطيعون سمع الأصوات والحروف ، وإما أن يكون المراد

كونهم عاجزين عن الوقوف على دلائل الله تعالى ، والقول الأول باطل لأن البديهة دلت على أنهم كانوا يسمعون الأصوات والحروف ، فوجب حمل اللفظ على الثانى أجاب الجبائى عنه بأن السمع إما أن يكون عبارة عن الحاسة المخصوصة ، أو عن معنى يخلقه الله تعالى فى صماخ الأذن ، وكلاهما لا يقدر العبد عليه ، لأنه لو اجتهد فى أن يفعل ذلك أو يتركه لتعذر عليه ، وإذا ثبت هذا كان إثبات الاستطاعة فيه محالا ، وإذا كان اثباتها محالا كان نفى الاستطاعة عنه هو الحق ، فثبت أن ظاهر الآية لا يقدح فى قولنا. ثم قال المراد بقوله (ماكانوا يستطيعون السمع) إهمالهم له ونفورهم عنه كما يقول القائل : هذا كلام لا أستطيع أن أسمعه ، وهذا مما يمجه سمعى وذكر غير الجبائى عذراً آخر ، فقال إنه تعالى نفى أن يكون لهم أولياء والمراد الأصنام ثم بين نفى كونهم أولياء بقوله (ماكانوا يستطيعون السمع وماكانوا يبصرون) فكيف يصلحون للولاية .

والجواب : أما حمل الآية على أنه لاقدرة لهم على خلق الحاسة وعلى خلق المعنى فيها فباطل ، لأن هذه الآية وردت فى معرض الوعيد فلابد وأن يكون ذلك معنى مختصاً بهم ، والمعنى الذى قالوه حاصل فى الملائكة والأنبياء فكيف يمكن حمل اللفظ عليه ، وأما قوله إن ذلك محمول على أنهم كانوا يستثقلون سماع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وإبصار صورته .

فالجواب أنه تعالى نفى الاستطاعة فحمله على معنى آخر خلاف الظاهر ، وأيضاً أن حصول ذلك الاستثقال إما أن يمنع من الفهم والوصول إلى الغرض أو لم يمنع ، فان منع فهو المقصود ، وإن لم يمنع منه فحينئذ كان ذلك سبباً أجنبياً عن المعانى المعتبرة فى الفهم والادراك ، ولا تختلف أحوال القلب فى العلم والمعرفة بسببه ، فكيف يمكن جعله ذماً لهم فى هذا المعرض ، وأيضاً قد بينا مراراً كثيرة فى هذا الكتاب أن حصول الفعل مع قيام الصارف محال ، فلما بين تعالى كون هذا المعنى صارفاً عن قبول الدين الحق وبين فيه أنه حصل حصولا على سبيل اللزوم بحيث لا يزول البتة فى ذلك الوقت كان المكلف فى ذلك الوقت ممنوعاً عن الايمان ، وحينئذ يحصل المطلوب ، وأما قوله فانا نجعل هذه الصفة من صفة الأوثان فبعيد لأنه تعالى قال (يضاعف لهم العذاب) ثم قال (ماكانوا يستطيعون السمع) فوجب أن يكون الضمير فى هذه الآية المتأخرة عائدا إلى عين ماعاد اليه الضمير المذكور فى هذه الآية الأولى ، وأما قوله (وما كانوا يبصرون) فقيل : المراد منه البصيرة ، وقيل : المراد منه أنهم عدلوا عن إبصار مايكون حجة لهم .

﴿الصفة الثانية عشرة﴾ قوله (أولئك الذين خسروا أنفسهم) ومعناه أنهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى فكان هذا الخسران أعظم وجوه الخسران .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ «٢٣»

﴿الصفة الثالثة عشرة﴾ قوله (وضل عنهم ماكانوا يفترون) والمعنى أنهم لما باعوا الدين بالدنيا فقد خسروا ، لأنهم أعطوا الشريف ، ورضوا بأخذ الخسيس ، وهذا عين الخسران فى الدنيا ثم فى الاخرة فهذا الخسيس يضيع ويهلك ولا يبقى منه أثر ، وهو المراد بقوله (وضل عنهم ماكانوا يفترون)

﴿الصفة الرابعة عشرة﴾ قوله (لاجرم أنهم فى الاخرة هم الأخسرون) وتقريره ماتقدم ، وهو أنه لما أعطى الشريف الرفيع ورضى بالخسيس الوضيع فقد خسر فى التجارة . ثم لما كان هذا الخسيس بحيث لايبقى بل لابد وأن يهلك ويفنى انقلبت تلك التجارة إلى النهاية فى صفة الخسارة ، فلهذا قال (لاجرم أنهم فى الاخرة هم الأخسرون) وقوله (لاجرم) قال الفراء : إنها بمنزلة قولنا لابد ولامحالة ، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقاً ، تقول العرب : لاجرم أنك محسن ، على معنى حقاً إنك محسن ، وأما النحويون فلهم فيه وجوه : الأول : لا حرف نفى وجرم ، أى قطع ، فاذا قلنا : لاجرم معناه أنه لاقطع قاطع عنهم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون . الثانى : قال الزجاج إن كلمة (لا) نفى لما ظنوا أنه ينفعهم ، و(جرم) معناه كسب ذلك الفعل ، والمعنى : لاينفعهم ذلك وكسب ذلك الفعل لهم الخسران فى الدنيا والآخرة ، وذكرنا (جرم) بمعنى كسب فى تفسير قوله تعالى (لايجرمنكم شنآن قوم) قال الأزهرى ، وهذا من أحسن ما قيل فى هذا الباب . الثالث : قال سيبويه والأخفش : لارد على أهل الكفر كما ذكرنا . وجرم معناه حق وصح ، والتأويل أنه حق كفرهم وقوع العذاب والخسران بهم . واحتج سيبويه بقول الشاعر :

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

أراد حقت الطعنة فزارة أن يغضبوا

قوله تعالى ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر عقوبة الكافرين وخسرانهم . أتبعه بذكر أحوال المؤمنين ، والاخبات هو الخشوع والخضوع وهو مأخوذ من الخبت وهو الأرض المطمئنة . وخبت ذكره ، أى خفى .

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ «٢٤»

فقوله «أخبت» أى دخل فى الخبت، كما يقال فيمن صار إلى نجد أنجد وإلى تهامة أتهم، ومنه المخبت من الناس الذى أخبت إلى ربه أى اطمأن إليه، ولفظ الاخبات يتعدى بإلى وباللام، فإذا قلنا: أخبت فلان إلى كذا فمعناه اطمأن إليه، وإذا قلنا أخبت له فمعناه خشع له.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) إشارة إلى جميع الأعمال الصالحة، وقوله (وأخبتوا) إشارة إلى أن هذه الأعمال لا تنفع فى الآخرة إلا مع الأحوال القلبية ثم إن فسرنا الاخبات بالطمأنينة كان المراد أنهم يعبدون الله وكانت قلوبهم عند أداء العبادات مطمئنة بذكر الله فارغة عن الالتفات إلى ما سوى الله تعالى. أو يقال إنما قلوبهم صارت مطمئنة إلى صدق الله بكل ما وعدهم من الثواب والعقاب، وأما إن فسرنا الاخبات بالخشوع كان معناه أنهم يأتون بالأعمال الصالحة خائفين وجلين من أن يكونوا أتوا بها مع وجود الاخلال والتقصير، ثم بين أن من حصل له هذه الصفات الثلاثة فهم أصحاب الجنة، ويحصل لهم الخلود فى الجنة.

قوله تعالى ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون﴾

واعلم أنه تعالى لما ذكر الفريقين ذكر فيهما مثالا مطابقا ثم اختلفوا. فقيل: إنه راجع إلى من ذكر آخراً من المؤمنين والكافرين من قبل، وقال آخرون: بل رجع إلى قوله (أفمن كان على بينة من ربه) ثم ذكر من بعده الكافرين ووصفهم بأنهم لا يستطيعون السمع ولا يبصرون، والسميع والبصير هم الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم.

واعلم أن وجه التشبيه هو أنه سبحانه خلق الانسان مركبا من الجسد ومن النفس، وكما أن للجسد بصرا وسمعا فكذلك حصل لجوهر الروح سمع وبصر. وكما أن الجسد إذا كان أعمى أصم بقى متحيراً لا يهتدى إلى شىء من المصالح، بل يكون كالتائه فى حضيض الظلمات لا يبصر نوراً يهتدى به ولا يسمع صوتا، فكذلك الجاهل الضال المضل، يكون أعمى وأصم القلب، فيبقى فى ظلمات الضلالات حائرا تائها.

ثم قال تعالى ﴿أفلا تذكرون﴾ منبها على أنه يمكنه علاج هذا العمى وهذا الصمم. وإذا كان

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ «٢٥» أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ «٢٦»

العلاج ممكنا من الضرر الحاصل بسبب حصول هذا العمى وهذا الصمم . وجب على العاقل أن يسعى فى ذلك العلاج بقدر الامكان .

واعلم أنه قد جرت العادة بأنه تعالى إذا ورد على الكافر أنواع الدلائل أتبعها بالقصص ، ليصير ذكرها مؤكدا لتلك الدلائل على ما قررنا هذا المعنى فى مواضع كثيرة ، وفى هذه السورة ذكر أنواعا من القصص .

القصة الأولى

قصة نوح عليه السلام

قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾

اعلم أنه تعالى قد بدأ بذكر هذه القصة فى سورة يونس وقد أعادها فى هذه السورة أيضا لما فيها من زوائد الفوائد وبدائع الحكم ، وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى (أنى) بفتح الهمزة ، والمعنى : أرسلنا نوحا بأنى لكم نذير مبين ، ومعناه أرسلناه ملتبسا بهذا الكلام وهو قوله (أنى لكم نذير مبين) فلما اتصل به حرف الجر وهو الباء فتح كما فتح فى كان ، وأما سائر القراء فقرؤا (إنى) بالكسر على معنى قال (إنى لكم نذير مبين)

﴿المسألة الثانية﴾ قال بعضهم : المراد من النذير كونه مهددا للعصاة بالعقاب ، ومن المبين كونه مبينا ما أعد الله للمطيعين من الثواب . والأولى أن يكون المعنى أنه نذير للعصاة من العقاب وأنه مبين بمعنى أنه بين ذلك الانذار على الطريق الأكمل والبيان الأقوى الأظهر ، ثم بين تعالى أن ذلك الانذار إنما حصل فى النهى عن عبادة غير الله . وفى الأمر بعبادة الله لأن قوله (أن لا تعبدوا إلا الله) استثناء من النفى وهو يوجب نفى غير المستثنى .

واعلم أن تقدير الآية كأنه تعالى قال ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه بهذا الكلام وهو قوله (إنى لكم نذير مبين)

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ «٢٧»

ثم قال ﴿ أن لا تعبدوا الا الله ﴾ فقوله (أن لا تعبدوا الا الله) بدل من قوله (إنى لكم نذير) ثم انه أكد ذلك بقوله (إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) والمعنى أنه لما حصل الألم العظيم فى ذلك اليوم أسند ذلك الألم إلى اليوم ، كقولهم نهارك صائم . وليلك قائم .

قوله تعالى ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن نوح عليه السلام أنه دعا قومه الى عبادة الله تعالى حكى عنهم أنهم طعنوا فى نبوته بثلاثة أنواع من الشبهات .

﴿ فالشبهة الأولى ﴾ أنه بشر مثلهم ، والتفاوت الحاصل بين آحاد البشر يمتنع انتهاؤه الى حيث يصير الواحد منهم واجب الطاعة لجميع العالمين

﴿ والشبهة الثانية ﴾ كونه ما أتبعه إلا أراذل من القوم كالحياكة وأهل الصنائع الخسيسة . قالوا ولو كنت صادقا لاتبعك الأكياس من الناس والأشراف منهم ، ونظيره قوله تعالى فى سورة الشعراء (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون)

﴿ والشبهة الثالثة ﴾ قوله تعالى (وما نرى لكم علينا من فضل) والمعنى ، لا نرى لكم علينا من فضل لا فى العقل ولا فى رعاية المصالح العاجلة ولا فى قوة الجدل فاذا لم نشاهد فضلك علينا فى شيء من هذه الأحوال الظاهرة فكيف نعترف بفضلك علينا فى أشرف الدرجات وأعلى المقامات . فهذا خلاصة الكلام فى تقرير هذه الشبهات .

واعلم أن الشبهة الأولى لا تليق إلا بالبراهمة الذين ينكرون نبوة البشر على الاطلاق . أما الشبهتان الباقيتان فيمكن أن يتمسك بهما من أقر بنبوة سائر الأنبياء ، وفى لفظ الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الملأ الاشراف وفى اشتقاقه وجوه : الأول : أنه مأخوذ من قولهم ملىء بكذا إذا كان مطيقا له وقد ملؤا بالأمر ، والسبب فى إطلاق هذا اللفظ عليهم أنهم ملؤا بترتيب المهمات

وأحسنوا فى تدبيرها . الثانى : أنهم وصفوا بذلك لأنهم يتمالؤون أى يتظاهرون عليه . الثالث : وصفوا بذلك لأنهم يملؤون القلوب هيبة والمجالس أبهة . الرابع : وصفوا به لأنهم ملؤا العقول الراجحة والآراء الصائبة .

ثم حكى الله تعالى عنهم الشبهة الأولى ، وهى قولهم ﴿ مانراك إلا بشراً مثلنا ﴾ وهو مثل ماحكى الله تعالى عن بعض العرب أنهم قالوا (لولا أنزل عليه ملك) وهذا جهل ، لأن من حق الرسول أن يباشر الأمة بالدليل والبرهان والتثبت والحجة ، لا بالصورة والخلقة ، بل نقول : إن الله تعالى لو بعث إلى البشر ملكا لكانت الشبهة أقوى فى الطعن عليه فى رسالته لأنه يخطر بالبال أن هذه المعجزات التى ظهرت لعل هذا الملك هو الذى أتى بها من عند نفسه بسبب أن قوته أكمل وقدرته أقوى ، فلهذه الحكمة مابعث الله إلى البشر رسولا إلا من البشر .

ثم حكى الشبهة الثانية وهى قوله ﴿ ومانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ﴾ والمراد منه قلة مالهم وقلة جاههم ودناءة حرفهم وصناعتهم هذا أيضا جهل ، لأن الرفعة فى الدين لا تكون بالحسب والمال والمناصب العالية ، بل الفقر أهون على الدين من الغنى ، بل نقول : الأنبياء مابعثوا إلا لترك الدنيا والاقبال على الآخرة . فكيف تجعل قلة المال فى الدنيا طعنا فى النبوة والرسالة .

ثم حكى الله تعالى الشبهة الثالثة وهى قوله ﴿ ومانرى لكم علينا من فضل ﴾ وهذا أيضا جهل ، لأن الفضيلة المعتبرة عند الله ليست إلا بالعلم والعمل ، فكيف اطلعوا على بواطن الخلق حتى عرفوا نفى هذه الفضيلة ، ثم قالوا بعد ذكر هذه الشبهات لنوح عليه السلام ومن اتبعه (بل نظنكم كاذبين) وفيه وجهان : الأول : أن يكون هذا خطابا مع نوح ومع قومه ، والمراد منه تكذيب نوح فى دعوى الرسالة . والثانى : أن يكون هذا خطابا مع الأراذل فنسبوهم إلى أنهم كذبوا فى أن آمنوا به واتبعوه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الواحدى : الأرذل جمع رذل وهو الدون من كل شىء فى منظره وحالاته ورجل رذل الثياب والفعل . والأراذل جمع الأرذل ، كقولهم أكابر مجرميها ، وقوله عليه الصلاة والسلام «أحاسنكم أخلاقا» فعلى هذا الأراذل جمع الجمع ، وقال بعضهم : الأصل فيه أن يقال : هو أرذل من كذا . ثم كثر حتى قالوا : هو الأرذل فصارت الألف واللام عوضا عن الاضافة . وقوله (بادى الرأى) البادى هو الظاهر من قولك : بدأ الشىء إذا ظهر ، ومنه يقال : بادية لظهورها وبروزها للناظر ، واختلفوا فى بادى الرأى وذكروا فيه وجوها : الأول : اتبعوك فى الظاهر وباطنهم بخلافه . والثانى : يجوز أن يكون المراد اتبعوك فى ابتداء حدوث الرأى وما احتاطوا فى

قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ «٢٨»

ذلك الرأى وما أعطوه حقه من الفكر الصائب والتدبر الوافى . الثالث : أنهم لما وصفوا القوم بالرذالة قالوا : كونهم كذلك بادى الرأى أمر ظاهر لكل من يراهم . والرأى على هذا المعنى من رأى العين لا من رأى القلب ويتأكد هذا التأويل بما نقل عن مجاهد أنه كان يقرأ (إلا الذين هم أراذلنا بادى رأى العين)

﴿المسألة الثالثة﴾ قرأ أبو عمرو ونصير عن الكسائى (بادىء) بالهمزة والباقون بالياء غير مهموز فمن قرأ (بادىء) بالهمزة . فالمعنى أول الرأى وابتداؤه ومن قرأ بالياء غير مهموز كان من بدا يبدو أى ظهر و(بادى) نصب على المصدر كقولك : ضربت أول الضرب .

قوله تعالى ﴿قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾

فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى لما حكى شبهات منكرى نبوة نوح عليه الصلاة والسلام حكى بعده ما يكون جوابا عن تلك الشبهات .

﴿فالشبهة الأولى﴾ قولهم ﴿ما أنت إلا بشر مثلنا﴾ فقال نوح حصول المساواة فى البشرية لا يمنع من حصول المفارقة فى صفة النبوة والرسالة . ثم ذكر الطريق الدال على إمكانه ، فقال (أرأيتم إن كنت على بينة من ربى) من معرفة ذات الله وصفاته وما يجب وما يمتنع وما يجوز عليه . ثم إنه تعالى آتانى رحمة من عنده . والمراد بتلك الرحمة : إما النبوة . وإما المعجزة الدالة على النبوة (فعميت عليكم) أى صارت مظنة مشتبهة ملتبسة فى عقولكم . فهل أقدر على أن أجعلكم بحيث تصلون إلى معرفتها شئتم أم أبيتم ؟ والمراد أنى لا أقدر على ذلك البتة . وعن قتادة : والله لو استطاع نبى الله لألزمها ولكنه لم يقدر عليه . وحاصل الكلام أنهم لما قالوا (وما نرى لكم علينا من فضل) ذكر نوح عليه السلام أن ذلك بسبب أن الحجة عميت عليكم واشتبهت . فأما لو تركتم العناد واللجاج ونظرتم فى الدليل لظهر المقصود . وتبين أن الله تعالى آتانا عليكم فضلا عظيما .

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم (فعميت عليكم) بضم العين وتشديد

وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ «٢٩» وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ «٣٠» وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنْفُسِهِمْ إِنِّى إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ «٣١»

الميم على مالم يسم فاعله . بمعنى التبست وشبهت والباقون بفتح العين مخففة الميم ، أى التبست واشتبهت.

واعلم أن الشيء إذا بقى مجهولا محضا أشبه المعمى ، لأن العلم نور البصيرة الباطنة . والأبصار نور البصر الظاهر . فحسن جعل كل واحد منها مجازاً عن الآخر وتحقيقه أن البينة توصف بالأبصار . قال تعالى (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة) وكذلك توصف بالعمى ، قال تعالى (فعميت عليهم الأنباء) وقال فى هذه الآية (فعميت عليكم)

﴿المسألة الثالثة﴾ أنلزمكموها فيه ثلاث مضمرات : ضمير المتكلم . وضمير الغائب . وضمير المخاطب ، وأجاز الفراء إسكان الميم الأولى . وروى ذلك عن أبى عمرو قال : وذلك أن الحركات توالت فسكنت الميم وهى أيضا مرفوعة وقبلها كسرة . والحركة التى بعدها ضمة ثقيلة ، قال الزجاج: جميع النحويين البصريين ، لايجيزون إسكان حرف الاعراب إلا فى ضرورة الشعر ومايروى عن أبى عمرو فلم يضبطه عنه الفراء ، وروى عن سيبويه أنه كان يخفف الحركة ويختلسها ، وهذا هو الحق وإنما يجوز الاسكان فى الشعر كقول امرىء القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب

قوله تعالى ﴿وياقوم لاأسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الله وماأنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوماتجهلون وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلاتذكرون ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولاأقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيكم الله خيراً الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين﴾

فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن هذا هو الجواب عن الشبهة الثانية وهى قولهم لا يتبعك إلا الأراذل من الناس وتقرير هذا الجواب من وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أنه عليه الصلاة والسلام قال «أنا لا أطلب على تبليغ دعوة الرسالة مالا حتى يتفاوت الحال بسبب كون المستجيب فقيراً أو غنياً وإنما أجرى على هذه الطاعة الشاقة على رب العالمين» وإذا كان الأمر كذلك فسواء كانوا فقراء أو أغنياء لم يتفاوت الحال فى ذلك

﴿الوجه الثانى﴾ كأنه عليه الصلاة والسلام قال لهم إنكم لما نظرتم إلى ظواهر الأمور وجدتمونى فقيراً وظننتم أنى إنما اشتغلت بهذه الحرفة لأتوسل بها إلى أخذ أموالكم وهذا الظن منكم خطأ فأنى لا أسئلكم على تبليغ الرسالة أجرا إن أجرى إلا على رب العالمين فلا تحرموا أنفسكم من سعادة الدين بسبب هذا الظن الفاسد .

﴿والوجه الثالث﴾ فى تقرير هذا الجواب أنهم قالوا (مانراك إلا بشراً مثلنا) إلى قوله (وما نرى لكم علينا من فضل) فهو عليه السلام بين أنه تعالى أعطاه أنواعا كثيرة توجب فضله عليهم ولذلك لم يسع فى طلب الدنيا ، وإنما يسعى فى طلب الدين ، والاعراض عن الدنيا من أمهات الفضائل باتفاق الكل ، فلعل المراد تقرير حصول الفضيلة من هذا الوجه .

فاما قوله ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ فهذا كالدليل على أن القوم سألوه طردهم رفعاً لأنفسهم عن مشاركة أولئك الفقراء . روى ابن جريج أنهم قالوا : إن أحببت يانوح أن نتبعك فاطردهم فانا لانرضى بمشاركتهم . فقال عليه الصلاة والسلام (وما أنا بطارد الذين آمنوا) وقوله تعالى حكاية عنهم أنهم قالوا (ومانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى) كالدليل على أنهم طلبوا منه طردهم لأنه كالدليل على أنهم كانوا يقولون : لو اتبعك أشراف القوم لوافقناهم ، ثم إنه تعالى حكى عنه أنه ماطردهم ، وذكر فى بيان مايوجب الامتناع من هذا الطرد أموراً : الأول : أنهم ملاقو ربهم وهذا الكلام يحتمل وجوهاً : منها : أنهم قالوا هم منافقون فيما أظهروا فلا تغتر بهم؟ فأجاب بأن هذا الأمر ينكشف عند لقاء ربهم فى الآخرة . ومنها : أنه جعله علة فى الامتناع من الطرد وأراد أنهم ملاقوا ماوعدهم ربهم ، فان طردتهم استخصمونى فى الآخرة . ومنها : أنه نبه بذلك الأمر على انا نجتمع فى الآخرة فأعاقب على طردهم فلا أجد من ينصرنى ، ثم بين أنهم يبنون أمرهم على الجهل بالعواقب والاغترار بالظواهر فقال (ولكنى أراكم قوماً تجهلون)

ثم قال بعده ﴿ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون﴾ والمعنى : أن العقل والشرع تطابقا على أنه لابد من تعظيم المؤمن البر التقى . ومن إهانة الفاجر الكافر . فلو قلبت القصة

ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ «٣» إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «٤»

يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله وإن تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير إلى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير﴾

اعلم أن فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن فى قوله (ألا تعبدوا إلا الله) وجوهاً : الأول : أن يكون مفعولا له والتقدير: كتاب أحكمت آياته ثم فصلت . لأجل ألا تعبدوا إلا الله وأقول هذا التأويل يدل على أنه لامقصود من هذا الكتاب الشريف إلاهذا الحرف الواحد ، فكل من صرف عمره إلى سائر المطالب ، فقد خاب وخسر . الثانى : أن تكون (أن) مفسرة لأن فى تفصيل الآيات معنى القول والحمل على هذا أولى ، لأن قوله (وأن استغفروا) معطوف على قوله (ألا تعبدوا) فيجب أن يكون معناه : أى لا تعبدوا ليكون الأمر معطوفا على النهى ، فان كونه بمعنى لئلا تعبدوا يمنع عطف الأمر عليه . والثالث : أن يكون التقدير : الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ليأمر الناس أن لا يعبدوا إلا الله ويقول لهم ، إننى لكم منه نذير وبشير والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أن هذه الآية مشتملة على التكليف من وجوه : الأول : أنه تعالى أمر بأن لا يعبدوا إلا الله ، وإذا قلنا : الاستثناء من النفى اثبات ، كان معنى هذا الكلام النهى عن عبادة غير الله تعالى ، والأمر بعبادة الله تعالى ، وذلك هو الحق ، لانابينا أن ماسوى الله فهو محدث مخلوق مربوب ، وانما حصل بتكوين الله وإيجاده ، والعبادة عبارة عن اظهار الخضوع والخشوع ونهاية التواضع والتذلل وهذا لايليق إلا بالخالق المدبر الرحيم المحسن ، فثبت أن عبادة غير الله منكرة ، والاعراض عن عبادة الله منكر .

واعلم أن عبادة الله مشروطة بتحصيل معرفة الله تعالى قبل العبادة ، لأن من لايعرف معبوده لاينتفع بعبادته فكان الأمر بعبادة الله أمراً بتحصيل المعرفة أولا . ونظيره قوله تعالى فى أول سورة البقرة (ياأيها الناس اعبدوا ربكم) ثم أتبعه بالدلائل الدالة على وجود الصانع وهو قوله (الذى

خلقكم والذين من قبلكم) وإنما حسن ذلك لأن الأمر بالعبادة يتضمن الأمر بتحصيل المعرفة . فلا جرم ذكر مايدل على تحصيل المعرفة .

ثم قال ﴿إننى لكم منه نذير وبشير﴾ وفيه مباحث :

﴿البحث الأول﴾ أن الضمير فى قوله (منه) عائد إلى الحكيم الخبير ، والمعنى : اننى لكم نذير وبشير من جهته .

﴿البحث الثانى﴾ أن قوله (ألا تعبدوا إلا الله) مشتمل على المنع عن عبادة غير الله . وعلى الترغيب فى عبادة الله تعالى ، فهوعليه الصلاة والسلام نذير على الأول بالحاق العذاب الشديد لمن لم يأت بها . وبشير على الثانى بالحاق الثواب العظيم لمن أتى بها .

واعلم أنه صلى الله عليه وسلم ما بعث إلا لهذين الأمرين ، وهو الانذار على فعل مالا ينبغى ، والبشارة على فعل ما ينبغى .

﴿المرتبة الثانية﴾ من الأمور المذكورة فى هذه الآية قوله (وأن استغفروا ربكم)

﴿والمرتبة الثالثة﴾ قوله (ثم توبوا إليه) واختلفوا فى بيان الفرق بين هاتين المرتبتين على وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أن معنى قوله (وأن استغفروا) اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ، ثم بين الشىء الذى يطلب به ذلك وهوالتوبة ، فقال (ثم توبوا اليه) لأن الداعى إلى التوبة والمحرض عليها هو الاستغفار الذى هو عبارة عن طلب المغفرة . وهذا يدل على أنه لاسبيل إلى طلب المغفرة من عند الله إلا باظهار التوبة ، والأمر فى الحقيقة كذلك ، لأن المذنب معرض عن طريق الحق ، والمعرض المتمادى فى التباعد مالم يرجع عن ذلك الاعراض لايمكنه التوجه إلى المقصود بالذات ، فالمقصود بالذات هو التوجه إلى المطلوب إلا أن ذلك لايمكن إلا بالاعراض عما يضاده . فثبت أن الاستغفار مطلوب بالذات ، وأن التوبة مطلوبة لكونها من متممات الاستغفار ، وماكان آخرا فى الحصول كان أولا فى الطلب ، فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة .

﴿الوجه الثانى﴾ فى فائدة هذا الترتيب أن المراد : استغفروا من سالف الذنوب ثم توبوا إليه فى المستأنف .

﴿الوجه الثالث﴾ وأن استغفروا من الشرك والمعاصى ، ثم توبوا من الأعمال الباطلة .

﴿الوجه الرابع﴾ الاستغفار طلب من الله لازالة مالا ينبغى . والتوبة سعى من الانسان فى إزالة مالا ينبغى ، فقدم الاستغفار ليدل على أن المرء يجب أن لا يطلب الشىء إلا من مولاه فانه هو الذى

يقدر على تحصيله ، ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لأنها عمل يأتى به الانسان ويتوسل به إلى دفع المكروه والاستعانة بفضل الله تعالى مقدمة على الاستعانة بسعى النفس .

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه المراتب الثلاثة ذكر بعدها مايترتب عليها من الآثار النافعة والنتائج المطلوبة ، ومن المعلوم أن المطالب محصورة فى نوعين ، لأنه إما أن يكون حصولها فى الدنيا أو فى الآخرة ، أما المنافع الدنيوية : فهى المراد من قوله (يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى) وهذا يدل على أن المقبل على عبادة الله والمشتغل بها يبقى فى الدنيا منتظم الحال مرفه البال ، وفى الآية سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ أليس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» وقال أيضا «خص البلاء بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل» وقال تعالى (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة) فهذه النصوص دالة على أن نصيب المشتغل بالطاعات فى الدنيا هو الشدة والبلية . ومقتضى هذه الآية أن نصيب المشتغل بالطاعات الراحة فى الدنيا فكيف الجمع بينهما ؟

الجواب : من وجوه . الأول : المراد أنه تعالى لايعذبهم بعذاب الاستئصال كما استأصل أهل القرى الذين كفروا . الثانى : أنه تعالى يوصل اليهم الرزق كيف كان ، واليه الاشارة بقوله (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسألك رزقا نحن نرزقك) الثالث : وهو الأقوى عندى أن يقال إن المشتغل بعبادة الله وبمحبة الله مشتغل بحب شىء يمتنع تغيره وزواله وفناؤه . فكل من كان إمعانه فى ذلك الطريق أكثر وتوغله فيه أتم كان انقطاعه عن الخلق أتم وأكمل ، وكلما كان الكمال فى هذا الباب أكثر كان الابتهاج والسرور أتم ، لأنه أمن من تغير مطلوبه . وأمن من زوال محبوبه ، فاما من كان مشتغلا بحب غير الله ، كان أبداً فى ألم الخوف من فوات المحبوب وزواله ، فكان عيشه منغصا وقلبه مضطربا ، ولذلك قال الله تعالى فى صفة المشتغلين بخدمته (فلنحيينه حياة طيبة)

﴿السؤال الثانى﴾ هل يدل قوله (إلى أجل مسمى) على أن للعبد أجلين ، وأنه يقع فى ذلك التقديم والتأخير ؟

والجواب : لا . ومعنى الآية أنه تعالى حكم بأن هذا العبد لو اشتغل بالعبادة لكان أجله فى الوقت الفلانى . ولو أعرض عنها لكان أجله فى وقت آخر ، لكنه تعالى عالم بأنه لو اشتغل بالعبادة أم لا فان أجله ليس إلا فى ذلك الوقت المعين ، فثبت أن لكل إنسان أجلا واحداً فقط .

﴿السؤال الثالث﴾ لم سمى منافع الدنيا بالمتاع ؟

الجواب : لأجل التنبيه على حقارتها وقلتها ، ونبه على كونها منقضية بقوله تعالى (إلى أجل مسمى) فصارت هذه الآية دالة على كونها حقيرة خسيسة منقضية ، ثم لما بين تعالى ذلك قال (ويؤت كل ذى فضل فضله) والمراد منه السعادات الأخروية ، وفيها لطائف وفوائد .

﴿الفائدة الأولى﴾ أن قوله (ويؤت كل ذى فضل فضله) معناه ويؤت كل ذى فضل موجب فضله ومعلوله والأمر كذلك . وذلك لأن الانسان إذا كان فى نهاية البعد عن الاشتغال بغير الله وكان فى غاية الرغبة فى تحصيل أسباب معرفة الله تعالى فحينئذ يصير قلبه فصا لنقش الملكوت ومرآة يتجلى بها قدس اللاهوت ، إلا أن العلائق الجسدانية الظلمانية تكدر تلك الأنوار الروحانية . فاذا زالت هذه العلائق أشرقت تلك الأنوار وتلألأت تلك الأضواء وتوالت موجبات السعادات ، فهذا هو المراد من قوله (ويؤت كل ذى فضل فضله)

﴿الفائدة الثانية﴾ أن هذا تنبيه على أن مراتب السعادات فى الآخرة مختلفة وذلك لأنها مقدرة بمقدار الدرجات الحاصلة فى الدنيا ، فلما كان الاعراض عن غير الحق والاقبال على عبودية الحق درجات غير متناهية ، فكذلك مراتب السعادات الأخروية غير متناهية . فلهذا السبب قال (ويؤت كل ذى فضل فضله)

﴿الفائدة الثالثة﴾ أنه تعالى قال فى منافع الدنيا (يمتعكم متاعا حسنا) وقال فى سعادات الآخرة (ويؤت كل ذى فضل فضله) وذلك يدل على أن جميع خيرات الدنيا والآخرة ليس إلا منه وليس إلا بايجاده وتكوينه وإعطائه وجوده . وكان الشيخ الامام الوالد رحمه الله تعالى يقول : لولا الأسباب لما ارتاب مرتاب . فأكثر الناس عقولهم ضعيفة واشتغال عقولهم بهذه الوسائط الفانية يعميها عن مشاهدة أن الكل منه . فأما الذين توغلوا فى المعارف الالهية وخاضوا فى بحار أنوار الحقيقة علموا أن ماسواه ممكن لذاته موجود بايجاده ، فانقطع نظرهم عما سواه وعلموا أنه سبحانه وتعالى هو الضار والنافع ، والمعطى والمانع .

ثم إنه تعالى لما بين هذه الأحوال قال ﴿وإن تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ والأمر كذلك ، لأن من اشتغل بعبادة غير الله صار فى الدنيا أعمى ، ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، والذى يبين ذلك أن من أقبل على طلب الدنيا ولذاتها وطيباتها قوى حبه لها ومال طبعه إليها وعظمت رغبته فيها . فاذا مات بقى معه ذلك الحب الشديد والميل التام وصار عاجزاً عن الوصول إلى محبوبه ، فحينئذ يعظم البلاء ويتكامل الشقاء ، فهذا القدر المعلوم عندنا من عذاب ذلك اليوم ، وأما تفاصيل تلك الأحوال فهى غائبة عنا مادمنا فى هذه الحياة الدنيوية . ثم

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ «٥»

بين أنه لابد من الرجوع إلى الله تعالى بقوله (إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير)

واعلم أن قوله (إلى الله مرجعكم) فيه دقيقة . وهى : أن هـذا اللفظ يفيد الحصر ، يعنى أن مرجعنا إلى الله لا إلى غيره ، فيدل هذا على أنه لامدبر ولامتصرف هناك إلاهو . والأمر كذلك أيضاً فى هذه الحياة الدنيوية ، إلا أن أقواماً اشتغلوا بالنظر إلى الوسائط فعجزوا عن الوصول إلى مسبب الأسباب . فظنوا أنهم فى دار الدنيا قادرون على شيء ، وأما فى دار الآخرة ، فهذا الحال الفاسد زائل أيضاً ، فلهذا المعنى بين هذا الحصر بقوله (إلى الله مرجعكم)

ثم قال ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ وأقول إن هـذا تهديد عظيم من بعض الوجوه وبشارة عظيمة من سائر الوجوه . أما إنه تهديد عظيم فلأن قوله تعالى (الى الله مرجعكم) يدل على أنه ليس مرجعنا إلا اليه ، وقوله (وهو على كل شيء قدير) يدل على أنه قادر على جميع المقدورات لادافع لقضائه ولامانع لمشيئته والرجوع إلى الحاكم الموصوف بهذه الصفة مع العيوب الكثيرة والذنوب العظيمة مشكل وأما أنه بشارة عظيمة فلأن ذلك يدل على قدرة غالبة وجلالة عظيمة لهذا الحاكم وعلى ضعف تام وعجز عظيم لهذا العبد . والملك القاهر العالى الغالب إذا رأى عاجزاً مشرفا على الهلاك فانه يخلصه من الهلاك ، ومنه المثل المشهور : ملكت فاسجح .

يقول مصنف هذا الكتاب : قد أفنيت عمرى فى خدمة العلم والمطالعة للكتب ولارجاء لى فى شيء إلا أنى فى غاية الذلة والقصور والكريم إذاقدرغفر ، وأسألك ياأكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين وساتر عيوب المعيوبين ومجيب دعوة المضطرين أن تفيض سجال رحمتك على ولدى وفلذة كبدى وأن تخلصنا بالفضل والتجاوز والجود والكرم .

قوله تعالى ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم مايسرون ومايعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾

اعلم أنه تعالى لما قال (وإن تولوا) يعنى عن عبادته وطاعته (فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير) بين بعده أن التولى عن ذلك باطناً كالتولى عنه ظاهراً فقال (ألا إنهم) يعنى الكفار من قوم محمد صلى الله عليه وسلم يثنون صدورهم ليستخفوا منه .

وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ «٦»

واعلم أنه تعالى حكى عن هؤلاء الكفار شيئين : الأول : أنهم يثنون صدورهم يقال : ثنيت الشيء إذا عطفته وطويته . وفى الآية وجهان :

﴿الوجه الأول﴾ روى أن طائفة من المشركين قالوا : إذا أغلقنا أبوابنا وأسلنا ستورنا ، واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد . فكيف يعلم بنا ؟ وعلى هذا التقدير : كان قوله (يثنون صدورهم) كناية عن النفاق ، فكأنه قيل : يضمرون خلاف مايظهرون ليستخفوا من الله تعالى ، ثم نبه بقوله (ألا حين يستغشون ثيابهم) على أنهم يستخفون منه حين يستغشون ثيابهم .

﴿الوجه الثانى﴾ روى أن بعض الكفار كان إذا مر به رسول الله ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه ، والتقدير كأنه قيل : إنهم يتصرفون عنه ليستخفوا منه حين يستغشون ثيابهم ، لئلا يسمعوا كلام رسول الله وما يتلو من القرآن ، وليقولوا فى أنفسهم مايشتهون من الطعن . وقوله (ألا) للتنبيه ، فنبه أولا على أنهم ينصرفوا عنه ليستخفوا ثم كرر كلمة (ألا) للتنبيه على ذكر الاستخفاء لينبه على وقت استخفائهم ، وهو حين يستغشون ثيابهم ،كأنه قيل : ألا إنهم ينصرفون عنه ليستخفوا من الله ، ألا إنهم يستخون حين يستغشون ثيابهم .ثم ذكر أنه لافائدة لهم فى استخفائهم بقوله (يعلم مايسرون وما يعلنون)

قوله تعالى ﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر فى الآية الأولى أنه (يعلم مايسرون وما يعلنون) أردفه بما يدل على كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات ، فثبت أن رزق كل حيوان إنما يصل اليه من الله تعالى ، فلولم يكن عالماً بجميع المعلومات لما حصلت هذه المهمات ، وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال الزجاج : الدابة اسم لكل حيوان ، لأن الدابة اسم مأخوذ من الدبيب ، وبينت هذه اللفظة على هاء التأنيث ، وأطلق على كل حيوان ذى روح ذكرا كان أو أنثى ، إلا أنه بحسب عرف العرب اختص بالفرس ، والمراد بهذا اللفظ فى هذه الآية الموضوع الأصلى اللغوى ، فيدخل فيه جميع الحيوانات ، وهذا متفق عليه بين المفسرين ، ولا شك أن أقسام الحيوانات

وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ

وأنواعها كثيرة ، وهى الأجناس التى تكون فى البر والبحر والجبال ، والله يحصيها دون غيره ، وهو تعالى عالم بكيفية طبائعها وأعضائها وأحوالها وأغذيتها وسمومها ومساكنها ، وما يوافقها وما يخالفها ، فالاله المدبر لاطباق السموات والأرضين ؛ وطبائع الحيوان والنبات ، كيف لا يكون عالماً بأحوالها ؟ روى أن موسى عليه السلام عند نزول الوحى اليه تعلق قلبه بأحوال أهله ، فأمره الله تعالى أن يضرب بعصاه على صخرة فانشقت وخرجت صخرة ثانية ؛ ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت وخرجت صخرة ثالثة ، ثم ضربها بعصاه فانشقت فخرجت منها دودة كالذرة وفى فمها شىء يجرى مجرى الغذاء لها ، ورفع الحجاب عن سمع موسى عليه السلام فسمع الدودة تقول : سبحان من يرانى ، ويسمع كلامى ، ويعرف مكانى ، ويذكرنى ولا ينسانى .

﴿المسألة الثانية﴾ تعلق بعضهم بأنه يجب على الله تعالى بعض الأشياء بهذه الآية وقال : إن كلمة (على) للوجوب ، وهذا يدل على أن إيصال الرزق الى الدابة واجب على الله .

وجوابه : أنه واجب بحسب الوعد والفضل والاحسان ،

﴿المسألة الثالثة﴾ تعلق أصحابنا بهذه الآية فى إثبات أن الرزق قد يكون حراماً ، قالوا لأنه ثبت أن إيصال الرزق الى كل حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد وبحسب الاستحقاق ، والله تعالى لا يخل بالواجب ، ثم قد نرى إنسانا لا يأكل من الحلال طول عمره ، فلو لم يكن الحرام رزقا لكان الله تعالى ما أوصل رزقه إليه ، فيكون تعالى قد أخل بالواجب وذلك محال ، فعلمنا أن الحرام قد يكون رزقا ، وأما قوله (ويعلم مستقرها ومستودعها) فالمستقر هو مكانه من الأرض والمستودع حيث كان مودعاً قبل الاستقرار فى صلب أو رحم أو بيضة ، وقال الفراء : مستقرها حيث تأوى اليه ليلا أونهاراً . ومستودعها موضعها الذى تموت فيه . وقد مضى استقصاء تفسير المستقر والمستودع فى سورة الأنعام ، ثم قال (كل فى كتاب مبين) قال الزجاج : المعنى أن ذلك ثابت فى علم الله تعالى ، ومنهم من قال : فى اللوح المحفوظ ، وقد ذكرنا فائدة ذلك فى قوله (ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين)

قوله تعالى ﴿وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء

الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ «٧»

ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾

واعلم أنه تعالى لما أثبت بالدليل المتقدم كونه عالما بالمعلومات، أثبت بهذا الدليل كونه تعالى قادراً على كل المقدورات وفى الحقيقة فكل واحد من هذين الدليلين يدل على كمال علم الله وعلى كمال قدرته .

واعلم أن قوله تعالى ﴿وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام﴾ قد مضى تفسيره فى سورة يونس على سبيل الاستقصاء . بق ههنا أن نذكر (وكان عرشه على الماء) قال كعب خلق الله تعالى ياقوتة خضراء، ثم نظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد، ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء. قال أبو بكر الأصم : معنى قوله (وكان عرشه على الماء) كقولهم: السماء على الأرض . وليس ذلك على سبيل كون أحدهما ملتصقاً بالآخر وكيف كانت الواقعة فذلك يدل على أن العرش والماء كانا قبل السموات والأرض، وقالت المعتزلة : فى الآية دلالة على وجود الملائكة قبل خلقهما. لأنه لا يجوز أن يخلق ذلك ولا أحد ينتفع بالعرش والماء، لأنه تعالى لما خلقهما فاما أن يكون قد خلقهما لمنفعة أو لا لمنفعة والثانى عبث، فبقى الأول وهو أنه خلقهما لمنفعة، وتلك المنفعة إما أن تكون عائدة إلى الله وهو محال لكونه متعالياً عن النفع والضرر أو إلى الغير فوجب أن يكون ذلك الغير حياً . لأن غير الحى لا ينتفع . وكل من قال بذلك قال ذلك الحى كان من جنس الملائكة، وأما أبو مسلم الأصفهانى فقال معنى قوله (وكان عرشه على الماء) أى بناؤه السموات كان على الماء، وقد مضى تفسير ذلك فى سورة يونس، وبين أنه تعالى إذا بنى السموات على الماء كانت أبدع وأعجب، فان البناء الضعيف إذا لم يؤسس على أرض صلبة لم يثبت، فكيف بهذا الأمر العظيم إذا بسط على الماء؟ وههنا سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ ما الفائدة فى ذكر أن عرشه كان على الماء قبل خلق السموات والأرض ؟

والجواب : فيه دلالة على كمال القدرة من وجوه : الأول : أن العرش مع كونه أعظم من السموات والأرض كان على الماء فلولا أنه تعالى قادر على إمساك الثقيل بغير عمد لما صح ذلك، والثانى : أنه تعالى أمسك الماء لا على قرار وإلا لزم أن يكون أقسام العالم غير متناهية، وذلك يدل على ما ذكرناه . والثالث : أن العرش الذى هو أعظم المخلوقات قد أمسكه الله تعالى فوق سبع

سموات من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه ، وذلك يدل أيضاً على ما ذكرنا .

﴿السؤال الثانى﴾ هل يصح مايروى أنه قيل يارسول الله ، أين كان ربنا قبل خلق السموات والأرض ؟ فقال كان فى عماء فوقه هواء وتحته هواء .

والجواب : أن هذه الرواية ضعيفة ، والأولى أن يكون الخبر المشهور أولى بالقبول وهو قوله صلى الله عليه وسلم كان الله وما كان معه شيء ، ثم كان عرشه على الماء .

﴿السؤال الثالث﴾ اللام فى قوله (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) يقتضى أنه تعالى خلق السموات والأرض لابتلاء المكلف فكيف الحال فيه ؟ والجواب ظاهر هذا الكلام يقتضى أن الله تعالى خلق هذا العالم الكثير لمصلحة المكلفين ، وقد قال بهذا القول طوائف من العقلاء ، ولكل طائفة فيه وجه آخر سوى الوجه الذى قال به الآخرون ، وشرح تلك المقالات لايليق بهذا الكتاب . والذين قالوا إن أفعاله وأحكامه غير معللة بالمصالح قالوا : لام التعليل وردت على ظاهر الأمر ، ومعناه أنه تعالى فعل فعلا لو كان يفعله من تجوز عليه رعاية المصالح لما فعله إلا لهذا الغرض .

﴿السؤال الرابع﴾ الابتلاء إنما يصح على الجاهل بعواقب الأمور وذلك عليه تعالى محال ، فكيف يعقل حصول معنى الابتلاء فى حقه ؟

والجواب : أن هذا الكلام على سبيل الاستقصاء ذكرناه فى تفسير قوله تعالى فى أول سورة البقرة (لعلكم تتقون)

واعلم أنه تعالى لما بين أنه خلق هذا العالم لأجل ابتلاء المكلفين وامتحانهم فهذا يوجب القطع بحصول الحشر والنشر ، لأن الابتلاء والامتحان يوجب تخصيص المحسن بالرحمة والثواب وتخصيص المسيء بالعقاب ، وذلك لايتم إلامع الاعتراف بالمعاد والقيامة . فعندهذا خاطب محمداً عليه الصلاة والسلام وقال (ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلاسحر مبين) ومعناه أنهم ينكرون هذا الكلام ويحكمون بفساد القول بالبعث .

فان قيل : الذى يمكن وصفه بأنه سحر مايكون فعلا مخصوصاً ، وكيف يمكن وصف هذا القول بأنه سحر ؟

قلنا : الجواب عنه من وجوه : الأول : قال القفال : معناه أن هذا القول خديعة منكم وضعتموها لمنع الناس عن لذات الدنيا وإحرازاً لهم إلى الانقياد لكم والدخول تحت طاعتكم . الثانى : أن معنى قوله (إن هذا إلا سحر مبين) هو أن السحر أمر باطل ، قال تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام (ماجئتم به السحر إن الله سيبطله) فقوله (إن هـــذا إلا سحر مبين) أى باطل مبين . الثالث : أن

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ «٨» وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ

القرآن هو الحاكم بحصول البعث وطعنوا فى القرآن بكونه سحراً لأن الطعن فى الأصل يفيد الطعن فى الفرع . الرابع : قرأ حمزة والكسائى (إن هـذا إلا ساحر) يريدون النبى صلى الله عليه وسلم والساحر كاذب .

قوله تعالى ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن مايحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ماكانوا به يستهزؤن﴾

اعلم أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم يكذبون الرسول صلى الله عليه وسلم بقولهم (إن هـذا إلاسحرمبين) فحكى عنهم فى هذه الآية نوعا آخرمن أباطيلهم وهوأنه متى تأخر عنهم العذاب الذى توعدهم الرسول صلى الله عليه وسلم بهأخذوا فى الاستهزاء ويقولون : ما السبب الذى حبسه عنا ؟

فأجاب الله تعالى بأنه إذا جاء الوقت الذى عينه الله لنزول ذلك العذاب الذى كانوا يستهزؤن به لم ينصرف ذلك العذاب عنهم وأحاط بهم ذلك العذاب . بق ههنا سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ المراد من هذا العذاب هو عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة ؟

الجواب : للمفسرين فيه وجوه : الأول : قال الحسن : معنى حكم الله فى هذه الآية أنه لايعذب أحداً منهم بعذاب الاستئصال وأخر ذلك إلى يوم القيامة ، فلما أخر الله عنهم ذلك العذاب قالوا على سبيل الاستهزاء ما الذى حبسه عنا ؟ والثانى : أن المراد الأمر بالجهاد ومانزل بهم يوم بدر ، وعلى هذا الوجه تأولوا قوله (وحاق بهم) أى نزل بهم هذا العذاب يوم بدر .

﴿السؤال الثانى﴾ ماالمراد بقوله (إلى أمة معدودة)

الجواب من وجهين : الأول : أن الأصل فى الأمة هم الناس والفرقة . فاذا قلت : جاءنى أمة من الناس . فالمراد طائفة مجتمعة قال تعالى (وجد عليه أمة من الناس يسقون) وقوله (وادكر بعد أمة) أى بعد انقضاء أمة وفنائها فكذا ههنا قوله (ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة) أى إلىحين تنقضىأمة من الناس ، انقرضت بعد هذا الوعيدبالقول ، لقالوا ماذا يحبسهعنا وقد انقرض من الناس الذين كانوا متوعدين بهذا الوعيد ؟ وتسمية الشىء باسم مايحصل فيه كقولك : كنت عند فلان صلاة العصر ، أى فى ذلك الحين . الثانى : أن اشتقاق الأمة من الأم ، وهوالقصد ، كأنه يعنى الوقت المقصود بايقاع هذا الموعود فيه .

مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ «٩» وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ «١٠» إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ «١١»

﴿السؤال الثالث﴾ لم قال (وحاق) على لفظ الماضي مع أن ذلك لم يقع ؟

والجواب : قد مر في هذا الكتاب آيات كثيرة من هذا الجنس ، والضابط فيها أنه تعالى أخبر عن أحوال القيامة بلفظ الماضي مبالغة في التأكيد والتقرير .

قوله تعالى ﴿ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه ليؤس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور إلا الذين صبروا وعملو الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أن عذاب أولئك الكفار وإن تأخر إلا أنه لابد وأن يحيق بهم ، ذكر بعده مايدل على كفرهم ، وعلى كونهم مستحقين لذلك العذاب . فقال (ولئن أذقنا الانسان) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ لفظ (الانسان) في هذه الآية فيه قولان :

﴿القول الأول﴾ أن المراد منه مطلق الانسان ويدل عليه وجوه : الأول : أنه تعالى استثنى منه قوله (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) والاستثناء يخرج من الكلام مالولاه لدخل ، فثبت أن الانسان المذكور في هذه الآية داخل فيه المؤمن والكافر ، وذلك يدل على ماقلناه . الثاني : أن هذه الآية موافقة على هذا التقرير لقوله تعالى (والعصر إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وموافقة أيضا لقوله تعالى (إن الانسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا) الثالث : أن مزاج الانسان مجبول على الضعف والعجز . قال ابن جريج : في تفسير هذه الآية يا ابن آدم إذا نزلت بك نعمة من الله فأنت كفور ، فاذا نزعت منك فيؤس قنوط .

﴿والقول الثاني﴾ أن المراد منه الكافر ، ويدل عليه وجوه : الأول : أن الأصل في المفرد المحلى بالألف واللام أن يحمل على المعهود السابق لولا المانع ، وههنا لامانع فوجب حمله عليه .

والمعهود السابق هو الكافر المذكور فى الآية المتقدمة . الثانى : أن الصفات المذكورة للانسان فى هذه الآية لاتليق إلابالكافر لأنه وصفه بكونه يؤسا . وذلك من صفات الكافرلقوله تعالى (إنه لاييأس من روح الله إلاالقوم الكافرون) ووصفه أيضاً بكونه كفورا . وهو تصريح بالكفر . ووصفه أيضاً بأنه عند وجدان الراحة يقول : ذهب السيئات عنى . وذلك جراءة على الله تعالى . ووصفه أيضاً بكونه فرحا (والله لايحب الفرحين) ووصفه أيضاً بكونه فخوراً ، وذلك ليس من صفات أهل الدين . ثم قال الناظرون لهذا القول : وجب أن يحمل الاستثناء المذكور فى هذه الآية على الاستثناء المنقطع حتى لاتلزمنا هذه المحذورات .

﴿المسألة الثانية﴾ لفظ الاذاقة والذوق يفيد أقل مايوجد به الطعم ، فكان المراد أن الانسان بوجدان أقل القليل من الخيرات العاجلة يقع فى التمرد والطغيان ، وبادراك أقل القليل من المحنة والبلية يقع فى اليأس والقنوط والكفران . فالدنيا فى نفسها قليلة ، والحاصل منها للانسان الواحد قليل ، والاذاقة من ذلك المقدارخير قليل . ثم إنه فى سرعة الزوال يشبه أحلام النائمين وخيالات الموسوسين . فهذه الاذاقة قليل من قليل ، ومع ذلك فان الانسان لاطاقة له بتحملها ولاصبرله على الاتيان بالطريق الحسن معها . وأما النعماء فقال الواحدى : إنها إنعام يظهرأثره على صاحبه ، والضراء مضرة يظهرأثرها على صاحبها ، لأنها خرجت مخرج الأحوال الظاهرة نحوحمراء وعوراء ، وهذا هو الفرق بين النعمة والنعماء ، والمضرة والضراء .

﴿المسألة الثالثة﴾ اعلم أن أحوال الدنيا غير باقية ، بل هى أبداً فى التغير والزوال . والتحول والانتقال ، إلا أن الضابط فيه أنه إما أن يتحول من النعمة إلى المحنة ، ومن اللذات إلى الآفات ، وإما أن يكون بالعكس من ذلك ، وهو أن ينتقل من المكروه إلى المحبوب ، ومن المحرمات إلى الطيبات .

﴿أما القسم الأول﴾ فهو المراد من قوله (وإذا أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور) وحاصل الكلام أنه تعالى حكم على هذا الانسان بأنه يؤس كفور . وتقريره أن يقال : أنه حال زوال تلك النعمة يصير يؤساً . وذلك لأن الكافر يعتقد أن السبب فى حصول تلك النعمة سبب اتفاقى . ثم إنه يستبعد حدوث ذلك الاتفاق مرة أخرى فلا جرم يستبعد عود تلك النعمة فيقع فى اليأس . وأما المسلم الذى يعتقد أن تلك النعمة إنما حصلت من الله تعالى وفضله وإحسانه وطوله فانه لايحصل له اليأس ، بل يقول لعله تعالى يردها إلى بعد ذلك أكمل وأحسن وأفضل مما كانت ، وأما حال كون تلك النعمة حاصلة فانه يكون كفوراً لأنه لما اعتقد أن

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَايُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ «١٢»

حصولها إنما كان على سبيل الاتفاق أو بسبب أن الانسان حصلها بسبب جده وجهده ، فحينئذ لايشتغل بشكر الله تعالى على تلك النعمة . فالحاصل أن الكافر يكون عند زوال تلك النعمة يؤوساً وعند حصولها يكون كفوراً .

﴿وأما القسم الثانى﴾ وهو أن ينتقل الانسان من المكروه إلى المحبوب ، ومن المحنة إلى النعمة ، فههنا الكافر يكون فرحا فخورا . أما قوة الفرح فلان منتهى طمع الكافر هو الفوز بهذه السعادات الدنيوية وهو منكر للسعادات الأخروية الروحانية ، فاذا وجد الدنيا فكأنه قد فاز بغاية السعادات فلا جرم يعظم فرحه بها ، وأما كونه فخوراً فلأنه لما كان الفوز بسائر المطلوب نهاية السعادة لاجرم يفتخر به ، فحاصل الكلام أنه تعالى بين أن الكافر عند البلاء لا يكون من الصابرين ، وعند الفوز بالنعماء لايكون من الشاكرين . ثم لما قرر ذلك قال (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) والمراد منه ضد ماتقدم فقوله (إلا الذين صبروا) المراد منه أن يكون عند البلاء من الصابرين ، وقوله (وعملوا الصالحات) المراد منه أن يكون عند الراحة والخير من الشاكرين . ثم بين حالهم فقال (أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) فجمع لهم بين هذين المطلوبين . أحدهما : زوال العقاب والخلاص منه وهو المراد من قوله (لهم مغفرة) والثانى : الفوز بالثواب وهو المراد من قوله (وأجر كبير) ومن وقف على هذا التفصيل الذى ذكرناه علم أن هذا الكتاب الكريم كما أنه معجز بحسب ألفاظه فهو أيضا معجز بحسب معانيه .

قوله تعالى ﴿فلعلك تارك بعض مايوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من كلمات الكفار ، والله تعالى بين أن قلب الرسول ضاق بسببه . ثم إنه تعالى قواه وأيده بالاكرام والتأييد ، وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رؤساء مكة قالوا : يامحمد اجعل لنا

جبال مكة ذهبا إن كنت رسولا ، وقال آخرون : ائتنا بالملائكة يشهدون بنبوتك . فقال : لا أقدر على ذلك فنزلت هذه الآية . واختلفوا فى المراد بقوله (تارك بعض مايوحى إليك) قال ابن عباس: رضى الله تعالى عنهما قال المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم «ائتنا بكتاب ليس فيه شتم آلهتنا حتى نتبعك ونؤمن بك ، وقال الحسن : طلبوا منه لا يقول (إن الساعة آتية) وقال بعضهم : المراد نسبتهم إلى الجهل والتقليد والاصرار على الباطل .

﴿المسألة الثانية﴾ أجمع المسلمون على أنه لا يجوز على الرسول عليه الصلاة والسلام أن يخون فى الوحى والتنزيل وأن يترك بعض مايوحى إليه . لأن تجويزه يؤدى إلى الشك فى كل الشرائع والتكاليف وذلك يقدح فى النبوة وأيضا فالمقصود من الرسالة تبليغ تكاليف الله تعالى وأحكامه فاذا لم تحصل هذه الفائدة فقد خرجت الرسالة عن أن تفيد فائدتها المطلوبة منها ، وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من قوله (فلعلك تارك بعض مايوحى إليك) شيئا آخر سوى أنه عليه السلام فعل ذلك وللناس فيه وجوه : الأول : لا يمتنع أن يكون فى معلوم الله تعالى أنه إنما يترك التقصير فى أداء الوحى والتنزيل لسبب يرد عليه من الله تعالى ، أمثال هذه التهيدات . البليغة الثانى : أنهم كانوا لا يعتقدون بالقرآن ويتهاونون به ، فكان يضيق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يلقى إليهم مالا يقبلونه ويضحكون منه ، فهيجه الله تعالى لأداء الرسالة وطرح المبالاة بكلماتهم الفاسدة وترك الالتفات إلى استهزائهم ، والغرض منه التنبيه على أنه إن أدى ذلك الوحى وقع فى سخريتهم وسفاهتهم وإن لم يؤد ذلك الوحى إليهم وقع فى ترك وحى الله تعالى وفى إيقاع الخيانة فيه ، فاذا لابد من تحمل أحد الضررين وتحمل سفاهتهم أسهل من تحمل إيقاع الخيانة فى وحى الله تعالى ، والغرض من ذكر هذا الكلام التنبيه على هذه الدقيقة ، لأن الانسان إذا علم أن كل واحد من طرفى الفعل والترك يشتمل على ضرر عظيم ، ثم علم أن الضرر فى جانب الترك أعظم وأقوى سهل عليه ذلك الفعل وخف ، فالمقصود من ذكر هذا الكلام ماذكرناه .

فان قيل : قوله (فلعلك) كلمة شك فما الفائدة فيها ؟

قلنا : المراد منه الزجر ، والعرب تقول للرجل إذا أرادوا إبعاده عن أمر : لعلك تقدر أن تفعل كذا مع أنه لا شك فيه ، ويقول لولده لو أمره لعلك تقصر فيما أمرتك به . ويريد توكيد الأمر فمعناه لا تترك .

وأما قوله ﴿وضائق به صدرك﴾ فالضائق بمعنى الضيق ، قال الواحدى : الفرق بينهما أن الضائق يكون بضيق عارض غير لازم ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفسح الناس صدرا ، ومثله قولك : زيد سيد جواد تريد السيادة والجود الثابتين المستقرين ، فاذا أردت الحدوث قلت : سائد

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ «١٣»

وجائد ، والمعنى : ضائق صدرك لأجل أن يقولوا (لولا أنزل عليه)

فان قيل : الكنز كيف ينزل ؟

قلنا : المراد ما يكنز وجرت العادة على أنه يسمى المال الكثير بهذا الاسم ، فكأن القوم قالوا : إن كنت صادقا فى أنك رسول الاله الذى تصفه بالقدرة على كل شىء وإنك عزيز عنده فهلا أنزل عليك ماتستغنى به وتغنى أحبابك من الكد والعناء وتستعين به على مهماتك وتعين أنصارك وإن كنت صادقاً فهلا أنزل الله معك ملكا يشهد لك على صدق قولك ويعينك على تحصيل مقصودك فتزول الشبهة فى أمرك ، فلما لم يفعل إلهك ذلك فأنت غير صادق ، فبين تعالى أنه رسول منذر بالعقاب ومبشر بالثواب ولا قدرة له على ايجاد هذه الاشياء . والذى أرسله هو القادر على ذلك فان شاء فعل وإن شاء لم يفعل ولا اعتراض لأحد عليه فى فعله وفى حكمه . ومعنى (وكيل) حفيظ أى يحفظ عليهم أعمالهم ، أى يجازيهم بها ونظير هذه الآية ، قوله تعالى (تبارك الذى إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا) وقوله : (قالوا لن نؤمن لك) إلى قوله (قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا)

قوله تعالى ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾

اعلم أن القوم لما طلبوا منه المعجز قال معجزى هذا القرآن ولما حصل المعجز الواحد كان طلب الزيادة بغياً وجهلا ، ثم قرر كونه معجزاً بأن تحداهم بالمعارضة ، وتقرير هذا الكلام بالاستقصاء قد تقدم فى البقرة وفى سورة يونس وفى الآية مسائل

﴿المسئلة الأولى﴾ الضمير فى قوله (افتراه) عائد إلى ماسبق من قوله (يوحى إليك) أى إن قالوا إن هذا الذى يوحى اليك مفترى فقل لهم حتى يأتوا بعشر سور مثله مفتريات وقوله مثله بمعنى أمثاله حملا على كل واحد من تلك السور ولا يبعد أيضاً أن يكون المراد هو المجموع ، لأن مجموع السور العشرة شىء واحد ،

﴿المسألة الثانية﴾ قال ابن عباس : هذه السورة التى وقع بها هذا التحدى معينة ، وهى سورة

البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والاعراف والأنفال والتوبة ويونس وهود عليهما السلام ، وقوله (فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) إشارة إلى السور المتقدمة على هذه السورة ، وهذا فيه إشكال ، لأن هذه السورة مكية . وبعض السور المتقدمة على هذه السورة مدنية . فكيف يمكن أن يكون المراد من هذه العشر سور التي ما نزلت عند هذا الكلام ، فالأولى أن يقال التحدى وقع بمطلق السور التي يظهر فيها قوة تركيب الكلام وتأليفه .

واعلم أن التحدى بعشر سور لابد وأن يكون سابقا على التحدى بسورة واحدة ، وهو مثل أن يقول الرجل لغيره أكتب عشرة أسطر مثل ما أكتب ، فاذا ظهر عجزه عنه قال : قد اقتصرت منها على سطر واحد مثله .

إذا عرفت هذا فنقول : التحدى بالسورة الواحدة ورد في سورة البقرة ، وفي سورة يونس كما تقدم ، أما تقدم هذه السورة على سورة البقرة فظاهر ، لأن هذه السورة مكية وسورة البقرة مدنية . وأما في سورة يونس فالاشكال زائل أيضا ، لأن كل واحدة من هاتين السورتين مكية ، والدليل الذي ذكرناه يقتضي أن تكون سورة هود متقدمة في النزول على سورة يونس حتى يستقيم الكلام الذي ذكرناه .

﴿المسألة الثالثة﴾ اختلف الناس في الوجه الذي لأجله كان القرآن معجزا ، فقال بعضهم : هو الفصاحة ، وقال بعضهم : هو الأسلوب . وقال ثالث : هو عدم التناقض ، وقال رابع : هو اشتماله على العلوم الكثيرة ، وقال خامس : هو الصرف ، وقال سادس : هو اشتماله على الأخبار عن الغيوب . والمختار عندي وعند الأكثرين أنه معجز بسبب الفصاحة ، واحتجوا على صحة قولهم بهذه الآية لأنه لو كان وجه الاعجاز هو كثرة العلوم أو الاخبار عن الغيوب أو عدم التناقض لم يكن لقوله (مفتريات) معنى أما إذا كان وجه الاعجاز هو الفصاحة صح ذلك لأن فصاحة الفصيح تظهر بالكلام ، سواء كان الكلام صدقا أو كذبا ، وأيضاً لو كان الوجه في كونه معجزاً هو الصرف لكان دلالة الكلام الركيك النازل في الفصاحة على هذا المطلوب أوكد من دلالة الكلام العالي في الفصاحة ثم انه تعالى لما قرر وجه التحدى قال (وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) والمراد إن كنتم صادقين في ادعاء كونه مفترى كما قال (أم يقولون افتراه)

واعلم أن هذا الكلام يدل على أنه لابد في إثبات الدين من تقرير الدلائل والبراهين ، وذلك لأنه تعالى أورد في إثبات نبوة محمد عليه السلام هذا الدليل وهذه الحجة ، ولولا أن الدين لا يتم إلا بالدليل لم يكن في ذكره فائدة .

فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ «١٤»

قوله تعالى ﴿فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾

اعلم أن الآية المتقدمة اشتملت على خطابين : أحدهما : خطاب الرسول ، وهو قوله (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) والثانى : خطاب الكفار وهو قوله (وادعوا من استطعتم من دون الله) فلما أتبعه بقوله (فان لم يستجيبوا لكم) احتمل أن يكون المراد أن الكفار لم يستجيبوا فى المعارضة لتعذرها عليهم ، واحتمل أن من يدعونه من دون الله لم يستجيبوا ، فلهذا السبب اختلف المفسرون على قولين : فبعضهم قال : هذا خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، والمراد أن الكفار إن لم يستجيبوا لكم فى الاتيان بالمعارضة ، فاعلموا أنما أنزل بعلم الله . والمعنى : فاثبتوا على العلم الذى أنتم عليه . وازدادوا يقينا وثبات قدم على أنه منزل من عند الله ، ومعنى قوله (فهل أنتم مسلمون) أى فهل أنتم مخلصون ، ومنهم من قال فيه إضمار ، والتقدير : فقولوا أيها المسلمون للكفار اعلموا أنما أنزل بعلم الله .

﴿والقول الثانى﴾ أن هذا خطاب مع الكفار ، والمعنى أن الذين تدعونهم من دون الله إذا لم يستجيبوا لكم فى الاعانة على المعارضة ، فاعلموا أيها الكفار أن هذا القرآن إنما أنزل بعلم الله فهل أنتم مسلمون بعد لزوم الحجة عليكم ، والقائلون بهذا القول قالوا هذا أولى من القول الأول ، لأنكم فى القول الأول احتجتم إلى أن حملتم قوله (فاعلموا) على الأمر بالثبات أو على إضمار القول . وعلى هذا الاحتمال لا حاجة فيه إلى اضمار ، فكان هذا أولى ، وأيضا فعود الضمير إلى أقرب المذكورين واجب ، وأقرب المذكورين فى هذه الآية هو هذا الاحتمال الثانى ، وأيضا أن الخطاب الأول كان مع الرسول عليه الصلاة والسلام وحده بقوله (قل فأتوا بعشر سور) والخطاب الثانى كان مع جماعة الكفار بقوله (وادعوا من استطعتم من دون الله) وقوله (فان لم يستجيبوا لكم) خطاب مع الجماعة فكان حمله على هذا الذى قلناه أولى . بقى فى الآية سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ ما الشىء الذى لم يستجيبوا فيه ؟

الجواب : المعنى فان لم يستجيبوا لكم فى معارضة القرآن ، وقال بعضهم فان لم يستجيبوا لكم فى جملة الايمان وهو بعيد .

﴿السؤال الثانى﴾ من المشار اليه بقوله (لكم) ؟

والجواب : إن حملنا قوله (فان لم يستجيبوا لكم) على المؤمنين فذلك ظاهر ، وان حملناه على الرسول فعنه جوابان : الأول : المراد فان لم يستجيبوا لك وللمؤمنين . لأن الرسول عليه السلام والمؤمنين كانوا يتحدونهم . وقال فى موضع آخر فان لم يستجيبوا لك فاعلم . والثانى : يجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿السؤال الثالث﴾ أى تعلق بين الشرط المذكور فى هذه الآية وبين ما فيها من الجزاء

والجواب : أن القوم ادعوا كون القرآن مفترى على الله تعالى . فقال : لو كان مفترى على الله لوجب أن يقدر الخلق على مثله ولما لم يقدروا عليه ، ثبت أنه من عند الله ، فقوله (إنما أنزل بعلم الله) كناية عن كونه من عند الله ومن قبله ، كما يقول الحاكم هذا الحكم جرى بعلمى

﴿السؤال الرابع﴾ أى تعلق لقوله (وأن لا إله إلا هو) بعجزهم عن المعارضة

والجواب فيه من وجوه : الأول : أنه تعالى لما أمر محمدا صلى الله عليه وسلم حتى يطلب من الكفار أن يستعينوا بالأصنام فى تحقيق المعارضة ثم ظهر عجزهم عنها فحينئذ ظهر أنها لا تنفع ولا تضر فى شيء من المطالب البتة ، ومتى كان كذلك ، فقد بطل القول باثبات كونهم آلهة . فصار عجز القوم عن المعارضة بعد الاستعانة بالأصنام مبطلا لالهية الأصنام . ودليلا على ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان قوله (وأن لا إله إلا هو) إشارة إلى ما ظهر من فساد القول بآلهية الأصنام : الثانى : أنه ثبت فى علم الأصول أن القول بنفى الشريك عن الله من المسائل التى يمكن اثباتها بقول الرسول عليه السلام ، وعلى هذا فكأنه قيل : لما ثبت عجز الخصوم عن المعارضة ثبت كون القرآن حقاً ، وثبت كون محمد صلى الله عليه وسلم صادقا فى دعوى الرسالة ، ثم إنه كان يخبر عن أنه لا إله إلا الله . فلما ثبت كونه محقاً فى دعوى النبوة ثبت قوله (أن لا إله إلا هو) الثالث : أن ذكر قوله (وأن لا إله إلا هو) جار مجرى التهديد ، كأنه قيل : لما ثبت بهذا الدليل كون محمد عليه السلام صادقا فى دعوى الرسالة وعلمتم أنه لا إله الا الله ، فكونوا خائفين من قهره وعذابه واتركوا الاصرار على الكفر واقبلوا الاسلام ونظيره قوله تعالى فى سورة البقرة عند ذكر آية التحدى (فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)

وأما قوله ﴿فهل أنتم مسلمون﴾

فان قلنا : إنه خطاب مع المؤمنين كان معناه الترغيب فى زيادة الاخلاص . وإن قلنا : إنه خطاب مع الكفار كان معناه الترغيب فى أصل الاسلام .

مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ «١٥» أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ «١٦»

قوله تعالى ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾

اعلم أن الكفار كانوا ينازعون محمدا صلى الله عليه وسلم فى أكثر الأحوال، فكانوا يظهرون من أنفسهم أن محمدا مبطل ونحن محقون، وإنما نبالغ فى منازعته لتحقيق الحق وإبطال الباطل، وكانوا كاذبين فيه. بل كان غرضهم محض الحسد والاستنكاف من المتابعة، فأنزل الله تعالى هذه الآية لتقرير هذا المعنى. ونظير هذه الآية قوله تعالى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد) وقوله (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب) وفى الآية مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن فى الآية قولين:

﴿القول الأول﴾ أنها مختصة بالكفار، لأن قوله (من كان يريد الحياة الدنيا) يندرج فيه المؤمن والكافر والصديق والزنديق، لأن كل أحد يريد التمتع بلذات الدنيا وطيباتها والانتفاع بخيراتها وشهواتها. إلا أن آخر الآية يدل على أن المراد من هذا العام الخاص وهو الكافر، لأن قوله تعالى (أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) لا يليق إلا بالكفار، فصار تقدير الاية: من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فقط، أى تكون إرادته مقصورة على حب الدنيا وزينتها ولم يكن طالباً لسعادات الآخرة، كان حكمه كذا وكذا، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فيه، فمنهم من قال: المراد منهم منكرو البعث فانهم ينكرون الآخرة ولا يرغبون إلا فى سعادات الدنيا. وهذا قول الأصم وكلامه ظاهر.

﴿والقول الثانى﴾ أن الآية نزلت فى المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع الرسول عليه السلام الغنائم من دون أن يؤمنوا بالآخرة وثوابها.

﴿والقول الثالث﴾ أن المراد: اليهود والنصارى؛ وهو منقول عن أنس.

﴿والقول الرابع﴾ وهو الذى اختاره القاضى أن المراد: من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا

وزينتها. وعمل الخير قسمان: العبادات، وإيصال المنفعة الى الحيوان. ويدخل فى هذا القسم الثانى البر وصلة الرحم والصدقة وبناء القناطر وتسوية الطرق والسعى فى دفع الشرور وإجراء الأنهار. فهذه الأشياء اذا أتى بها الكافر لأجل الثناء فى الدنيا، فان بسببها تصل الخيرات والمنافع الى المحتاجين. فكلها تكون من أعمال الخير. فلا جرم هذه الأعمال تكون طاعات سواء صدرت من الكافر أو المسلم. وأما العبادات: فهى إنما تكون طاعات بنيات مخصوصة. فاذا لم يؤت بتلك النية، وإنما أتى فاعلها بها على طلب زينة الدنيا، وتحصيل الرياء والسمعة فيها صار وجودها كعدمها فلا تكون من باب الطاعات.

واذا عرفت هذا فنقول: قوله (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) المراد منه الطاعات التى يصح صدورها من الكافر.

﴿القول الثانى﴾ وهو أن تجرى الآية على ظاهرها فى العموم، ونقول: إنه يندرج فيه المؤمن الذى يأتى بالطاعات على سبيل الرياء والسمعة، ويندرج فيه الكافر الذى هذا صفته. وهذا القول مشكل، لأن قوله (أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار) لا يليق المؤمن. إلا إذا قلنا: المراد (أولئك الذين ليس فى الآخرة إلا النار) بسبب هذه الأعمال الفاسدة والأفعال الباطلة المقرونة بالرياء، ثم القائلون بهذا القول ذكروا أخباراً كثيرة فى هذا الباب. روى أن الرسول عليه السلام قال «تعوذوا بالله من جب الحزن قيل وما جب الحزن؟ قال عليه الصلاة والسلام «واد فى جهنم يلقى فيه القراء المراؤن» وقال عليه الصلاة والسلام «أشد الناس عذاباً يوم القيامة من يرى الناس أن فيه خيراً ولا خير فيه» وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «إذا كان يوم القيامة يدعى برجل جمع القرآن. فيقال له ماعملت فيه؟ فيقول يارب قمت به آناء الليل والنهار فيقول الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال: فلان قارئ، وقد قيل ذلك. ويؤت بصاحب المال فيقول الله له ألم أوسع عليك فماذا عملت فيما آتيتك فيقول: وصلت الرحم وتصدقت، فيقول الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد، وقد قيل ذلك ويؤتى بمن قتل فى سبيل الله فيقول قاتلت فى الجهاد حتى قتلت فيقول الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان جرىء» وقد قيل ذلك قال أبو هريرة رضى الله عنه ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ركبتى وقال ياأباهريرة أولئك الثلاثة أول خلق تسعر بهم النار يوم القيامة وروى أن أباهريرة رضى الله عنه ذكر هذا الحديث عند معاوية قال الراوى فبكى حتى ظننا أنه هالك ثم أفاق وقال صدق الله ورسوله (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها)

أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ «١٧»

﴿المسألة الثانية﴾ المراد من توفية أجور تلك الأعمال هو أن كل مايستحقون بها من الثواب فانه يصل اليهم حال كونهم فى دار الدنيا ، فاذا خرجوا من الدنيا لم يبق معهم من تلك الأعمال أثر من آثار الخيرات ، بل ليس لهم منها إلا النار .

واعلم أن العقل يدل عليه قطعا ، وذلك لأن من أتى بالأعمال لأجل طلب الثناء فى الدنيا ، ولأجل الرياء ، فذلك لأجل أنه غلب على قلبه حب الدنيا ، ولم يحصل فى قلبه حب الاخرة ، اذ لو عرف حقيقة الآخرة وما فيها من السعادات لامتنع أن يأتى بالخيرات لأجل الدنيا وينسى أمر الآخرة ، فثبت أن الآتى بأعمال البر لأجل الدنيا لابد وأن يكون عظيم الرغبة فى الدنيا عديم الطلب للآخرة ومن كان كذلك فاذا مات فانه يفوته جميع منافع الدنيا ويبقى عاجزاً عن وجدانها غير قادر على تحصيلها ، ومن أحب شيئا ثم حيل بينه وبين المطلوب فانه لابد وأن تشتعل فى قلبه نيران الحسرات فثبت بهذا البرهان العقلى ، أن كل من أتى بعمل من الأعمال لطلب الاحوال الدنيوية فانه يجد تلك المنفعة الدنيوية اللائقة بذلك العمل ، ثم اذا مات فانه لايحصل له منه إلا النار ويصير ذلك العمل فى الدار الآخرة محبطا باطلا عديم الأثر .

قوله تعالى ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده فلاتك فى مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لايؤمنون﴾

اعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها ظاهر ، والتقدير : أفمن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم فى الآخرة إلا النار ، إلا أنه حذف الجواب لظهوره ومثله فى القرآن كثير كقوله تعالى (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء) وقوله (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما) وقوله (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون)

واعلم أن أول هذه الآية مشتمل على ألفاظ أربعة كل واحد مجمل . فالأول : أن هذا الذى

وصفه الله تعالى بأنه على بينة من ربه من هو . والثانى : أنه ماالمراد بهذه البينة . والثالث : أن المراد بقوله (يتلوه) القرآن أو كونه حاصلا عقيب غيره . والرابع : أن هـذا الشاهد ما هو ؟ فهذه الألفاظ الأربعة مجملة . فلهذا كثر اختلاف المفسرين فى هذه الآية .

﴿أما الأول﴾ وهوأن هذا الذى وصفه الله تعالى بأنه على بينة من ربه من هو ؟ فقيل : المراد به النبي عليه الصلاة والسلام ، وقيل : المراد به من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره ، وهو الأظهر لقوله تعالى فى آخر الآية (أولئك يؤمنون به) وهذا صيغة جمع . فلا يجوز رجوعه إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالبينة هو البيان والبرهان الذى عرف به صحة الدين الحق والضمير فى (يتلوه) يرجع إلى معنى البينة ، وهو البيان والبرهان والمراد بالشاهد هو القرآن ، ومنه أى من الله ومن قبله كتاب موسى . أى ويتلو ذلك البرهان من قبل مجىء القرآن كتاب موسى .

واعلم أن كون كتاب موسى تابعاً للقرآن ليس فى الوجود بل فى دلالته على هـذا المطلوب و(إماما) نصب على الحال . فالحاصل أنه يقول اجتمع فى تقرير صحة هذا الدين أمور ثلاثة : أولها : دلالة البينات العقلية على صحته . وثانيها : شهادة القرآن بصحته . وثالثها : شهادة التوراة بصحته ، فعند اجتماع هـذه الثلاثة لايبقى فى صحته شك ولا ارتياب . فهذا القول أحسن الأقاويل فى هذه الآية وأقربها إلى مطابقة اللفظ وفيها أقوال أخر .

﴿فالقول الأول﴾ إن الذى وصفه الله تعالى بأنه على بينة من ربه هو محمد عليه السلام والبينة هو القرآن . والمراد بقوله (يتلوه) هو التلاوة بمعنى القراءة وعلى هذا التقدير فذكروا فى تفسير الشاهد وجوها : أحدها : أنه جبريل عليه السلام ، والمعنى : أن جبريل عليه السلام يقرأ القرآن على محمد عليه السلام . وثانيها : أن ذلك الشاهد هو لسان محمد عليه السلام وهو قول الحسن ، ورواية عن محمد بن الحنفية عن على رضى الله عنهما قال : قلت لأبى أنت التالى قال : وما معنى التالى قلت قوله (ويتلوه شاهد منـه) قال وددت أنى هو ولكنه لسان رسول الله صلى الله عليـه وسلم ولما كان الانسان إنمـا يقرأ القرآن ويتلوه بلسانه لاجرم جعل اللسان تاليا على سبيل المجاز كما يقال : عين باصرة وأذن سامعة ولسان ناطق . وثالثها : أن المراد هو على بن أبى طالب رضى الله عنه ، والمعنى أنه يتلو تلك البينة وقوله (منه) أى هـذا الشاهد من محمد وبعض منه ، والمراد منه تشريف هـذا الشاهد بأنه بعض من محمد عليـه السلام . ورابعها : أن لايكون المراد بقوله (ويتلوه) القرآن بل حصول هـذا الشاهد عقيب تلك البينة ، وعلى هذا الوجه قالوا إن المراد : أن صورة النبى عليـه السلام ووجهه ومخايله كل ذلك يشهد بصدقه ، لأن من نظر إليه بعقله علم أنه ليس بمجنون

ولا كاهن ، ولا ساحر ، ولا كذاب . والمراد بكون هذا الشاهد منه كون هذه الأحوال متعلقة بذات النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿القول الثاني﴾ أن الذي وصفه الله تعالى بأنه على بينة هم المؤمنون وهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالبينة القرآن (ويتلوه) أي ويتلو الكتاب الذي هو الحجة يعني ويعقبه شاهد من الله تعالى ، وعلى هذا القول اختلفوا في ذلك الشاهد . فقال بعضهم : إنه محمد عليه السلام ، وقال آخرون : بل ذلك الشاهد هو كون القرآن واقعاً على وجه يعرف كل من نظر فيه أنه معجزة وذلك الوجه هو اشتماله على الفصاحة التامة والبلاغة الكاملة وكونه بحيث لا يقدر البشر على الاتيان بمثله ، وقوله (شاهد منه) أي من تلك البينة لأن أحوال القرآن وصفاته من القرآآت متعلقة به . وثالثها : قال الفراء : (ويتلوه شاهد منه) يعني الانجيل يتلو القرآن وإن كان قد أنزل قبله ، والمعنى : أنه يتلوه في التصديق ، وتقريره : أنه تعالى ذكر محمداً صلى الله عليه وسلم في الانجيل ، وأمر بالايمان به .

واعلم أن هذين القولين وإن كانا محتملين إلا أن القول الأول أقوى وأتم .

واعلم أنه تعالى وصف كتاب موسى عليه السلام بكونه إماماً ورحمة ، ومعنى كونه إماما أنه كان مقتدى العالمين ، وإماما لهم يرجعون اليه في معرفة الدين والشرائع ، وأما كونه رحمة فلأنه يهدي الى الحق في الدنيا والدين ، وذلك سبب لحصول الرحمة والثواب . فلما كان سبباً للرحمة أطلق اسم الرحمة عليه اطلاقا لاسم المسبب على السبب .

ثم قال تعالى ﴿أولئك يؤمنون به﴾ والمعنى : أن الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم في صحة هذا الدين يؤمنون .

واعلم أن المطالب على قسمين : منها مايعلم صحتها بالبديهة ، ومنها مايحتاج في تحصيل العلم بها الى طلب واجتهاد ، وهذا القسم الثاني على قسمين ، لأن طريق تحصيل المعارف اما الحجة والبرهان المستنبط بالعقل وأما الاستفادة من الوحي والالهام ، فهذان الطريقان هما الطريقان اللذان يمكن الرجوع اليهما في تعريف المجهولات ، فاذا اجتمعا واعتضد كل واحد منهما بالآخر بلغا الغاية في القوة والوثوق ، ثم إن في أنبياء الله تعالى كثرة ، فاذا توافقت كلمات الأنبياء على صحته ، وكان البرهان اليقيني قائماً على صحته ، فهذه المرتبة قد بلغت في القوة الى حيث لا يمكن الزيادة فقوله (أفمن كان على بينة من ربه) المراد بالبينة الدلائل العقلية اليقينية ، وقوله (ويتلوه شاهد منه) اشارة الى الوحي الذي حصل لمحمد عليه السلام ، وقوله (ومن قبله كتاب موسى اماماً ورحمة)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ «١٨» الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ «١٩»

اشارة الى الوحى الذى حصل لموسى عليه السلام ، وعند اجتماع هذه الثلاثة قد بلغ هـذا اليقين فى القوة والظهور والجلاء الى حيث لا يمكن الزيادة عليه .

ثم قال تعالى ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ والمراد من الأحزاب أصناف الكفار ، فيدخل فيهم اليهود والنصارى والمجوس . روى سعيد بن جبير عن أبى موسى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لا يسمع بى يهودى ولا نصرانى فلا يؤمن بى إلا كان من أهل النار» قال أبو موسى : فقلت فى نفسى إن النبى صلى الله عليه وسلم لا يقول مثل هذا إلا عن القرآن ، فوجدت الله تعالى يقول (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) وقال بعضهم : لما دلت الآية على أن من يكفر به فالنار موعده ، دلت على أن من لا يكفر به لم تكن النار موعده .

ثم قال تعالى ﴿فلا تك فى مرية منه إنه الحق من ربك﴾ ففيه قولان : الأول : فلا تك فى مرية من صحة هـذا الدين ، ومن كون القرآن نازلا من عند الله تعالى . فكان متعلقا بما تقدم من قوله تعالى (أم يقولون افتراه) الثانى : فلا تك فى مرية من أن موعد الكافر النار . وقرئ (مرية) بضم الميم .

ثم قال ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ والتقدير : لما ظهر الحق ظهوراً فى الغاية ، فكن أنت متابعاً له ولا تبال بالجهال سواء آمنوا أولم يؤمنوا ، والأقرب أن يكون المراد لا يؤمنون بما تقدم ذكره من وصف القرآن .

قوله تعالى ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون﴾

اعلم أن الكفار كانت لهم عادات كثيرة وطرق مختلفة . فمنها شدة حرصهم على الدنيا ، ورغبتهم فى تحصيلها ، وقد أبطل الله هذه الطريقة بقوله (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) الى آخر الآية

ومنها أنهم كانوا ينكرون نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم . ويقدحون فى معجزاته ، وقد أبطل الله تعالى ذلك بقوله (أفمن كان على بينة من ربه) ومنها أنهم كانوا يزعمون فى الأصنام أنها شفعاؤهم عند الله ، وقد أبطل الله تعالى ذلك بهذه الآية ، وذلك لأن هذا الكلام افتراء على الله تعالى ، فلما بين وعيد المفترين على الله ، فقد دخل فيه هذا الكلام .

واعلم أن قوله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) إنما يورد فى معرض المبالغة . وفيه دلالة على أن الافتراء على الله تعالى أعظم أنواع الظلم .

ثم إنه تعالى بين وعيد هؤلاء بقوله ﴿أولئك يعرضون على ربهم﴾ وما وصفهم بذلك لأنهم مختصون بذلك العرض ، لأن العرض عام فى كل العباد كما قال (وعرضوا على ربك صفا) وإنما أراد به أنهم يعرضون فيفتضحون بأن يقول الأشهاد عند عرضهم (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) فحصل لهم من الخزى والنكال مالامزيد عليه ، وفيه سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ إذا لم يجز أن يكون الله تعالى فى مكان . فكيف قال (يعرضون على ربهم) والجواب : أنهم يعرضون على الأماكن المعدة للحساب والسؤال ، ويجوز أيضاً أن يكون ذلك عرضاً على من شاء الله من الخلق بأمر الله من الملائكة والأنبياء والمؤمنين .

﴿السؤال الثانى﴾ من الأشهاد الذين أضيف اليهم هذا القول ؟

الجواب : قال مجاهد : هم الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم فى الدنيا . وقال قتادة ومقاتل (الأشهاد) الناس كما يقال على رؤس الأشهاد ، يعنى على رؤس الناس . وقال الآخرون : هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . قال الله تعالى (فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين) والفائدة فى اعتبار قول الأشهاد المبالغة فى إظهار الفضيحة .

﴿السؤال الثالث﴾ الأشهاد جمع فما واحده ؟

والجواب : يجوز أن يكون جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب ، وناصر وأنصار ، ويجوز أن يكون جمع شهيد مثل شريف وأشراف . قال أبو على الفارسى : وهذا كأنه أرجح ، لأن ماجاء من ذلك فى التنزيل جاء على فعيل ، كقوله (ويكون الرسول عليكم شهيداً . وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) ثم لما أخبر عن حالهم فى عذاب القيامة أخبر عن حالهم فى الحال فقال (ألا لعنة الله على الظالمين) وبين أنهم فى الحال لملعونون من عند الله ، ثم ذكر من صفاتهم أنهم يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا يعنى أنهم كما ظلموا أنفسهم بالتزام الكفر والضلال ، فقد أضافوا إليه المنع من الدين الحق ، وإلقاء الشبهات ، وتعويج الدلائل المستقيمة ، لأنه لا يقال فى العاصي : يبغى

أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ «٢٠» أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ «٢١» لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ «٢٢»

عوجا ، وإنما يقال ذلك فيمن يعرف كيفية الاستقامة ، وكيفية العوج بسبب إلقاء الشبهات ، وتقرير الضلالات .

ثم قال ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ قال الزجاج : كلمة «هم» كررت على جهة التوكيد لثبتهم فى الكفر .

قوله عز وجل ﴿أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ماكانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون لاجرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون﴾

اعلم أن الله تعالى وصف هؤلاء المنكرين الجاحدين بصفات كثيرة فى معرض الذم .

﴿الصفة الأولى﴾ كونهم مفترين على الله ، وهى قوله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً)

﴿والصفة الثانية﴾ أنهم يعرضون على الله فى موقف الذل والهوان والخزى والنكال . وهى قوله (أولئك يعرضون على ربهم)

﴿والصفة الثالثة﴾ حصول الخزى والنكال والفضيحة العظيمة ، وهى قوله (ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم)

﴿والصفة الرابعة﴾ كونهم ملعونين من عند الله ، وهى قوله (ألا لعنة الله على الظالمين)

﴿والصفة الخامسة﴾ كونهم صادين عن سبيل الله مانعين عن متابعة الحق . وهى قوله (الذين يصدون عن سبيل الله)

﴿والصفة السادسة﴾ سعيهم فى إلقاء الشبهات ، وتعويج الدلائل المستقيمة ، وهى قوله (ويبغونها عوجا)

﴿والصفة السابعة﴾ كونهم كافرين ، وهى قوله (وهم بالآخرة هم كافرون)

﴿والصفة الثامنة﴾ كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب الله ، وهى قوله (أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض) قال الواحدى : معنى الاعجاز المنع من تحصيل المراد . يقال أعجزنى فلان أى منعنى عن مرادى ، ومعنى معجزين فى الأرض أى لا يمكنهم أن يهربوا من عذابنا فان هرب العبد من عذاب الله محال ، لأنه سبحانه وتعالى قادر على جميع الممكنات ، ولا تتفاوت قدرته بالبعد والقرب والقوة والضعف .

﴿والصفة التاسعة﴾ أنهم ليس لهم أولياء يدفعون عذاب الله عنهم ، والمراد منه الرد عليهم فى وصفهم الأصنام بأنها شفعاؤهم عند الله والمقصود أن قوله (أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض) دل على أنهم لا قدرة لهم على الفرار وقوله (وماكان لهم من دون الله من أولياء) هو أن أحداً لا يقدر على تخليصهم من ذلك العذاب ، فجمع تعالى بين ما يرجع إليهم وبين ما يرجع إلى غيرهم وبين بذلك انقطاع حيلهم فى الخلاص من عذاب الدنيا والآخرة ، ثم اختلفوا فقال قوم المراد إن عدم نزول العذاب ليس لأجل أنهم قدروا على منع الله من إنزال العذاب ولا لأجل أن لهم ناصراً يمنع ذلك العذاب عنهم ، بل إنما حصل ذلك الامهال لأنه تعالى أمهلهم كى يتوبوا فيزولوا عن كفرهم فاذا أبوا إلا الثبات عليه فلابد من مضاعفة العذاب فى الآخرة ، وقال بعضهم : بل المراد أن يكونوا معجزين لله عما يريد إنزاله عليهم من العذاب فى الآخرة أو فى الدنيا ولا يجدون ولياً ينصرهم ويدفع ذلك عنهم .

﴿والصفة العاشرة﴾ قوله تعالى (يضاعف لهم العذاب) قيل سبب تضعيف العذاب فى حقهم أنهم كفروا بالله وبالبعث وبالنشور ، فكفرهم بالمبدأ والمعاد صار سبباً لتضعيف العذاب ، والأصوب أن يقال إنهم مع ضلالهم الشديد ، سعوا فى الاضلال ومنع الناس عن الدين الحق . فلهذا المعنى حصل هذا التضعيف عليهم .

﴿الصفة الحادية عشرة﴾ قوله (ماكانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) والمراد ما هم عليه فى الدنيا من صمم القلب وعمى النفس ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى قد يخلق فى المكلف ما يمنعه الايمان ، روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال إنه تعالى منع الكافر من الايمان فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا ففى قوله تعالى (ماكانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) وأما فى الآخرة فهو قوله (يدعون إلى السجود فلا يستطيعون) وحاصل الكلام فى هذا الاستدلال أنه تعالى أخبر عنهم أنهم لا يستطيعون السمع ، فاما أن يكون المراد أنهم ماكانوا يستطيعون سمع الأصوات والحروف ، وإما أن يكون المراد

كونهم عاجزين عن الوقوف على دلائل الله تعالى. والقول الأول باطل لأن البديهة دلت على أنهم كانوا يسمعون الأصوات والحروف، فوجب حمل اللفظ على الثانى أجاب الجبائى عنه بأن السمع إما أن يكون عبارة عن الحاسة المخصوصة، أو عن معنى يخلقه الله تعالى فى صماخ الأذن. وكلاهما لايقدر العبد عليه. لأنه لو اجتهد فى أن يفعل ذلك أو يتركه لتعذر عليه. وإذا ثبت هذا كان إثبات الاستطاعة فيه محالا، وإذا كان اثباتها محالا كان نفى الاستطاعة عنه هو الحق. فثبت أن ظاهر الآية لايقدح فى قولنا. ثم قال المراد بقوله (ماكانوا يستطيعون السمع) إهمالهم له ونفورهم عنه كما يقول القائل: هذا كلام لاأستطيع أن أسمعه، وهذا مما يمجه سمعى وذكر غير الجبائى عذراً آخر. فقال إنه تعالى نفى أن يكون لهم أولياء والمراد الأصنام ثم بين نفى كونهم أولياء بقوله (ماكانوا يستطيعون السمع وماكانوا يبصرون) فكيف يصلحون للولاية.

والجواب: أما حمل الآية على أنه لاقدرة لهم على خلق الحاسة وعلى خلق المعنى فيها فباطل. لأن هذه الآية وردت فى معرض الوعيد فلابد وأن يكون ذلك معنى مختصاً بهم. والمعنى الذى قالوه حاصل فى الملائكة والأنبياء فكيف يمكن حمل اللفظ عليه، وأما قوله إن ذلك محمول على أنهم كانوا يستثقلون سماع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وإبصار صورته.

فالجواب أنه تعالى نفى الاستطاعة فحمله على معنى آخر خلاف الظاهر، وأيضاً أن حصول ذلك الاستثقال إما أن يمنع من الفهم والوصول إلى الغرض أو لم يمنع. فان منع فهو المقصود، وإن لم يمنع منه فحينئذ كان ذلك سبباً أجنبياً عن المعانى المعتبرة فى الفهم والادراك، ولا تختلف أحوال القلب فى العلم والمعرفة بسببه. فكيف يمكن جعله ذماً لهم فى هذا المعرض، وأيضاً قد بينا مراراً كثيرة فى هذا الكتاب أن حصول الفعل مع قيام الصارف محال. فلما بين تعالى كون هذا المعنى صارفاً عن قبول الدين الحق وبين فيه أنه حصل حصولا على سبيل اللزوم بحيث لايزول البتة فى ذلك الوقت كان المكلف فى ذلك الوقت ممنوعاً عن الايمان. وحينئذ يحصل المطلوب، وأما قوله فانا نجعل هذه الصفة من صفة الأوثان فبعيد لأنه تعالى قال (يضاعف لهم العذاب) ثم قال (ماكانوا يستطيعون السمع) فوجب أن يكون الضمير فى هذه الآية المتأخرة عائدا إلى عين ماعاد اليه الضمير المذكور فى هذه الآية الأولى. وأما قوله (وما كانوا يبصرون) فقيل: المراد منه البصيرة. وقيل: المراد منه أنهم عدلوا عن إبصار مايكون حجة لهم.

﴿الصفة الثانية عشرة﴾ قوله (أولئك الذين خسروا أنفسهم) ومعناه أنهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى فكان هذا الخسران أعظم وجوه الخسران.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ «٢٣»

﴿الصفة الثالثة عشرة﴾ قوله (وضل عنهم ماكانوا يفترون) والمعنى أنهم لما باعوا الدين بالدنيا فقد خسروا ، لأنهم أعطوا الشريف ، ورضوا بأخذ الخسيس ، وهذا عين الخسران فى الدنيا ثم فى الاخرة فهذا الخسيس يضيع ويهلك ولا يبقى منه أثر ، وهو المراد بقوله (وضل عنهم ماكانوا يفترون)

﴿الصفة الرابعة عشرة﴾ قوله (لاجرم أنهم فى الاخرة هم الأخسرون) وتقريره ماتقدم ، وهو أنه لما أعطى الشريف الرفيع ورضى بالخسيس الوضيع فقد خسر فى التجارة . ثم لما كان هذا الخسيس بحيث لايبقى بل لابد وأن يهلك ويفنى انقلبت تلك التجارة إلى النهاية فى صفة الخسارة ، فلهذا قال (لاجرم أنهم فى الاخرة هم الأخسرون) وقوله (لاجرم) قال الفراء : إنها بمنزلة قولنا لابد ولامحالة ، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقاً ، تقول العرب : لاجرم أنك محسن ، على معنى حقاً إنك محسن ، وأما النحويون فلهم فيه وجوه : الأول : لاحرف نفى وجرم ، أى قطع ، فاذا قلنا : لاجرم معناه أنه لاقطع قاطع عنهم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون . الثانى : قال الزجاج إن كلمة (لا) نفى لما ظنوا أنه ينفعهم ، و(جرم) معناه كسب ذلك الفعل ، والمعنى : لاينفعهم ذلك وكسب ذلك الفعل لهم الخسران فى الدنيا والآخرة ، وذكرنا (جرم) بمعنى كسب فى تفسير قوله تعالى (لايجرمنكم شنآن قوم) قال الأزهرى . وهذا من أحسن ما قيل فى هذا الباب . الثالث : قال سيبويه والأخفش : لارد على أهل الكفر كما ذكرنا . وجرم معناه حق وصحح ، والتأويل أنه حق كفرهم وقوع العذاب والخسران بهم . واحتج سيبويه بقول الشاعر :

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة   جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

أراد حقت الطعنة فزارة أن يغضبوا

قوله تعالى ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر عقوبة الكافرين وخسرانهم . أتبعه بذكر أحوال المؤمنين ، والاخبات هو الخشوع والخضوع وهو مأخوذ من الخبت وهو الأرض المطمئنة . وخبت ذكره ، أى خفى .

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ «٢٤»

فقوله «أخبت» أى دخل فى الخبت، كما يقال فيمن صار إلى نجد أنجد وإلى تهامة أتهم ، ومنه المخبت من الناس الذى أخبت إلى ربه أى اطمأن اليه ، ولفظ الاخبات يتعدى بالى وباللام ، فاذا قلنا : أخبت فلان إلى كذا فمعناه اطمأن إليه ، وإذا قلنا أخبت له فمعناه خشع له .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) إشارة إلى جميع الأعمال الصالحة ، وقوله (وأخبتوا) إشارة إلى أن هذه الأعمال لاتنفع فى الآخرة إلا مع الأحوال القلبية ثم إن فسرنا الاخبات بالطمأنينة كان المراد أنهم يعبدون الله وكانت قلوبهم عند أداء العبادات مطمئنة بذكر الله فارغة عن الالتفات إلى ما سوى الله تعالى . أو يقال إنما قلوبهم صارت مطمئنة إلى صدق الله بكل ما وعدهم من الثواب والعقاب . وأما إن فسرنا الاخبات بالخشوع كان معناه أنهم يأتون بالأعمال الصالحة خائفين وجلين من أن يكونوا أتوا بها مع وجود الاخلال والتقصير ، ثم بين أن من حصل له هذه الصفات الثلاثة فهم أصحاب الجنة . ويحصل لهم الخلود فى الجنة .

قوله تعالى ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون﴾ واعلم أنه تعالى لما ذكر الفريقين ذكر فيهما مثالا مطابقا ثم اختلفوا . فقيل : إنه راجع إلى من ذكر آخراً من المؤمنين والكافرين من قبل ، وقال آخرون : بل رجع إلى قوله (أفمن كان على بينة من ربه) ثم ذكر من بعده الكافرين ووصفهم بأنهم لايستطيعون السمع ولا يبصرون ، والسميع والبصير هم الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم .

واعلم أن وجه التشبيه هو أنه سبحانه خلق الانسان مركبا من الجسد ومن النفس ، وكما أن للجسد بصرا وسمعا فكذلك حصل لجوهر الروح سمع وبصر ، وكما أن الجسد إذا كان أعمى أصم بقى متحيراً لايهتدى إلى شىء من المصالح . بل يكون كالتائه فى حضيض الظلمات لا يبصر نوراً يهتدى به ولا يسمع صوتا ، فكذلك الجاهل الضال المضل ، يكون أعمى وأصم القلب ، فيبقى فى ظلمات الضلالات حائرا تائها .

ثم قال تعالى ﴿أفلا تذكرون﴾ منبها على أنه يمكنه علاج هذا العمى وهذا الصمم . وإذا كان

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ «٢٥» أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ «٢٦»

العلاج ممكنا من الضرر الحاصل بسبب حصول هذا العمى وهذا الصمم . وجب على العاقل أن يسعى فى ذلك العلاج بقدر الامكان .

واعلم أنه قد جرت العادة بأنه تعالى إذا ورد على الكافر أنواع الدلائل أتبعها بالقصص ، ليصير ذكرها مؤكدا لتلك الدلائل على ما قررنا هـذا المعنى فى مواضع كثيرة ، وفى هذه السورة ذكر أنواعا من القصص .

القصة الأولى

قصة نوح عليه السلام

قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومـه إنى لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾

اعلم أنه تعالى قد بدأ بذكر هذه القصة فى سورة يونس وقد أعادها فى هذه السورة أيضا لما فيها من زوائد الفوائد وبدائع الحكم ، وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى (أنى) بفتح الهمزة ، والمعنى : أرسلنا نوحا بأنى لكم نذير مبين ، ومعناه أرسلناه ملتبسا بهـذا الكلام وهو قوله (أنى لكم نذير مبين) فلما اتصل به حرف الجر وهو الباء فتح كما فتح فى كان ، وأما سائر القراء فقرؤا (إنى) بالكسر على معنى قال (إنى لكم نذير مبين)

﴿المسألة الثانية﴾ قال بعضهم : المراد من النذير كونه مهددا للعصاة بالعقاب ، ومن المبين كونه مبينا ما أعد الله للمطيعين من الثواب . والأولى أن يكون المعنى أنه نذير للعصاة من العقاب وأنه مبين بمعنى أنه بين ذلك الانذار على الطريق الأكمل والبيان الأقوى الأظهر ، ثم بين تعالى أن ذلك الانذار إنما حصل فى النهى عن عبادة غير الله . وفى الأمر بعبادة الله لأن قوله (أن لا تعبدوا إلا الله) استثناء من النفى وهو يوجب نفى غير المستثنى .

واعلم أن تقدير الآية كأنه تعالى قال ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه بهذا الكلام وهو قوله (إنى لكم نذير مبين)

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ «٢٧»

ثم قال ﴿أن لا تعبدوا الا الله﴾ فقوله (أن لا تعبدوا الا الله) بدل من قوله (إنى لكم نذير) ثم انه أكد ذلك بقوله (إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) والمعنى أنه لما حصل الألم العظيم فى ذلك اليوم أسند ذلك الألم إلى اليوم ، كقولهم نهارك صائم . وليلك قائم .

قوله تعالى ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الابشراً مثلنا ومانراك اتبعك الاالذين هم أراذلنا بادى الرأى ومانرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن نوح عليه السلام أنه دعا قومه الى عبادة الله تعالى حكى عنهم أنهم طعنوا فى نبوته بثلاثة أنواع من الشبهات .

﴿فالشبهة الأولى﴾ أنه بشر مثلهم ، والتفاوت الحاصل بين آحاد البشر يمتنع انتهاؤه الى حيث يصير الواحد منهم واجب الطاعة لجميع العالمين

﴿والشبهة الثانية﴾ كونه ما أتبعه إلا أراذل من القوم كالحياكة وأهل الصنائع الخسيسة ، قالوا ولو كنت صادقا لاتبعك الأكياس من الناس والأشراف منهم . ونظيره قوله تعالى فى سورة الشعراء (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون)

﴿والشبهة الثالثة﴾ قوله تعالى (ومانرى لكم علينا من فضل) والمعنى ، لانرى لكم علينا من فضل لا فى العقل ولا فى رعاية المصالح العاجلة ولا فى قوة الجدل فاذا لم نشاهد فضلك علينا فى شيء من هذه الأحوال الظاهرة فكيف نعترف بفضلك علينا فى أشرف الدرجات وأعلى المقامات . فهذا خلاصة الكلام فى تقرير هذه الشبهات .

واعلم أن الشبهة الأولى لاتليق إلا بالبراهمة الذين ينكرون نبوة البشر على الاطلاق . أما الشبهتان الباقيتان فيمكن أن يتمسك بهما من أقر بنبوة سائر الأنبياء ، وفى لفظ الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ الملأ الاشراف وفى اشتقاقه وجوه : الأول : أنه مأخوذ من قولهم ملىء بكذا إذا كان مطيقا له وقد ملؤا بالأمر ، والسبب فى إطلاق هذا اللفظ عليهم أنهم ملؤا بترتيب المهمات

وأحسنوا فى تدبيرها . الثانى : أنهم وصفوا بذلك لأنهم يتمالؤون أى يتظاهرون عليه . الثالث : وصفوا بذلك لأنهم يملؤون القلوب هيبة والمجالس أبهة . الرابع : وصفوا به لأنهم ملؤا العقول الراجحة والآراء الصائبة .

ثم حكى الله تعالى عنهم الشبهة الأولى ، وهى قولهم ﴿ مانراك إلا بشراً مثلنا ﴾ وهو مثل ماحكى الله تعالى عن بعض العرب أنهم قالوا (لولا أنزل عليه ملك) وهذا جهل ، لأن من حق الرسول أن يباشر الأمة بالدليل والبرهان والتثبت والحجة ، لا بالصورة والخلقة ، بل نقول : إن الله تعالى لو بعث إلى البشر ملكا لكانت الشبهة أقوى فى الطعن عليه فى رسالته لأنه يخطر بالبال أن هذه المعجزات التى ظهرت لعل هذا الملك هو الذى أتى بها من عند نفسه بسبب أن قوته أكمل وقدرته أقوى ، فلهذه الحكمة مابعث الله إلى البشر رسولا إلا من البشر .

ثم حكى الشبهة الثانية وهى قوله ﴿ ومانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ﴾ والمراد منه قلة مالهم وقلة جاههم ودناءة حرفهم وصناعتهم هذا أيضا جهل . لأن الرفعة فى الدين لا تكون بالحسب والمال والمناصب العالية ، بل الفقر أهون على الدين من الغنى ، بل نقول : الأنبياء مابعثوا إلا لترك الدنيا والاقبال على الآخرة . فكيف تجعل قلة المال فى الدنيا طعنا فى النبوة والرسالة .

ثم حكى الله تعالى الشبهة الثالثة وهى قوله ﴿ ومانرى لكم علينا من فضل ﴾ وهذا أيضا جهل ، لأن الفضيلة المعتبرة عند الله ليست إلا بالعلم والعمل . فكيف اطلعوا على بواطن الخلق حتى عرفوا نفى هذه الفضيلة ، ثم قالوا بعد ذكر هذه الشبهات لنوح عليه السلام ومن اتبعه (بل نظنكم كاذبين) وفيه وجهان : الأول : أن يكون هذا خطابا مع نوح ومع قومه ، والمراد منه تكذيب نوح فى دعوى الرسالة . والثانى : أن يكون هذا خطابا مع الأراذل فنسبوهم إلى أنهم كذبوا فى أن آمنوا به واتبعوه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الواحدى : الأرذل جمع رذل وهو الدون من كل شىء فى منظره وحالاته ورجل رذل الثياب والفعل . والأراذل جمع الأرذل . كقولهم أكابر مجرميها ، وقوله عليه الصلاة والسلام «أحاسنكم أخلاقا» فعلى هذا الأراذل جمع الجمع . وقال بعضهم : الأصل فيه أن يقال : هو أرذل من كذا . ثم كثر حتى قالوا : هو الأرذل فصارت الألف واللام عوضا عن الاضافة . وقوله (بادى الرأى) البادى هو الظاهر من قولك : بدأ الشىء إذا ظهر ، ومنه يقال : بادية لظهورها وبروزها للناظر . واختلفوا فى بادى الرأى وذكروا فيه وجوها : الأول : اتبعوك فى الظاهر وباطنهم بخلافه . والثانى : يجوز أن يكون المراد اتبعوك فى ابتداء حدوث الرأى وما احتاطوا فى

قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ «٢٨»

ذلك الرأى وما أعطوه حقه من الفكر الصائب والتدبر الوافى . الثالث : أنهم لما وصفوا القوم بالرذالة قالوا : كونهم كذلك بادى الرأى أمر ظاهر لكل من يراهم . والرأى على هذا المعنى من رأى العين لا من رأى القلب ويتأكد هذا التأويل بما نقل عن مجاهد أنه كان يقرأ (إلا الذين هم أراذلنا بادى رأى العين)

﴿المسألة الثالثة﴾ قرأ أبو عمرو ونصير عن الكسائى (بادىء) بالهمزة والباقون بالياء غير مهموز فمن قرأ (بادىء) بالهمزة . فالمعنى أول الرأى وابتداؤه ومن قرأ بالياء غير مهموز كان من بدا يبدو أى ظهر و(بادى) نصب على المصدر كقولك : ضربت أول الضرب .

قوله تعالى ﴿قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾

فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى لما حكى شبهات منكرى نبوة نوح عليه الصلاة والسلام حكى بعده ما يكون جوابا عن تلك الشبهات .

﴿فالشبهة الأولى﴾ قولهم ﴿ماأنت إلا بشر مثلنا﴾ فقال نوح حصول المساواة فى البشرية لا يمنع من حصول المفارقة فى صفة النبوة والرسالة . ثم ذكر الطريق الدال على إمكانه ، فقال (أرأيتم إن كنت على بينة من ربى) من معرفة ذات الله وصفاته ومايجب ومايمتنع ومايجوز عليه . ثم إنه تعالى آتانى رحمة من عنده . والمراد بتلك الرحمة : إما النبوة . وإما المعجزة الدالة على النبوة (فعميت عليكم) أى صارت مظنة مشتبهة ملتبسة فى عقولكم . فهل أقدر على أن أجعلكم بحيث تصلون إلى معرفتها شئتم أم أبيتم ؟ والمراد أنى لا أقدر على ذلك البتة . وعن قتادة : والله لو استطاع نبى الله لألزمها ولكنه لم يقدر عليه . وحاصل الكلام أنهم لما قالوا (ومانرى لكم علينا من فضل) ذكر نوح عليه السلام أن ذلك بسبب أن الحجة عميت عليكم واشتبهت . فلو تركتم العناد واللجاج ونظرتم فى الدليل لظهر المقصود . وتبين أن الله تعالى آتانا عليكم فضلا عظيما .

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم (فعميت عليكم) بضم العين وتشديد

وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ «٢٩» وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ «٣٠» وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ «٣١»

الميم على مالم يسم فاعله . بمعنى البست وشبهت والباقون بفتح العين مخففة الميم ، أى التبست واشتبهت.

واعلم أن الشيء إذا بقى مجهولا محضا أشبه المعمى ، لأن العلم نور البصيرة الباطنة . والأبصار نور البصر الظاهر . فحسن جعل كل واحد منها مجازاً عن الآخر وتحقيقه أن البينة توصف بالأبصار . قال تعالى (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة) وكذلك توصف بالعمى . قال تعالى (فعميت عليهم الأنباء) وقال فى هذه الآية (فعميت عليكم)

﴿المسألة الثالثة﴾ أنلزمكموها فيه ثلاث مضمرات : ضمير المتكلم . وضمير الغائب . وضمير المخاطب . وأجاز الفراء إسكان الميم الأولى . وروى ذلك عن أبى عمرو قال : وذلك أن الحركات توالت فسكنت الميم وهى أيضا مرفوعة وقبلها كسرة . والحركة التى بعدها ضمة ثقيلة ، قال الزجاج: جميع النحويين البصريين ، لايجيزون إسكان حرف الاعراب إلا فى ضرورة الشعر ومايروى عن أبى عمرو فلم يضبطه عنه الفراء ، وروى عن سيبويه أنه كان يخفف الحركة ويختلسها ، وهذا هو الحق وإنما يجوز الاسكان فى الشعر كقول امرىء القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب

قوله تعالى ﴿وياقوم لاأسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الله وماأنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوماتجهلون وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلاتذكرون ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولاأقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيكم الله خيراً الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين﴾

فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن هذا هو الجواب عن الشبهة الثانية وهى قولهم لا يتبعك إلا لأراذل من الناس وتقرير هذا الجواب من وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أنه عليه الصلاة والسلام قال «أنا لا أطلب على تبليغ دعوة الرسالة مالا حتى يتفاوت الحال بسبب كون المستجيب فقيراً أو غنياً وإنما أجرى على هذه الطاعة الشاقة على رب العالمين» وإذا كان الأمر كذلك فسواء كانوا فقراء أو أغنياء لم يتفاوت الحال فى ذلك

﴿الوجه الثانى﴾ كأنه عليه الصلاة والسلام قال لهم إنكم لما نظرتم إلى ظواهر الأمور وجدتمونى فقيراً وظننتم أنى إنما اشتغلت بهذه الحرفة لأتوسل بها إلى أخذ أموالكم وهذا الظن منكم خطأ فأنى لا أسئلكم على تبليغ الرسالة أجرا إن أجرى إلا على رب العالمين فلا تحرموا أنفسكم من سعادة الدين بسبب هذا الظن الفاسد .

﴿والوجه الثالث﴾ فى تقرير هذا الجواب أنهم قالوا (ما نراك إلا بشراً مثلنا) إلى قوله (وما نرى لكم علينا من فضل) فهو عليه السلام بين أنه تعالى أعطاه أنواعا كثيرة توجب فضله عليهم ولذلك لم يسع فى طلب الدنيا ، وإنما يسعى فى طلب الدين ، والاعراض عن الدنيا من أمهات الفضائل باتفاق الكل ، فلعل المراد تقرير حصول الفضيلة من هذا الوجه .

فاما قوله ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ فهذا كالدليل على أن القوم سألوه طردهم رفعاً لأنفسهم عن مشاركة أولئك الفقراء . روى ابن جريج أنهم قالوا : إن أحببت يانوح أن نتبعك فاطردهم فانا لا نرضى بمشاركتهم . فقال عليه الصلاة والسلام (وما أنا بطارد الذين آمنوا) وقوله تعالى حكاية عنهم أنهم قالوا (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى) كالدليل على أنهم طلبوا منه طردهم لأنه كالدليل على أنهم كانوا يقولون : لو اتبعك أشراف القوم لوافقناهم ، ثم إنه تعالى حكى عنه أنه ما طردهم ، وذكر فى بيان ما يوجب الامتناع من هذا الطرد أموراً : الأول : أنهم ملاقو ربهم وهذا الكلام يحتمل وجوهاً : منها : أنهم قالوا هم منافقون فيما أظهروا فلا تغتر بهم؟ فأجاب بأن هذا الأمر ينكشف عند لقاء ربهم فى الآخرة ، ومنها : أنه جعله علة فى الامتناع من الطرد وأراد أنهم ملاقوا ما وعدهم ربهم ، فان طردتهم استخصمونى فى الآخرة . ومنها : أنه نبه بذلك الأمر على انا نجتمع فى الآخرة فأعاقب على طردهم فلا أجد من ينصرنى ، ثم بين أنهم يبنون أمرهم على الجهل بالعواقب والاغترار بالظواهر فقال (ولكنى أراكم قوماً تجهلون)

ثم قال بعده ﴿وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون﴾ والمعنى : أن العقل والشرع تطابقا على أنه لابد من تعظيم المؤمن البر التقى . ومن إهانة الفاجر الكافر ، فلو قلبت القصة

وعكست القضية وقربت الكافر الفاجر على سبيل التعظيم ، وطردت المؤمن التقى على سبيل الاهانة كنت على ضد أمر الله تعالى ، وعلى عكس حكمه وكنت فى هذا الحكم على ضد ما أمر الله تعالى من إيصال الثواب إلى المحقين ، والعقاب إلى المبطلين وحينئذ أصير مستوجباً للعقاب العظيم فمن ذا الذى ينصرنى من الله تعالى ومن الذى يخلصنى من عذاب الله أفلا تذكرون فتعلمون أن ذلك لا يصح ثم أكد هذا البيان بوجه ثالث فقال (ولا أقول لكم عندى خزائن الله) أى كما لا أسألكم فكذلك لا أدعى أنى أملك مالا ولا لى غرض فى المال لا أخذاً ولا دفعاً ، ولا أعلم الغيب حتى أصل به إلى ما أريد لنفسى ولأتباعى ولا أقول إنى ملك حتى أتعظم بذلك عليكم ، بل طريقى الخضوع والتواضع ومن كان هذا شأنه وطريقه فانه لا يستنكف عن مخالطة الفقراء والمساكين ، ولا يطلب مجالسة الأمراء والسلاطين . وانما شأنه طلب الدين وسيرته مخالطة الخاضعين والخاشعين فلما كانت طريقتى توجب مخالطة الفقراء فكيف جعلتم ذلك عيباً على ، ثم أنه أكد هذا البيان بطريق رابع فقال (ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما فى أنفسهم) وهذا كالدلالة على أنهم كانوا ينسبون اتباعه مع الفقر والذلة إلى النفاق فقال : إنى لا أقول ذلك ، لأنه من باب الغيب والغيب لا يعلمه إلا الله ، فربما كان باطنهم كظاهرهم فيؤتيهم الله ملك الآخرة فأكون كاذباً فيما أخبرت به ، فانى إن فعلت ذلك كنت من الظالمين لنفسى ومن الظالمين لهم فى وصفهم بأنهم لا خير لهم مع أن الله تعالى آتاهم الخير فى الآخرة .

﴿المسألة الثانية﴾ احتج قوم بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء وقالوا : إن الانسان إذا قال : أنا لا أدعى كذا وكذا ، فهذا انما يحسن إذا كان ذلك الشىء أشرف من أحوال ذلك القائل فلما كان قائل هذا القول هو نوح عليه السلام وجب أن تكون درجة الملائكة أعلى وأشرف من درجات الأنبياء ، ثم قالوا : وكيف لا يكون الأمر كذلك والملائكة داوموا على عبادة الله تعالى طول الدنيا مذ خلقوا إلى أن تقوم الساعة ، وتمام التقرير أن الفضائل الحقيقية الروحانية ليست إلا ثلاثة أشياء : أولها : الاستغناء المطلق وجرت العادة فى الدنيا أن من ملك المال الكثير فانه يوصف بكونه غنياً فقوله (ولا أقول لكم عندى خزائن الله) إشارة إلى أنى لا أدعى الاستغناء المطلق وثانيها : العلم التام وإليه الاشارة بقوله (ولا أعلم الغيب) وثالثها : القدرة التامة الكاملة ، وقد تقرر فى الخواطر أن أكمل المخلوقات فى القدرة والقوة هم الملائكة وإليه الاشارة بقوله (ولا أقول إنى ملك) والمقصود من ذكر هذه الأمور الثلاثة بيان أنه ما حصل عندى من هذه المراتب الثلاثة إلا ما يليق بالقوة البشرية والطاقة الانسانية ، فاما الكمال المطلق فانا لا أدعيه وإذا كان الأمر كذلك

قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ «٣٢» قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ «٣٣» وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ «٣٤»

فقد ظهر أن قوله (ولا أقول إنى ملك) يدل على أنهم أكمل من البشر ، وأيضا يمكن جعل هذا الكلام جواباً عما ذكروه من الشبهة فانهم طعنوا فى أتباعه بالفقر فقال (ولا أقول لكم عندى خزائن الله) حتى أجعلهم أغنياء وطعنوا فيهم أيضاً بأنهم منافقون فقال (ولا أعلم الغيب) حتى أعرف كيفية باطنهم وإنما أجرى الأحوال على الظواهر وطعنوا فيهم بأنهم قد يأتون بأفعال لا كما ينبغى فقال (ولا أقول إنى ملك) حتى أكون مبرأ عن جميع الدواعى الشهوانية والبواعث النفسانية .

﴿المسألة الثالثة﴾ احتج قوم بهذه الآية على صدور الذنب من الأنبياء فقالوا : إن هذه الآية دلت على أن طرد المؤمنين لطلب مرضاة الكفار من أصول المعاصى ، ثم إن محمداً صلى الله عليه وسلم طرد فقراء المؤمنين لطلب مرضاة الكفار حتى عاتبه الله تعالى فى قوله (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) وذلك يدل على إقدام محمد صلى الله عليه وسلم على الذنب .

والجواب : يحمل الطرد المذكور فى هذه الآية على الطرد المطلق على سبيل التأبيد ، والطرد المذكور فى واقعة محمد صلى الله عليه وسلم ، على التقليل فى أوقات معينة لرعاية المصالح

﴿المسألة الرابعة﴾ احتج الجبائى على أنه لا تجوز الشفاعة عند الله فى دفع العقاب بقول نوح عليه السلام (من ينصرنى من الله إن طردتهم) معناه إن كان هذا الطرد محرما فمن ذا الذى ينصرنى من الله ، أى من الذى يخلصنى من عقابه ولو كانت الشفاعة جائزة لكانت فى حق نوح عليه السلام أيضاً جائزة وحينئذ يبطل قوله (من ينصرنى من الله) واعلم أن هذا الاستدلال يشبه استدلالهم فى هذه المسألة بقوله تعالى (واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً) الى قوله (ولا ينصرون) والجواب المذكور هناك هو الجواب عن هذا الكلام .

قوله تعالى ﴿قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان

الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون﴾

فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن الكفار لما أوردوا تلك الشبهة .

وأجاب نوح عليه السلام عنها بالجوابات الموافقة الصحيحة أورد الكفار على نوح كلامين : الأول : أنهم وصفوه بكثرة المجادلة . فقالوا : يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، وهذا يدل على أنه عليه السلام كان قد أكثر فى الجدال معهم ، وذلك الجدال ماكان إلا فى إثبات التوحيد والنبوة والمعاد ، وهذا يدل على أن الجدال فى تقرير الدلائل وفى إزالة الشبهات حرفة الأنبياء . وعلى أن التقليد والجهل والاصرار على الباطل حرفة الكفار . والثانى : أنهم استعجلوا العذاب الذى كان يتوعدهم به ، فقالوا (فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) ثم إنه عليه السلام أجاب عنه بجواب صحيح فقال (إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين) والمعنى أن إنزال العذاب ليس إلى . وإنما هو خاق الله تعالى فيفعله إن شاء كما شاء ، وإذا أراد إنزال العذاب فان أحداً لا يعجزه ، أى لا يمنعه منه ، والمعجز هو الذى يفعل ما عنده لتعذر مراد الغير فيوصف بأنه أعجزه ، فقوله (وما أنتم بمعجزين) أى لا سبيل لكم إلى فعل ماعنده ، فلا يمتنع على الله تعالى مايشاء من العذاب إن أراد إنزاله بكم . وقد قيل معناه : وماأنتم بمانعين ، وقيل : وما أنتم بمصونين ، وقيل : وما أنتم بسابقين إلى الخلاص ، وهذه الأقوال متقاربة .

واعلم أن نوحاً عليه السلام لما أجاب عن شبهاتهم ختم الكلام بخاتمة قاطعة ، فقال (ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم) أى إن كان الله يريد أن يغويكم فانه لا ينفعكم نصحى البتة ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الله تعالى قد يريد الكفر من العبد ، وأنه إذا أراد منه ذلك فانه يمتنع صدور الايمان منه ، قالوا : إن نوحاً عليه السلام قال (ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم) والتقدير : لا ينفعكم نصحى إن كان الله يريد أن يغويكم ويضلكم ، وهذا صريح فى مذهبنا ، أما المعتزلة فانهم قالوا ظاهر الآية يدل على أن الله تعالى إن أراد إغواء القوم لم ينتفعوا بنصح الرسول ، وهذا مسلم ، فانا نعرف أن الله تعالى لو أراد إغواء عبد فانه لا ينفعه نصح الناصحين ، لكن لم قلتم إنه تعالى أراد هذا الاغواء فان النزاع ماوقع إلا فيه ، بل نقول إن نوحاً عليه السلام إنما ذكر هذا الكلام ليدل على أنه تعالى ماأغواهم ، بل فوض الاختيار اليهم وبيانه من وجهين : الأول : أنه عليه السلام بين أنه تعالى لو أراد إغواءهم لما بقى فى النصح فائدة فلو لم يكن فيه فائدة لما أمره بأن ينصح الكفار ، وأجمع المسلمون على أنه عليه السلام مأمور

بدعوة الكفار ونصيحتهم ، فعلمنا أن هذا النصح غير خال عن الفائدة ، وإذا لم يكن خالياً عن الفائدة وجب القطع بأنه تعالى ما أغواهم . فهذا صار حجة لنا من هذا الوجه . الثانى : أنه لو ثبت الحكم عليهم بأن الله تعالى أغواهم لصار هذا عذراً لهم فى عدم إتيانهم بالايمان ولصار نوح منقطعاً فى مناظرتهم . لأنهم يقولون له إنك سلمت أن الله إذا أغوانا فانه لايبقى فى نصحك ولا فى جدنا واجتهادنا فائدة . فاذا ادعيت بأن الله تعالى قد أغوانا فقد جعلتنا معذورين فلم يلزمنا قبول هذه الدعوة ، فثبت أن الأمر لو كان كما قاله الخصم ، لصار هذا حجة للكفار على نوح عليه السلام . ومعلوم أن نوحاً عليه السلام لايجوز أن يذكر كلاماً يصير بسببه مفحماً ملزماً عاجزاً عن تقرير حجة الله تعالى ، فثبت بما ذكرنا أن هذه الآية لاتدل على قول المجبرة . ثم إنهم ذكروا وجوهاً من التأويلات : الأول : أولئك الكفار كانوا مجبرة ، وكانوا يقولون إن كفرهم بارادة الله تعالى ، فعند هذا قال نوح عليه السلام : إن نصحه لاينفعهم إن كان الأمر كما قالوا ، ومثاله أن يعاقب الرجل ولده على ذنبه فيقول الولد : لاأقدر على غير ما أنا عليه ، فيقول الوالد فلن ينفعك إذاً نصحى ولا زجرى ، وليس المراد أنه يصدقه على ماذكره بل على وجه الانكار لذلك . الثانى : قال الحسن . معنى (يغويكم) أى يعذبكم ، والمعنى : لاينفعكم نصحى اليوم إذا نزل بكم العذاب فآمنتم فى ذلك الوقت ، لأن الايمان عند نزول العذاب لايقبل ، وإنما ينفعكم نصحى إذا آمنتم قبل مشاهدة العذاب . الثالث : قال الجبائى : الغواية هى الخيبة من الطلب بدليل قوله تعالى (فسوف يلقون غياً) أى خيبة من خير الآخرة قال الشاعر :

ومن يغو لايعدم على الغى لائما

الرابع : أنه إذا أصر على الكفر وتمادى فيه ، منعه الله تعالى الالطاف وفوضه إلى نفسه . فهذا شبيه ما إذا أراد إغواءه فلهذا السبب حسن أن يقال إن الله تعالى أغواه هذا جملة كلمات المعتزلة فى هذا الباب . والجواب عن أمثال هذه الكلمات قد ذكرناه مراراً وأطواراً فلا فائدة فى الاعادة

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (ولاينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم) جزاء معلق على شرط بعده شرط آخر وهذا يقتضى أن يكون الشرط المؤخر فى اللفظ مقدماً فى الوجود . وذلك لأن الرجل إذا قال لامرأته أنت طالق إن دخلت الدار ، كان المفهوم كون ذلك الطلاق من لوازم ذلك الدخول ، فاذا ذكر بعده شرطاً آخر مثل أن يقول : ان أكلت الخبز كان المعنى أن تعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط الأول مشروط بحصول هذا الشرط الثانى والشرط مقدم على المشروط فى الوجود فعلى هذا إن حصل الشرط الثانى تعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط الأول إما أن

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ «٣٥» وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ «٣٦»

لم يوجد الشرط المذكور ثانياً لم يتعلق ذلك الجزاء بذلك الشرط الأول ، هـذا هو التحقيق فى هذا التركيب . فلهذا المعنى قال الفقهاء : إن الشرط المؤخر فى اللفظ مقدم فى المعنى ، والمقدم فى اللفظ مؤخر فى المعنى .

واعلم أن نوحا عليه السلام لما قرر هـذه المعانى قال : هو ربكم وإليه ترجعون . وهذا نهاية الوعيد أى هو إلهكم الذى خلقكم ورباكم ويملك التصرف فى ذواتكم وفى صفاتكم قبل الموت وعند الموت وبعد الموت مرجعكم اليه وهذا يفيد نهاية التحذير .

قوله تعالى ﴿أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون﴾
اعلم أن معنى افتراه اختلقه وافتعله ، وجاء به من عندنفسه ، والهاء ترجع إلى الوحى الذى بلغه اليهم ، وقوله (فعلى إجرامى) الاجرام اقتراح المحظورات واكتسابها ، وهـذا من باب حذف المضاف ، لأن المعنى : فعلى عقاب إجرامى ، وفى الآية محذوف آخر ، وهو أن المعنى : إن كنت افتريته فعلى عقاب جرمى ، وإن كنت صادقا وكذبتمونى فعليكم عقاب ذلك التكذيب ، إلا أنه حذف هذه البقية لدلالة الكلام عليه ، كقوله (أمن هو قانت آناء الليل) ولم يذكر البقية ، وقوله (وأنا برىء مما تجرمون) أى أنا برىء من عقاب جرمكم ، وأكثر المفسرين على أن هذا من بقية كلام نوح عليه السلام ، وهذه الآية وقعت فى قصة محمد صلى الله عليه وسلم فى أثناء حكاية نوح ، وقولهم : بعيد جدا ، وأيضاً قوله (قل إن افتريته فعلى إجرامى) لايدل على أنه كان شاكا ، إلا أنه قول يقال على وجه الانكار عند اليأس من القبول .

قوله تعالى ﴿وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾
فيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما جاء هذا من عند الله تعالى دعا على

قومه فقال (رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً) وقوله (فلا تبتئس) أى لاتحزن . قال أبوزيد : ابتأس الرجل إذا بلغه شيء يكرهه . وأنشد أبوعبيدة :

مايقسم الله أقبل غير مبتئس به وأقعد كريماً ناعم البال

أى غير حزين ولا كاره .

﴿المسألة الثانية﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم فى القضاء والقدرة وقالوا : إنه تعالى أخبر عن قومه أنهم لايؤمنون بعد ذلك . فلو حصل إيمانهم لكان إما مع بقاء هذا الخبر صدقا ، ومع بقاء هذا العلم علماً أو مع انقلاب هذا الخبر كذبا ومع انقلاب هذا العلم جهلا والأول ظاهر البطلان لأن وجود الايمان مع أن يكون الاخبار عن عدم الايمان صدقا ، ومع كون العلم بعدم الايمان حاصلا حال وجود الايمان جمع بين النقيضين . والثانى أيضاً باطل . لأن انقلاب خبر الله كذباً وعلم الله جهلا محال ، ولما كان صدور الايمان منهم لابد وأن يكون على هذين القسمين وثبت أن كل واحد منهما محال كان صدور الايمان منهم محالا مع أنهم كانوا مأمورين به ، وأيضاً القوم كانوا مأمورين بالايمان ومن الايمان تصديق الله تعالى فى كل ماأخبر عنه . ومنه قوله (إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) فيلزم أن يقال : إنهم كانوا مأمورين بأن يؤمنوا بأنهم لايؤمنون البتة . وذلك تكليف الجمع بين النقيضين . وتقرير هذا الكلام قد مر فى هذا الكتاب مرارا وأطوارا .

﴿المسألة الثالثة﴾ اختلف المعتزلة فى أنه هل يجوز أن ينزل الله تعالى عذاب الاستئصال على قوم كان فى المعلوم أن فيهم من يؤمن أو كان فى أولادهم من يؤمن ، فقال قوم : إنه لايجوز . واحتجوا بما حكى الله تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال (رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا) وهذا يدل على أنه إنما حسن منه تعالى إنزال عذاب الاستئصال عليهم . لأجل أنه تعالى علم أنه ليس من يؤمن ، ولا فى أولادهم أحد يؤمن . قال القاضى وقال كثير من علمائنا : إن ذلك من الله تعالى جائز وإن كان منهم من يؤمن . وأما قول نوح عليه السلام (رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً) فذلك يدل على أنه إنما سأل ذلك من حيث أنه كان فى المعلوم أنهم يضلون عباده ولا يلدون إلا فاجراً كفاراً وذلك يدل على أن ذلك الحكم كان قولا بمجموع هاتين العلتين ، وأيضاً فلا دليل فيه على أنهما لو لم يحصلا لما جاز إنزال الاهلاك . والأقرب ان يقال : إن نوحا عليه السلام لشدة محبته لايمانهم كان سأل ربه أن يبقيهم ، فأعلمه أنه لايؤمن منهم أحد ليزول عن قلبه ما كان قد حصل

وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ «٣٧»

فيه من تلك المحبة . ولذلك قال تعالى من بعد (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) أى لاتحزن من ذلك ولا تغتم ولا تظن أن فى ذلك مذلة ، فان الدين عزيز ، وإن قل عدد من يتمسك به ، والباطل ذليل وإن كثر عدد من يقول به .

قوله تعالى ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾

واعلم أن قوله تعالى (إنه لن يؤمن قومك إلا من قد آمن) يقتضى تعريف نوح عليه السلام أنه معذبهم ومهلكهم ، فكان يحتمل أن يعذبهم بوجوه التعذيب ، فعرفه الله تعالى أنه يعذبهم بهذا الجنس الذى هو الغرق ، ولما كان السبيل الذى به يحصل النجاة من الغرق تكوين السفينة : لاجرم أمر الله تعالى باصلاح السفينة واعدادها ، فأوحى الله تعالى إليه أن يصنعها على مثال جوجؤ الطائر .

فان قيل : قوله تعالى (واصنع الفلك) أمر إيجاب أو أمر إباحة .

قلنا : الأظهر أنه أمر إيجاب ، لأنه لاسبيل له الى صون روح نفسه وأرواح غيره عن الهلاك الا بهذا الطريق وصون النفس عن الهلاك واجب وما لايتم الواجب الابه فهو واجب . ويحتمل أن لا يكون ذلك الأمر أمر ايجاب بل كان أمر اباحة ، وهو بمنزلة أن يتخذ الانسان لنفسه داراً ليسكنها ويقيم بها .

أما قوله ﴿بأعيننا﴾ فهذا لا يمكن اجراؤه على ظاهره من وجوه : أحدها : أنه يقتضى أن يكون لله تعالى أعين كثيرة . وهذا يناقض ظاهر قوله تعالى (ولتصنع على عينى) وثانيها : أنه يقتضى أن يصنع نوح عليه السلام ذلك الفلك بتلك الأعين . كما يقال : قطعت بالسكين ، وكتبت بالقلم ، ومعلوم أن ذلك باطل . وثالثها : أنه ثبت بالدلائل القطعية العقلية كونه تعالى منزها عن الأعضاء والجوارح والأجزاء والأبعاض ، فوجب المصير فيه الى التأويل ، وهو من وجوه : الأول : أن معنى (بأعيننا) أى بعين الملك الذى كان يعرفه كيف يتخذ السفينة ، يقال فلان عين على فلان نصب عليه ليكون منفحصا عن أحواله ولاتحول عنه عينه . الثانى : أن من كان عظيم العناية بالشىء فانه يضع عينه عليه ، فلما كان وضع العين على الشىء سببا لمبالغة الاحتياط والعناية جعل العين كناية

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ «٣٨» فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ «٣٩»

عن الاحتياط . فلهذا قال المفسرون معناه بحفظنا إياك حفظ من يراك ويملك دفع السوء عنك ، وحاصل الكلام أن إقدامه على عمل السفينة مشروط بأمرين : أحدهما : أن لا يمنعه أعداؤه عن ذلك العمل . والثانى : أن يكون عالما بأنه كيف ينبغى تأليف السفينة وتركيبها ودفع الشر عنه ، وقوله (ووحينا) إشارة إلى أنه تعالى يوحى إليه أنه كيف ينبغى عمل السفينة حتى يحصل منه المطلوب

وأما قوله ﴿ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ ففيه وجوه : الأول : يعنى لا تطلب منى تأخير العذاب عنهم فانى قد حكمت عليهم بهذا الحكم ، فلما علم نوح عليه السلام ذلك دعا عليهم بعد ذلك وقال (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) الثانى (ولا تخاطبنى) فى تعجيل ذلك العقاب على الذين ظلموا ، فانى لما قضيت إنزال ذلك العذاب فى وقت معين كان تعجيله ممتنعا الثالث : المراد بالذين ظلموا امرأته وابنه كنعان .

قوله تعالى ﴿ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب عظيم﴾

أما قوله تعالى ﴿ويصنع الفلك﴾ ففيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ فى قوله (ويصنع الفلك) قولان : الأول : أنه حكاية حال ماضية أى فى ذلك الوقت كان يصدق عليه أنه يصنع الفلك . الثانى : التقدير وأقبل يصنع الفلك فاقتصر على قوله (ويصنع الفلك)

﴿المسألة الثانية﴾ ذكروا فى صفة السفينة أقوالا كثيرة : فأحدها : أن نوحا عليه السلام اتخذ السفينة فى سنتين ، وقيل فى أربع سنين وكان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعا وطولها فى السماء ثلاثون ذراعا . وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاث بطون فحمل فى البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام ، وفى البطن الأوسط الدواب والأنعام . وفى البطن الأعلى جلس هو ومن كان معه مع ما احتاجوا إليه من الزاد ، وحمل معه جسد آدم عليه السلام . وثانيها : قال الحسن

كان طولها ألفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع .

واعلم أن أمثال هذه المباحث لا تعجبنى لأنها أمور لاحاجة إلى معرفتها البتة ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلا وكان الخوض فيها من باب الفضول لاسيما مع القطع بأنه ليس ههنا ما يدل على الجانب الصحيح والذى نعلمه أنه كان فى السعة بحيث يتسع للمؤمنين من قومه ولما يحتاجون اليه ولحصول زوجين من كل حيوان ، لأن هذا القدر مذكور فى القرآن ، فأما غير ذلك القدر فغير مذكور .

أما قوله تعالى ﴿وكلما مرعليه ملأ من قومه سخروا منه﴾ ففى تفسير الملأ وجهان : قيل :جماعة وقيل : طبقة من أشرافهم وكبرائهم واختلفوا فيما لأجله كانوا يسخرون . وفيه وجوه : أحدهما: أنهم كانوا يقولون : يانوح كنت تدعى رسالة الله تعالى فصرت بعد ذلك نجاراً . وثانيها : أنهم كانوا يقولون له : لو كنت صادقا فى دعواك لكان إلهك يغنيك عن هذا العمل الشاق . وثالثها : أنهم ما رأوا السفينة قبل ذلك وماعرفوا كيفية الانتفاع بها وكانوا يتعجبون منه ويسخرون . ورابعها : أن تلك السفينة كانت كبيرة وهو كان يصنعها فى موضع بعيد عن الماء جدا وكانوا يقولون : ليس ههنا ماء ولا يمكنك نقلها إلى الأنهار العظيمة وإلى البحار ، فكانوا يعدون ذلك من باب السفه والجنون . وخامسها : أنه لما طالت مدته مع القوم وكان ينذرهم بالغرق وماشاهدوا من ذلك المعنى خبراً ولا أثرا غلب على ظنونهم كونه كاذبا فى ذلك المقال . فلما اشتغل بعمل السفينة ، لاجرم سخروا منه وكل هذه الوجوه محتملة .

ثم إنه تعالى حكى عنه أنه كان يقول : ﴿إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون﴾ وفيه وجوه : الأول : التقدير إن تسخروا منا فى هذه الساعة فانا نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم اذا وقع عليكم الغرق فى الدنيا والخزى فى الآخرة . الثانى : إن حكمتم علينا بالجهل فيما نصنع فانا نحكم عليكم بالجهل فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله تعالى وعذابه فأنتم أولى بالسخرية منا . الثالث : أن تستجهلونا فانا نستجهلكم واستجهالكم أقبح وأشد ، لأنكم لا تستجهلون الا لأجل الجهل بحقيقة الأمر والاغترار بظاهر الحال كما هو عادة الأطفال والجهال .

فان قيل : السخرية من آثار المعاصى فكيف يليق ذلك بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

قلنا : إنه تعالى سمى المقابلة سخرية كما فى قوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها)

أما قوله تعالى ﴿فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه﴾ أى فسوف تعلمون من هو أحق بالسخرية ومن هو أحمد عاقبة . وفى قوله (من يأتيه) وجهان : أحدهما : أن يكون استفهاما بمعنى أى كأنه قيل : فسوف تعلمون أينا يأتيه عذاب ، وعلى هذا الوجه فمحل «من» رفع بالابتداء . والثانى : أن

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ «٤٠»

يكون بمعنى الذى ويكون فى محل النصب ، وقوله تعالى (ويحل عليه عذاب مقيم) أى يجب عليه وينزل به .

قوله تعالى ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل﴾

فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال صاحب الكشاف (حتى) هى التى يبتدأ بعدها الكلام أدخلت على الجملة من الشرط والجزاء ووقعت غاية لقوله (ويصنع الفلك) أى فكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد .

﴿المسألة الثانية﴾ الأمر فى قوله تعالى ﴿حتى إذا جاء أمرنا يحتمل وجهين : الأول : أنه تعالى بين أنه لا يحدث شىء إلا بأمر الله تعالى كما قال (إنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) فكان المراد هذا . والثانى : أن يكون المراد من الأمر ههنا هو العذاب الموعد به .

﴿المسألة الثالثة﴾ فى التنور قولان : أحدهما : أنه التنور الذى يخبز فيه . والثانى : أنه غيره ، أما الأول وهو أنه التنور الذى يخبز فيه ، فهو قول جماعة عظيمة من المفسرين كابن عباس والحسن ومجاهد : وهؤلاء اختلفوا ، فمنهم من قال : إنه تنور لنوح عليه السلام . وقيل : كان لآدم قال الحسن : كان تنوراً من حجارة ، وكان لحواء حتى صار لنوح عليه السلام ، واختلفوا فى موضعه فقال الشعبي : إنه كان بناحية الكوفة ، وعن على رضى الله عنه . أنه فى مسجد الكوفة ، قال : وقد صلى فيه سبعون نبياً ، وقيل بالشام بموضع يقال له : عين وردان وهو قول مقاتل وقيل : فار التنور بالهند . وقيل : إن امرأته كانت تخبز فى ذلك التنور فأخبرته بخروج الماء من ذلك التنور فاشتغل فى الحال بوضع تلك الأشياء فى السفينة .

﴿القول الثانى﴾ ليس المراد من التنور تنور الخبز ، وعلى هذا التقدير ففيه أقوال : الأول : أنه انفجر الماء من وجه الأرض كما قال (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر) والعرب تسمى وجه الأرض تنوراً . الثانى : أن التنور أشرف موضع فى الأرض وأعلى مكان فيها وقد أخرج إليه الماء من ذلك الموضع ليكون ذلك معجزة له ، وأيضا

المعنى أنه لما نبع الماء من أعالى الأرض، ومن الأمكنة المرتفعة فشبهت لارتفاعها بالتنانير . الثالث : (فار التنور) أى طلع الصبح وهو منقول عن على رضى الله عنه . الرابع (فار التنور) يحتمل أن يكون معناه أشد الأمر كما يقال : حمى الوطيس ومعنى الآية اذا رأيت الأمر يشتد والماء يكثر فانج بنفسك ومن معك الى السفينة .

فان قيل : فما الأصح من هذه الاقوال ؟

قلنا : الأصل حمل الكلام على حقيقته ولفظ التنور حقيقة فى الموضع الذى يخبز فيه فوجب حمل اللفظ عليه ولا امتناع فى العقل فى أن يقال : إن الماء نبع أولا من موضع معين وكان ذلك الموضع تنوراً .

فان قيل : ذكر التنور بالألف واللام وهذا إنما يكون معهود سابق معين معلوم عند السامع وليس فى الأرض تنور هذا شأنه ، فوجب أن يحمل ذلك على أن المراد اذا رأيت الماء يشتد نبوعه والأمر يقوى فانج بنفسك وبمن معك .

قلنا : لا يبعد أن يقال : إن ذلك التنور كان لنوح عليه السلام بأن كان تنور آدم أو حواء أو كان تنوراً عينه الله تعالى لنوح عليه السلام وعرفه أنك اذا رأيت الماء يفور فاعلم أن الأمر قد وقع ، وعلى هذا التقدير فلا حاجة الى صرف الكلام عن ظاهره .

﴿المسألة الرابعة﴾ معنى (فار) نبع على قوة وشدة تشبيهاً بغليان القدر عند قوة النار ولا شبهة فى أن نفس التنور لا يفور فالمراد فار الماء من التنور ، والذى روى أن فور التنور كان علامة لهلاك القوم لا يمتنع لأن هذه واقعة عظيمة ، وقد وعد الله تعالى المؤمنين النجاة فلابد وأن يجعل لهم علامة بها يعرفون الوقت المعين ، فلا يبعد جعل هذه الحالة علامة لحدوث هذه الواقعة .

﴿المسألة الخامسة﴾ قال الليث: التنور . لفظة عمت بكل لسان وصاحبه تنار ، قال الأزهرى : وهذا يدل على أن الاسم قد يكون أعجمياً فتعربه العرب فيصير عربياً ، والدليل على ذلك أن الأصل تنار ولا يعرف فى كلام العرب تنور قبل هذا ، ونظيره ما دخل فى كلام العرب من كلام العجم الديباج ، والدينار . والسندس ، والاستبرق ، فان العرب لما تكلموا بهذه الألفاظ صارت عربية

واعلم أنه لما فار التنور فعند ذلك أمره الله تعالى بأن يحمل فى السفينة ثلاثة أنواع من الأشياء . فالأول : قوله (قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين) قال الأخفش : تقول الاثنان هما زوجان قال تعالى (ومن كل شىء خلقنا زوجين) فالسماء زوج والأرض زوج والشتاء زوج والصيف زوج والنهار زوج والليل زوج ، وتقول المرأة هى زوج وهو زوجها قال تعالى (وخلق منها زوجها)

يعنى المرأة ، وقال (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى) فثبت أن الواحد قد يقال له : زوج ومما يدل على ذلك قوله تعالى (ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين)

إذا عرفت هذا فنقول : الزوجان عبارة عن كل شيئين يكون أحدهما ذكراً والآخر أنثى والتقدير كل شيئين هما كذلك فاحمل منهما فى السفينة اثنين . واحد ذكر والآخر أنثى ، ولذلك قرأ حفص (من كل) بالتنوين وأرادوا احمل من كل شىء زوجين اثنين الذكر زوج والأنثى زوج لا يقال عليه إن الزوجين لايكونان إلا اثنين فما الفائدة فى قوله (زوجين اثنين) لأنا نقول هذا على مثال قوله (لاتتخذوا إلهين اثنين) وقوله (نفخة واحدة) وأما على القراءة المشهورة ، فهذا السؤال غير وارد واختلفوا فى أنه هل دخل فى قوله (زوجين اثنين) غير الحيوان أم لا ؟ فنقول : أما الحيوان فداخل لأن قوله (من كل زوجين اثنين) يدخل فيه كل الحيوانات ، وأما النبات فاللفظ لايدل عليه ، إلا أنه بحسب قرينة الحال لايبعد بسبب أن الناس محتاجون إلى النبات بجميع أقسامه ، وجاء فى الروايات عن ابن مسعود رضى الله عنهما أنه قال : لم يستطع نوح عليه السلام أن يحمل الأسد حتى ألقيت عليه الحمى وذلك أن نوحا عليه السلام قال : يارب فمن أين أطعم الأسد إذا حملته قال تعالى «فسوف أشغله عن الطعام» فسلط الله تعالى عليه الحمى وأمثال هذه الكلمات الأولى تركها ، فان حاجة الفيل إلى الطعام أكثر وليس به حمى . الثانى : من الأشياء التى أمر الله نوحاً عليه السلام بحملها فى السفينة .

قوله تعالى ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول﴾ قالوا : كانوا سبعة نوح عليه السلام وثلاثة أبناء له وهم سام ، وحام ، ويافث ، ولكل واحد منهم زوجة ، وقيل أيضاً كانوا ثمانية ، هؤلاء وزوجة نوح عليه السلام .

وأما قوله ﴿إلا من سبق عليه القول﴾ فالمراد ابنه وامرأته وكانا كافرين ، حكم الله تعالى عليهما بالهلاك .

فان قيل : الانسان أشرف من جميع الحيوانات فما السبب أنه وقع الابتداء بذكر الحيوانات ؟ قلنا : الانسان عاقل وهو لعقله كالمضطر إلى دفع أسباب الهلاك عن نفسه . فلا حاجة فيه إلى المبالغة فى الترغيب ، بخلاف السعى فى تخليص سائر الحيوانات ، فلهذا السبب وقع الابتداء به .

واعلم أن أصحابنا احتجوا بقوله (إلا من سبق عليه القول) فى إثبات القضاء اللازم والقدر الواجب ، قالوا : لأن قوله (سبق عليه القول) مشعر بأن كل من سبق عليه القول فانه لايتغير عن حاله وهو كقوله عليه الصلاة والسلام «السعيد من سعد فى بطن أمه والشقى من شقى فى بطن أمه»

وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ «٤١»

﴿النوع الثالث﴾ من تلك الأشياء قوله (ومن آمن) قالوا كانوا ثمانين . قال مقاتل : فى ناحية الموصل قرية يقال لها قرية الثمانين سميت بذلك ، لأن هؤلاء لما خرجوا من السفينة بنوها ، فسميت بهذا الاسم وذكروا ماهو أزيد منه وماهو أنقص منه وذلك مما لا سبيل إلى معرفته إلا أن الله تعالى وصفهم بالقلة وهو قوله تعالى (وما آمن معه إلا قليل)

فان قيل : لما كان الذين آمنوا معه ودخلوا فى السفينة كانوا جماعة فلم لم يقل قليلون كما فى قوله (إن هؤلاء لشرذمة قليلون)

قلنا : كلا اللفظين جائز ، والتقدير ههنا وما آمن معه إلا نفر قليل . فأما الذى يروى أن إبليس دخل السفينة فبعيد ، لأنه من الجن وهو جسم نارى أو هوائى وكيف يؤثر الغرق فيه ، وأيضا كتاب الله تعالى لم يدل عليه وخبر صحيح ماورد فيه ، فالأولى ترك الخوض فيه .

قوله تعالى ﴿وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم﴾

أما قوله ﴿وقال﴾ يعنى نوح عليه السلام لقومه (اركبوا) والركوب العلو على ظهر الشىء ومنه ركوب الدابة وركوب السفينة وركوب البحر وكل شىء علا شيئا فقد ركبه ، يقال ركبه الدين قال الليث : وتسمى العرب من يركب السفينة راكب السفينة . وأما الركبان والركب من ركبوا الدواب والابل . قال الواحدى : ولفظة (فى) فى قوله (اركبوا فيها) لايجوز أن تكون من صلة الركوب ، لأنه يقال ركبت السفينة ولا يقال ركبت فى السفينة ، بل الوجه أن يقال مفعول اركبوا محذوف والتقدير اركبوا الماء فى السفينة ، وأيضا يجوز أن يكون فائدة هذه الزيادة ، أنه أمرهم أن يكونوا فى جوف الفلك لا على ظهرها فلو قال اركبوها لتوهموا أنه أمرهم أن يكونوا على ظهر السفينة .

أما قوله تعالى ﴿بسم الله مجريها ومرساها﴾ فعيه مسائل .

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم مجريها بفتح الميم والباقون بضم الميم واتفقوا فى مرساها أنه بضم الميم ، وقال صاحب الكشاف : قرأ مجاهد (مجريها ومرسيها) بلفظ اسم الفاعل مجرورى المحل صفتين لله تعالى . قال الواحدى : المجرى مصدر كالاجراء ، ومثله قوله (منزلا مباركا . وأدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق) وأما من قرأ (مجريها) بفتح الميم ، فهو أيضا مصدر ، مثل الجرى . واحتج صاحب هذه القراءة بقوله (وهى تجرى بهم) ولو كان مجراها لكان وهي تجريهم . وحجة من ضم الميم أن جرت بهم وأجرتهم يتقاربان فى المعنى ، فاذا قال (تجرى

بهم) فكأنه قال : تجريهم ، وأما المرسى فهو أيضاً مصدر كالارساء . يقال : رسا الشيء يرسو إذا ثبت وأرساه غيره ، قال تعالى (والجبال أرساها) قال ابن عباس : يريد تجرى بسم الله وقدرته ، وترسو بسم الله وقدرته ، وقيل : كان اذا أراد أن تجرى بهم قال (بسم الله مجريها) فتجرى . واذا أراد أن ترسو قال : بسم الله مرساها فترسو .

﴿المسألة الثانية﴾ ذكروا فى عامل الأعراب فى (بسم الله) وجوها : الأول : اركبوا بسم الله والثانى : ابدؤا بسم الله ، والثالث : بسم الله إجراؤها وإرساؤها . وقيل : إنها سارت لأول يوم من رجب ، وقيل : لعشر مضين من رجب . فصارت ستة أشهر ، واستوت يوم العاشر من المحرم على الجودى .

﴿المسألة الثالثة﴾ فى الآية احتمالان :

﴿الاحتمال الأول﴾ أن يكون مجموع قوله (وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها) كلاما واحدا ، والتقدير : وقال اركبوا فيها بسم مجريها ومرساها ، يعنى ينبغى أن يكون الركوب مقرونا بهذا الذكر .

﴿والاحتمال الثانى﴾ أن يكونا كلامين ، والتقدير : أن نوحا عليه السلام أمرهم بالركوب ، ثم أخبرهم بأن مجريها ومرساها ليس إلا بسم الله وأمره وقدرته ،

﴿فالمعنى الأول﴾ يشير إلى أن الانسان لاينبغى أن يشرع فى أمر من الأمور إلا ويكون فى وقت الشروع فيه ذاكرا لاسم الله تعالى بالأذكار المقدسة حتى يكون ببركة ذلك الذكر سببا لتمام ذلك المقصود ،

﴿والمعنى الثانى﴾ يدل على أنه لما ركب السفينة أخبر القوم بأن السفينة ليست سببا لحصول النجاة . بل الواجب ربط الهمة وتعليق القلب بفضل الله تعالى . وأخبرهم أنه تعالى هو المجرى والمرسى للسفينة ، فاياكم أن تعولوا على السفينة ، بل يجب أن يكون تعويلكم على فضل الله فانه هو المجرى والمرسى لها ، فعلى التقدير الأول : كان نوح عليه السلام وقت ركوب السفينة فى مقام الذكر ، وعلى التقدير الثانى : كان فى مقام الفكر والبراءة عن الحول والقوة وقطع النظر عن الأسباب واستغراق القلب فى نور جلال مسبب الأسباب .

واعلم أن الانسان إذا تفكر فى طلب معرفة الله تعالى بالدليل والحجة فكأنه جلس فى سفينة التفكر والتدبر . وأمواج الظلمات والضلالات قد علت تلك الجبال وارتفعت إلى مصاعد القلال . فاذا ابتدأت سفينة الفكرة والروية بالحركة وجب أن يكون هناك اعتماده على الله تعالى وتضرعه

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ «٤٢» قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ «٤٣»

إلى الله تعالى وأن يكون بلسان القلب ونظر العقل . يقول : بسم الله مجريها ومرساها حتى تصل سفينة فكره إلى ساحل النجاة وتتخلص عن أمواج الضلالات .

وأما قوله ﴿إن ربى لغفور رحيم﴾ ففيه سؤال وهو أن ذلك الوقت وقت الاهلاك وإظهار القهر فكيف يليق به هذا الذكر ؟

وجوابه لعل القوم الذين ركبوا السفينة اعتقدوا فى أنفسهم أنا إنما نجونا ببركة علمنا فالله تعالى نبههم بهذا الكلام لازالة ذلك العجب منهم ، فان الانسان لا ينفك عن أنواع الزلات وظلمات الشهوات ، وفى جميع الأحوال فهو محتاج الى إعانة الله وفضله وإحسانه ، وأن يكون رحيما لعقوبته غفوراً لذنوبه .

قوله تعالى ﴿وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾

واعلم أن فى قوله (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال) مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قوله (وهى تجرى بهم فى موج) متعلق بمحذوف ، والتقدير : وقال اركبوا فيها . فركبوا فيها يقولون : بسم الله وهى تجرى بهم فى موج كالجبال .

﴿المسألة الثانية﴾ الأمواج العظيمة إنما تحدث عند حصول الرياح القوية الشديدة العاصفة فهذا يدل على أنه حصل فى ذلك الوقت رياح عاصفة شديدة ، والمقصود منه : بيان شدة الهول والفزع .

﴿المسألة الثالثة﴾ الجريان فى الموج ، هو أن تجرى السفينة داخل الموج ، وذلك يوجب الغرق ،

فالمراد أن الأمواج لما أحاطت بالسفينة من الجوانب . شبهت تلك السفينة بها إذا جرت فى داخل تلك الأمواج .

ثم حكى الله تعالى عنه أنه نادى ابنه ، وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اختلفوا فى أنه كان ابناً له ، وفيه أقوال :

﴿القول الأول﴾ أنه ابنه فى الحقيقة ، والدليل عليه : أنه تعالى نص عليه فقال (ونادى نوح ابنه) ونوح أيضاً نص عليه فقال (يابنى) وصرف هذا اللفظ الى أنه رباه ، فأطلق عليه اسم الابن لهذا السبب صرف للكلام عن حقيقته الى مجازه من غير ضرورة وأنه لا يجوز ، والذين خالفوا هذا الظاهر إنما خالفوه لأنهم استبعدوا أن يكون ولد الرسول المعصوم كافرا ، وهذا بعيد ، فانه ثبت أن والد رسولنا صلى الله عليه وسلم كان كافرا . ووالد إبراهيم عليه السلام كان كافرا بنص القرآن ، فكذلك ههنا ، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فى أنه عليه السلام لما قال (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) فكيف ناداه مع كفره ؟

فأجابوا عنه من وجوه : الأول : أنه كان ينافق أباه فظن نوح أنه مؤمن فلذلك ناداه ولولا ذلك لما أحب نجاته . والثانى : أنه عليه السلام كان يعلم أنه كافر ، لكنه ظن أنه لما شاهد الغرق والأهوال العظيمة فانه يقبل الايمان فصار قوله (يابنى اركب معنا) كالدلالة على أنه طلب منه الايمان وتأكد هذا بقوله (ولا تكن مع الكافرين) أى تابعهم فى الكفر واركب معنا . والثالث : أن شفقة الأبوة لعلها حملته على ذلك النداء ، والذى تقدم من قوله (إلا من سبق عليه القول) كان كالمجمل فلعله عليه السلام جوز أن لا يكون هو داخلا فيه .

﴿القول الثانى﴾ أنه كان ابن امرأته وهو قول محمد بن على الباقر وقول الحسن البصرى ويروى أن عليا رضى الله عنه قرأ (ونادى نوح ابنها) والضمير لامرأته . وقرأ محمد بن على وعروة بن الزبير (ابنه) بفتح الهاء يريد أن (ابنها) إلا أنهما اكتفيا بالفتحة عن الألف ، وقال قتادة سألت الحسن عنه فقال : والله ما كان ابنه فقلت : إن الله حكى عنه أنه قال (إن ابنى من أهلى) وأنت تقول : ما كان ابنا له ، فقال : لم يقل : إنه منى ولكنه قال من أهلى وهذا يدل على قولى .

﴿القول الثالث﴾ أنه ولد على فراشه لغير رشدة ، والقائلون بهذا القول احتجوا بقوله تعالى فى امرأة نوح وامرأة لوط فخانتاهما وهذا قول خبيث يجب صون منصب الأنبياء عن هذه الفضيحة لاسيما وهو على خلاف نص القرآن . أما قوله تعالى (فخانتاهما) فليس فيه أن تلك الخيانة إنما حصلت بالسبب الذى ذكروه . قيل لابن عباس رضى الله عنهما : ما كانت تلك الخيانة ، فقال :

كانت امرأة نوح تقول : زوجى مجنون ، وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه إذا نزلوا به . ثم الدليل القاطع على فساد هذا المذهب قوله تعالى (الخبيثات للخبثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) وأيضاً قوله تعالى (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) وبالجملة فقد دللنا على أن الحق هو مقول الأول .

وأما قوله ﴿وكان فى معزل﴾ فاعلم أن المعزل فى اللغة معناه : موضع منقطع عن غيره ، وأصله من العزل ، وهو التنحية والابعاد. تقول : كنت بمعزل عن كذا ، أى بموضع قد عزل منه .

واعلم أن قوله (وكان فى معزل) لا يدل على أنه فى معزل من أى شىء فلهذا السبب ذكروا وجوها : الأول : أنه كان فى معزل من السفينة لأنه كان يظن أن الجبل يمنعه من الغرق : الثانى : أنه كان فى معزل عن أبيه وإخوته وقومه : الثالث : أنه كان فى معزل من الكفار كأنه انفرد عنهم فظن نوح عليه السلام أن ذلك إنما كان لأنه أحب مفارقتهم .

أما قوله ﴿يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾ فنقول : قرأ حفص عن عاصم (يابنى) بفتح الياء فى جميع القرآن والباقون بالكسر . قال أبو على : الوجه الكسر وذلك أن اللام من ابن ياء أو واو فاذا صغرت الحقت ياء التحقير ، فلزم أن ترد اللام المحذوفة وإلا لزم أن تحرك ياء التحقير بحركات الاعراب لكنها لا تحرك لأنها لو حركت لزم أن تنقلب كما تنقلب سائر حروف المد واللين إذا كانت حروف إعراب ، نحو عصا وقفا ولو انقلبت بطلت دلالتها على التحقير ثم أضفت إلى نفسك اجتمعت ثلاث آيات . الأولى : منها للتحقير . والثانية : لام الفعل . والثالثة : التى للاضافة تقول : هذا بنى فاذا ناديته صارفيه وجهان : إثبات الياء وحذفها والاختيار حذف الياء التى للاضافة وإبقاء الكسرة دلالة عليه نحو ياغلام ومن قرأ (يابنى) بفتح الياء فانه أراد الاضافة أيضا كما أرادها من قرأ بالكسر لكنه أبدل من الكسرة الفتحة ومن الياء الألف تخفيفا فصار يابنيا كما قال :

يابنة عما لا تلومى واهجعى

ثم حذف الألف للتخفيف .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن نوح عليه السلام أنه دعاه الى أن يركب السفينة حكى عن ابنه أنه قال (سآوى الى جبل يعصمنى من الماء) وهذا يدل على أن الابن كان متماديا فى الكفر مصرا عليه مكذبا لأبيه فيما أخبر عنه فعند هذا قال نوح عليه السلام (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) وفيه سؤال ، وهو أن الذى رحمه الله معصوم ، فكيف يحسن استثناء المعصوم من العاصم وهو قوله (لا عاصم اليوم من أمر الله) وذكروا فى الجواب طرقا كثيرة .

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ

﴿الوجه الأول﴾ أنه تعالى قال قبل هذه الآية (وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم) فبين أنه تعالى رحيم وأنه برحمته يخلص هؤلاء الذين ركبوا السفينة من آفة الغرق.

إذا عرفت هذا فنقول: إن ابن نوح عليه السلام لما قال: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء. قال نوح عليه السلام أخطأت (لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) والمعنى: إلا ذلك الذي ذكرت أنه برحمته يخلص هؤلاء من الغرق فصار تقدير الآية: لاعاصم اليوم من عذاب الله إلا الله الرحيم وتقديره: لافرار من الله إلا إلى الله. وهو نظير قوله عليه السلام في دعائه «وأعوذ بك منك» وهذا تأويل في غاية الحسن.

﴿الوجه الثاني﴾ في التأويل وهو الذي ذكره صاحب حل العقد أن هذا الاستثناء وقع من مضمر هو في حكم الملفوظ لظهور دلالة اللفظ عليه، والتقدير: لا عاصم اليوم لأحد من أمر الله إلا من رحم. وهو كقولك لانضرب اليوم إلا زيدا، فان تقديره لاتضرب أحداً إلا زيداً إلا أنه ترك التصريح به لدلالة اللفظ عليه فكذا ههنا.

﴿الوجه الثالث﴾ في التأويل أن قوله (لاعاصم) أي لاذا عصمة كما قالوا: رامح ولابن ومعناه ذو رمح، وذو لبن وقال تعالى (من ماء دافق) و (عيشة راضية) ومعناه ماذكرنا فكذا ههنا. وعلى هـــذا التقدير: العاصم هو ذو العصمة. فيدخل فيه المعصوم. وحينئذ يصح استثناء قوله (إلا من رحم) منه

﴿الوجه الرابع﴾ قوله (لاعاصم اليوم من أمر الله الامن رحم) عني بقوله الامن رحم نفسه، لأن نوحا وطائفته هم الذين خصهم الله تعالى برحمته، والمراد: لاعاصم لك إلا الله بمعنى أن بسببه تحصل رحمة الله. كما أضيف الاحياء إلى عيسى عليه السلام في قوله (وأحيي الموتى) لأجل أن الاحياء حصل بدعائه.

﴿الوجه الخامس﴾ أن قوله (إلا من رحم) استثناء منقطع. والمعنى لكن من رحم الله معصوم ونظيره قوله تعالى (مالهم به من علم إلا اتباع الظن) ثم إنه تعالى بين بقوله (وحال بينهما الموج) أي بسبب هذه الحيلولة خرج من أن يخاطبه نوح (فكان من المغرقين)

قوله تعالى ﴿وقيل ياأرض ابلعي ماءك وياسماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت

وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ «٤٤»

على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾

اعلم أن المقصود من هـذا الكلام وصف آخر لواقعة الطوفان ، فكان التقدير أنه لما انتهى أمر الطوفان قيل كذا وكذا (ياأرض ابلعى ماءك) يقال بلع الماء يبلعه بلعاً إذا شربه وابتلع الطعام ابتلاعا إذا لم يمضغه ، وقال أهل اللغة : الفصيح بلع بكسر اللام يبلع بفتحها (وياسماء أقلعى) يقال أقلع الرجل عن عمله إذا كف عنه ، وأقلعت السماء بعد ماامطرت إذا أمسكت (وغيض الماء) يقال غاض الماء يغيض غيضاً ومغاضاً إذا نقص وغضته أنا . وهذا من باب فعل الشيء وفعلته أنا ومثله جبر العظم وجبرته . وفغر الفم وفغرته ، ودلع اللسان ودلعته ، ونقص الشيء ونقصته ، فقوله (وغيض الماء) أى نقص وما بقى منه شيء .

واعلم أن هذه الآية مشتملة على ألفاظ كثيرة كل واحد منها دال على عظمة الله تعالى وعلو كبريائه : فأولها : قوله (وقيل) وذلك لأن هذا يدل على أنه سبحانه فى الجلال والعلو والعظمة ، بحيث أنه متى قيل قيل لم ينصرف العقل إلا إليه . ولم يتوجه الفكر إلا إلى أن ذلك القائل هو هو وهذا تنبيه من هذا الوجه ، على أنه تقرر فى العقول أنه لا حاكم فى العالمين ولا متصرف فى العالم العلوى والعالم السفلى إلا هو . وثانيها : قوله (ياأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى) فان الحس يدل على عظمة هذه الاجسام وشدتها وقوتها فاذا شعر العقل بوجود موجود قاهر لهذه الأجسام مستول عليها متصرف فيها كيف شاء وأراد ، صار ذلك سببا لوقوف القوة العقلية على كمال جلال الله تعالى وعلو قهره ، وكمال قدرته ومشيئته . وثالثها : أن السماء والأرض من الجمادات فقوله (ياأرض — وياسماء) مشعر بحسب الظاهر ، على أن أمره وتكليفه نافذ فى الجمادات فعند هذا يحكم الوهم بأنه لما كان الأمر كذلك فلأن يكون أمره نافذاً على العقلاء كان أولى وليس مرادى منه أنه تعالى يأمر الجمادات فان ذلك باطل بل المراد أن توجيه صيغة الأمر بحسب الظاهر على هذه الجمادات القوية الشديدة يقرر فى الوهم نوع عظمته وجلاله تقريراً كاملا .

وأما قوله ﴿وقضى الأمر﴾ فالمراد أن الذى قضى به وقدره فى الأزل قضاء جزماً حتما فقد وقع تنبيها على أن كل ماقضى الله تعالى فهو واقع فى وقته . وأنه لادافع لقضائه ولا مانع من نفاذ حكمه فى أرضه وسمائه .

فان قيل : كيف يليق بحكمة الله تعالى أن يغرق الأطفال بسبب جرم الكفار ؟

قلنا : الجواب عنه من وجهين : الأول : أن كثيراً من المفسرين يقولون إن الله تعالى أعقم أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة فلم يغرق إلا من بلغ سنه إلى الأربعين .

ولقائل أن يقول : لو كان الأمر على ماذكرتم ، لكان ذلك آية عجيبة قاهرة . ويبعد مع ظهورها استمرارهم على الكفر ، وأيضاً فهب أنكم ذكرتم ما ذكرتم فما قولكم فى إهلاك الطير والوحش مع أنه لاتكليف عليها البتة .

والجواب الثانى : وهو الحق أنه لااعتراض على الله تعالى فى أفعاله (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) وأما المعتزلة فهم يقولون إنه تعالى أغرق الأطفال والحيوانات ، وذلك يجرى مجرى اذنه تعالى فى ذبح هذه البهائم وفى استعمالها فى الأعمال الشاقة الشديدة .

وأما قوله تعالى ﴿واستوت على الجودى﴾ فالمعنى واستوت السفينة على جبل بالجزيرة يقال له الجودى ، وكان ذلك الجبل جبلا منخفضاً . فكان استواء السفينة عليه دليلا على انقطاع مادة ذلك الماء وكان ذلك الاستواء يوم عاشوراء .

وأما قوله تعالى ﴿وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ ففيه وجهان : الأول : أنه من كلام الله تعالى قال لهم ذلك على سبيل اللعن والطرد . والثانى : أن يكون ذلك من كلام نوح عليه السلام وأصحابه لأن الغالب ممن يسلم من الأمر الهائل بسبب اجتماع قوم من الظلمة فاذا هلكوا ونجا منهم قال مثل هذا الكلام ولأنه جار مجرى الدعاء عليهم فجعله من كلام البشر أليق .

تم الجزء السابع عشر ، ويليه إن شاء الله تعالى الجزء الثامن عشر . وأوله قوله تعالى ﴿ونادى نوح ربه﴾ من سورة هود . أعان الله على إكماله

فهرست

الجزء السابع عشر

من التفسير الكبير للامام الفخر الرازى

تم الفهرس